

إنسانيات

سقوط الفرعون

ثمانية عشر يومًا غيرت وجه مصر

روبير سوليه

ترجمة: د. ناهد الطنانى


الهيئة المصرية العامة للكتاب

سقوط الفرعون

ثمانية عشر يوما غيرت وجه مصر



تنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

سقوط الفرعون
ثمانية عشر يوما غيرت وجه مصر

تأليف

روبير سوليه

ترجمة

د.ناهد الطنانى



سوليه، روبير
سقوط الفرعون ثمانية عشر يومًا غيرت وجه مصر/
تأليف روبير سوليه؛ ترجمة: ناهد الطناني. ـ القاهرة:
الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٣
٢٧٢ص، ٢٤سم. ـ (مكتبة الأسرة).
تدمك ٩٧٨.٩٧٧.٤٤٨.٢٨٩.٢
١ ـ مصر ـ تاريخ ـ العصر الحديث ـ ثورة ٢٠١١.
٢ـ مصر ـ تاريخ ـ الثورات.
أ ـ الطناني، ناهد (مترجم)
ب ـ العنوان
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠١٣/٨٥٣١
I.S.B.N 978- 977- 448-289 -2
ديوي ٩٦٢.٠٨

توطئة

مشروع له تاريخ

مشروع «القراءة للجميع» أى حلم توفير مكتبة لكل أسرة، سمعنا به أول مرة من رائدنا الكبير الراحل توفيق الحكيم.

وكان قد عبر عن ذلك فى حوار أجراه معه الكاتب الصحفى منير عامر فى مجلة «صباح الخير» مطلع ستينيات القرن الماضى، أى قبل خمسين عامًا من الآن.

كان الحكيم إذًا هو صاحب الحلم، وليس بوسع أحد آخر، أن يدعى غير ذلك.

وهو، جريًا على عادته الخلاقة فى مباشرة الأحلام، تمنى أن يأتى اليوم الذى يرى فيه جموعًا من الحمير النظيفة المطهمة، وهى تجر عربات الكارو الخشبية الصغيرة، تجوب الشوارع، وتتخذ مواقعها عند نواصى ميادين المحروسة، وباحات المدارس والجامعات، وهى محملة بالكتب الرائعة والميسورة، شأنها فى ذلك شأن مثيلاتها من حاملات الخضر وحبات الفاكهة.

ثم رحل الحكيم مكتفيا بحلمه.

وفى ثمانينيات القرن الماضى عاود شاعرنا الكبير الراحل صلاح عبد الصبور التذكير بهذا الحلم القديم، وفى التسعينيات من نفس القرن، تولى الدكتور سمير سرحان تنفيذه تحت رعاية السيدة زوجة الرئيس السابق. هكذا حظى المشروع بدعم مالى كبير، ساهمت فيه، ضمن من ساهم، جهات حكومية عدة، وخلال عقدين كاملين صدرت عنه مجموعة هائلة من الكتب، بينها مؤلفات ثمينة يجب أن نشكر كل من قاموا باختيارها، إلا أنه، للحقيقة ليس غير، حفل بكتب أخرى مراعاة لخاطر البعض، وترضية للآخر، ثم إن المشروع أنعش الكثير من متطلبات دور النشر، بل اصطنع بعضها أحيانًا.

وبعد ثورة ٢٥يناير والتغيرات التى طرأت توقفت كل الجهات الداعمة لهذا المشروع الثقافى عن الوفاء بأى دعم كانت تحمست له عبر عقدين ماضيين، سواء كانت هذه الجهات من هنا، أو كانت من هناك.

ولم يكن أمام اللجنة إلا مضاعفة التدقيق فى كل عنوان تختار، وسيطر هاجس الإمكانات المحدودة التى أخبرتنا بها الهيئة فى كل آن.

والآن لم يبق إلا أن نقول بأن هذه اللجنة كانت وضعت لنفسها معيارًا موجزًا:

جودة الكتاب أولاً، ومدى تلبيته، أولاً أيضًا، لاحتياج قارئ شغوف بأن يعرف، ويستمتع، وأن ينمى إحساسه بالبشر، وبالعالم الذى يعيش فيه.

واللجنة لم تحد عن هذا المعيار أبدًا، لم تشغل نفسها لا بكاتب، ولا بدار نشر، ولا بأى نوع من أنواع الترضية أو الإنعاش، إن لم يكن بسبب التربية الحسنة، فهو بسبب من ضيق ذات اليد.

لقد انشغلنا طيلة الوقت بهذا القارئ الذى انشغل به قديمًا، مولانا الحكيم.

لا نزعم، طبعًا، أن اختياراتنا هى الأمثل، فاختيار كتاب تظنه جيدًا يعنى أنك تركت آخر هو الأفضل دائمًا، وهى مشكلة لن يكون لها من حل أبدًا، لماذا؟

لأنه ليس هناك أكثر من الكتب الرائعة، ميراث البشرية العظيم، والباقى.

إبراهيم أصلان

مقدمة الطبعة العربية

علمتنى خبرتى فى مجال الصحافة والتى امتدت لأكثر من أربعين عامًا، أن أتحسب كثيرًا من الكتابة عن الأحداث الجارية. فكيف يمكن إعداد تقرير عن أحداث جارية لا تكف عن التطور؟. فمن الأسهل أن تكتب مثلا عن القرن التاسع عشر كما فعلت أنا كثيرًا، ففى هذه الحالة تكون حركة التاريخ قد توقفت ، ويمكن حينئذ إعادة ترتيب الحوادث من خلال كل العناصر المتوافرة ثم استنباط الدروس المستفادة.

آخر ما كتبته عن أحداث جارية كان فى عام ١٩٧٩، وكان عن اختطاف واغتيال «ألدو مورو» على أيدى الألوية الحمراء، وهو الحدث الذى كنت أكتب عنه تقريرًا يوميًا فى جريدة «لوموند» اليومية التى كنت مراسلاً لها فى إيطاليا آنذاك. وبعد ذلك كانت كل كتبى الأخرى إما روايات أو مقالات تاريخية، ولم أكن أتناول الأحداث الجارية إلا فى الجريدة. إلا أننى لم أستطع أن أقاوم إغراء أن أقص أحداث الثمانية عشر يومًا التى أدت إلى سقوط حسنى مبارك. هذه الأحداث التى كنت أتابعها من باريس لحظة بلحظة عن طريق التليفزيون والإنترنت والاتصالات التليفونية العديدة، ولكن تبين لى بعد ذلك أن الكثير من التفاصيل قد فاتتنى. هنا تملكتنى الرغبة فى إعادة بناء كل الأحداث بالشكل الأكثر دقة، والأكثر اكتمالاً، والأكثر صدقًا قدر الإمكان، من خلال استعانتى

بكل ما قيل أو نشر هنا وهناك، ليس فقط إعادة تركيب الأحداث، بل وأيضًا تحليلها وشرحها على ضوء الستين عامًا السابقة عليها.

إذا ما قدر لى اليوم أن أروى قصة الثمانية عشر يومًا، بعد مسافة زمنية أكثر قليلاً، فإننى كنت ولا شك سوف أتوقف أكثر أمام هذه النقطة أو تلك، إلا إننى لم أكن لأغير شيئًا فى هذا الكتاب الذى ظهر فى فرنسا فى إبريل ٢٠١١، هذا الكتاب الذى لا يدعى التنبؤ بالمستقبل، كما أننى لم أكن لأغير شيئًا فى عنوانه «سقوط الفرعون» أو عنوانه الفرعى: «ثمانية عشر يومًا غيرت وجه مصر».

لا شك أن مصر قد تغيرت، ولكن ليس بالضرورة كما تصور الجميع فى غمرة الفرحة يوم ١١ من فبراير ٢٠١١، هذه الأيام الثمانية عشر الرائعة كان بها الكثير من الأشياء شديدة التأثير والوضوح: أولاً غياب الأيديولوجيا: لم تكن تلك الثورة انتفاضة شعب باسم الاشتراكية أو معاداة الصهيونية، أو باسم الإسلام، لكنها كانت انتفاضة باسم الحرية والكرامة وضد الفساد والتعذيب. ثم هذه الأجواء الرائعة عن الوحدة الوطنية، أغنياء وفقراء، شباب وعجائز، رجال وسيدات، محجبات وسافرات مسلمات ومسيحيات، جميعًا يهتفون معًا ويقاتلون معًا. ثم أخيرًا روح المواطنة. هذه الحركة التى بلا قائد تبدو شديدة التنظيم، يسدوها احترام للأشخاص والممتلكات.

الأربعة عشر شهرًا التى أعقبت هذه الفترة، كثيرًا ما أعطت انطباعًا عكسيًا، على الرغم من فيض المبادرات وحرية تعبير جديرة بكل تقدير، سمحت بالتناول الصريح لكل الموضوعات تقريبًا. أما الإخوان المسلمون والسلفيون الذين تصدروا المشهد، فقد جعلوا الدين هو محور لكل نقاش، وشاركوا فى مواجهات طائفية، تحولت أكثر من مرة إلى نهايات درامية. وتفتت وحدة ميدان التحرير الرائعة، ودفع أبطال المقدمة فى هذه الحركة ثمنًا غاليًا لانقسامهم فى الانتخابات البرلمانية.

وعادت كل العادات السيئة للظهور مرة أخرى على السطح، ظهرت كل أمراض المجتمع مرة أخرى بوضوح شديد، وانهارت الساحة، لأن صورة مصر قد تغيرت.

دائمًا ما كان لبلاد الفراعنة سحر كبير على الأجانب، ولا توجد أى حضارة قديمة أخرى قد تركت مثل هذا الكم من الآثار المذهلة التى اختلطت فيها أسرار الهيروغليفية والمومياوات بروح من الانسجام والتوازن. إن فن الحضارة المصرية القديمة بخطوطه الواضحة هو فن لا تتجاوزه السنون. وهذه الكنوز الثمينة تتلألأ فى لوحة طبيعية آسرة برمالها ومياهها.

كل هذا جعل من مصر «بلد الأحلام» التى تداعب الخيال، «مصر الأبدية» التى ظلت صورتها حتى هذه اللحظة مرتبطة بالدوام والاستقرار فى عالم تتسارع خطوته يومًا بعد يوم.

كان المصريون يتملكهم شعور غير لطيف بأن السائحين لا يهتمون بهم بل بأجدادهم من التاريخ القديم، ليس هذا بالأمر الصحيح تمامًا، فبلد الفراعنة أصبح لها الآن صورة حضارية تتخللها مواجهات دامية، وكان لحريق المجمع العلمى فى ديسمبر عام ٢٠١١ نتائج كارثية، مصر التى كانت مبعث الأمان والطمأنينة صارت الآن محل سؤال دائم لا يكف البعض عن ملاحقتى به: «أتعتقد أن السفر إلى مصر قد يكون قرارًا عاقلاً؟ ألن يكون أمرًا خطيرًا؟!».

إن وادى النيل ليس بالوجهة التى يسهل استبدالها، فلا يوجد سوى أقصر واحدة وأسوان واحدة فى العالم كله... كل الأمور تدفع إلى الاعتقاد أن مصر ستظل مركز جذب وإبهار، ولكنها لن تكون مصر الفراعنة فقط، تلك التى تجذب وتبعث مشاعر الانبهار. نحن نعيش فى عالم تسيطر عليه الآلة الإعلامية، وتطرد الأحداث بعضها بعضًا من دائرة الضوء. لقد توجهت دائرة اهتمام الإعلام الغربى إلى مصر ثم تونس ثم ليبيا ثم سوريا... ولا تكون القاهرة محور حديث إلا إذا شهدت أحداثًا جسامًا ومقلقة بصفة عامة.

وما أطلق عليه «الربيع العربى» بات أقرب إلى شتاء قارس البرودة، ففى الوقت الذى أكتب فيه هذه السطور تحمل الأخبار الجارية فى مصر كل يوم مفاجأة جديدة، حالة شديدة من عدم وضوح الرؤية تسيطر علينا جميعًا. لا أحد يعلم ما يحمله الغد ولكن الجميع يدرك أن تاريخًا طويلاً قد بدأ.

الثورة دائمًا ما تحمل فى طياتها الألم والفوضى، وعامة ما تعقبها ثورة مضادة. رأينا ذلك فى فرنسا حيث توقفت انتفاضة مايو ١٩٦٨ فى الشهر التالى بفوز ساحق للمحافظين فى الانتخابات، ولكن هذا لم يمنع روح مايو من أن تتغلغل شيئًا فشيئًا فى المجتمع الفرنسى حتى قامت بتحويله.

إن مجرد التطلع إلى الديمقراطية وطرد نظام شمولى لا يكفى لإقرار الديمقراطية. هناك فى مصر قوى ظلامية تسعى للاستفادة من حالة الاضطراب الحالية، لفرض أفكار تعود لعصر آخر، وإعادة البلاد قرونًا إلى الوراء، ولا أرى لماذا يجد هذا الشعب المتحضر نفسه مضطرًا للاختيار ما بين الديكتاتورية البوليسية، والديكتاتورية الدينية. فهناك طريق ثالث هو الديمقراطية.

إن الطريق إلى الديمقراطية طويل ومحفوف بمخاطر عديدة، ولكننى على قناعة بأنه لا يوجد طريق آخر يصل بنا إلى السلام والرخاء والكرامة.

روبير سوليه

باريس- ١٦ ابريل ٢٠١٢

تمهيد

لم يكن تواجدى فى ميدان التحرير فى صباح ذلك اليوم الثلاثاء الثامن عشر من يناير ٢٠١١ مصادفة، فقد كان لدى موعداً مع فرعون! .. كنت انتهيت من كتاب عن حياة رمسيس الثانى فى العالم الآخر، وشغفنى أن ألقى نظرة على ابن آمون صفوة أولاد رع سيد الأرضين الذى يرقد جسده فى قاعة المومياوات الملكية فى المتحف المصرى. كان الكاتب خالد الخميسى فى انتظارى أنا وزوجتى فى مدخل هذا البناء الضخم وردى اللون ذو الطابع الإغريقى الرومانى، حين كنت أحاول جاهدًا الوصول إلى مكان اللقاء.

وميدان التحرير هو أكثر ميادين مصر ازدحاما وعلى الرغم من إلغاء محطة الحافلات المتجهة إلى مختلف مدن مصر، إلا أن أعداد السيارات بالميدان قد تزايد بشكل كبير كما ازدادت بشدة حركة المارة نظراً لالتقاء خطى المترو الرئيسين داخل النفق الأرضى «محطة السادات»، والسيارات التى تبرز فجأة من كل اتجاه تصيب الرأس بالدوار. قدّم البير قصيرى فى قصته «ألوان من الفضائح»(*) وصفاً جيلاً له لم أجد له أثرا فى الواقع، فلا وجود لمن يمارس مهنة مساعدة السيدات على عبور الطريق. ولكن فى صباح يوم الثلاثاء هذا تمكن أحد رجال الشرطة

(*) البير قصيرى (٣ نوفمبر ١٩١٣ - ٢٢ يونيو ٢٠٠٨) قصاص مصرى يكتب باللغة الفرنسية هاجر الى فرنسا عام ١٩٤٥.

بسلطة حاسمة وشهامة تثير الإعجاب أن يوقف سيل السيارات ليسمح لنا بالعبور إلى الرصيف المقابل.

إن ميدان التحرير هذا المترامي الأطراف فريد من نوعه، وهل هو فعلاً ميدان؟!، فالبنايات تحيط به من جانب واحد فقط، كما أن حدوده متداخلة، فهو في واقع الأمر يتكون من ٦ مساحات متلاصقة تمتد لعدة هكتارات، هذا الميدان كان يطلق عليه في الأصل ميدان الإسماعيلية، نسبة إلى الخديوي اسماعيل الذى بهرته إنجازات المهندس الفرنسى هاوسمان Houseman فى تخطيط باريس ورغب في أن يجعل قاهرة ١٨٦٠ صورة مصغرة منها، وإليه تنسب عبارة مثيرة : «بلادي لا تقع في إفريقيا بل هى جزء من أوروبا»، وكلف اسماعيل آنذاك مبارك آخر هو على باشا مبارك بتنفيذ تلك الإنشاءات.

كان ميدان الإسماعيلية ساحة واسعة تربط النيل بالحى الأوروبى الجديد. وبعد عقدين من هذا التاريخ قام البريطانيون الذين أحكموا سيطرتهم على مصر ببناء ثكناتهم فى نفس هذا المكان وبامتداد نهر النيل. وفى عام ١٩٠٢ ظهر فى الميدان المتحف المصرى الجديد والذى قام بتصميمه المعمارى الفرنسى دورنيونن. ومن بعد أطلق على هذا المكان اسم التحرير بعد الانقلاب العسكرى لعام ١٩٥٢ الذى كان إيذاناً بالتحرر من الإنجليز والملكية فى آن واحد، وقد تركت القاعدة التى كانت مُعَدة لاستقبال تمثال الخديوى إسماعيل على حالها كما لو كانت دلالة على نهاية النظام السابق. أما ثكنات الجيش البريطانى فقد حل مكانها رموز للنظام الجديد: مقر الحزب الوحيد، ومقر للجامعة العربية إلى جانب مجمع التحرير هذا البناء الإدارى الضخم ذو الطابع السوفيتى الذى يعد تجسيداً للبيروقراطية والنظام البوليسى معاً.

وميدان التحرير يعكس صور الحياة فى مصر، حيث ظل المجمع ومقر جامعة الدول العربية والمتحف كما هم أما الحزب الواحد فقد حل محله الحزب الوطنى الديمقراطى بما يعنى عدم حدوث تغيير. ارتفعت الفنادق الشاهقة على ضفاف

النيل حاجبة الرؤية، أما مبنى مجلس الشعب - الذى لا علاقة لتسميته بحقيقته - فلا يبعد كثيراً عن الميدان، كذلك الجامعة الأمريكية، وأما الجانب الوحيد الذى تشغله المساكن فى هذا الميدان، فنجد بنايات متهالكة من جراء تثبيت الإيجارات القديمة، تضم فى أغلبها سكان من المسنين ودكاكين وبنسيونات عتيقة.

وقد اختفت من الميدان أماكن اللقاء وخصصت لأغراض أخرى، وقد توارى الزمن الذى كان صديقى شريف الشوباشى - الصحفى والكاتب ورئيس مهرجان القاهرة السينمائى السابق - يلعب الكرة على أحد أبسطة النجيل الأخضر بالميدان، وقد قام صديقى شريف هذا - بعد يومين من لقائى بفرعون - بإدارة الأمسية الأدبية التى خصصت لآخر رواياتى «أمسية فى القاهرة» وهى رواية تدور حول النفى والحنين للوطن، وفيها يشعر الراوى بالمجذاب شديد تجاه الفتاة الجامعية «أميرة» التى تدعوه أن يرى الواقع قائلة بدهشة: «هذا البلد فى حالة اختناق فهو بين سندال مهوسين غاضبين يزجون بالدين فى كل شيء وبين مطرقة سلطة وهن عظمها وتتدثر فى الفساد، نحن بحاجة إلى شهقة حياة، نبتغى عدالة اجتماعية وديمقراطية، ولن نتحدث عما يدور فى سجوننا فهو أمر يدعو للخجل!».

وكم كنت سعيداً عندما وجدت بين الحضور فى فندق سوفيتيل نحو اثنى عشر من زملائى فى مدرسة الجيزوبيت بالقاهرة، من بينهم منير عبد النور الأمين العام لحزب الوفد المعارض. كان النقاش ثرياً وشديد الحيوية، تحدثنا عن مصر الأمس واليوم، إلا أننى رفضت الإجابة عن سؤال طرحته صحفية بالأهرام حول تونس، ذلك لعدم رغبتى فى تكرار ما هو واضح وبين وما سبق أن استمعت إليه مراراً خلال رحلتى: إن مصر ليست تونس ووضع مبارك يختلف تماماً عن وضع بن على.

ثم كان يوم الثلاثاء التالى: نزل شعب مصر إلى الشارع، وبدأت أتابع من باريس ساعة بساعة ما سوف يطلق عليه سريعاً «ثورة ٢٥ يناير».

١

النموذج التونسى

الخامس والعشرون من يناير هو عيد الشرطة، وهو عطلة رسمية منذ العام الماضى، تحتفل فيه مصر بذكرى المعركة التى قادتها كتيبة الشرطة بالإسماعيلية عام ١٩٥٢ ضد المحتل البريطانى، واشتعلت القاهرة بالمعنى الحقيقى للكلمة غداة هذه المواجهة الدامية (خمسون قتيلاً) فقام المتمردون بإحراق المحال والفنادق والسينمات بالحى الأوروبى.. وبعد ستة أشهر من هذا اليوم، قام ضباط الجيش بقيادة جمال عبد الناصر بإسقاط الملك فاروق والاستيلاء على السلطة.

ولكن من ذا الذى يرغب حقيقة فى عام ٢٠١١ الاحتفال بالشرطة عدا رجال الشرطة أنفسهم؟!، فقد أصبحت صورة هذه المؤسسة بغيضة: مواطنون بسطاء يتعرضون كل يوم للامتهان من قبل شرطى بالزى الرسمى، بينما أصبح التعذيب ممارسة معتادة فى أقسام الشرطة، وفى مقار أمن الدولة الكئيبة.

– وماذا إذا ما جعلنا يوم الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١ «يوماً للغضب»؟

اقتراح طرحه بعض نشطاء الإنترنت.

– ستكون مظاهرة «ضد التعذيب والفقر والفساد والبطالة».

كانت أحداث تونس والتى احتلت صدارة المشهد لأسابيع مضت حافزاً للقيام

بالتعبئة. ففى السابع عشر من ديسمبر قام بائع شاب للخضروات والفاكهة بإحراق نفسه عقب مصادرة بضاعته، فحرك هذا الفعل اليائس مشاعر أبناء وطنه بشدة . رأى الكثيرون أن هذا العمل «تضحية» تجعل من محمد بو عزيزى «شهيداً». بعد عشرة أيام من هذا الحادث قامت الشرطة بتفريق مظاهرة لشباب من العاطلين بتونس العاصمة بالقوة. وأعقب ذلك مواجهات دامية فى مختلف المدن. وبدأت الديكتاتورية فى التفكك فى أقل من شهر. وهرب الرئيس بن على بعد أن تخلى عنه الجيش إلى المملكة العربية السعودية بشكل مثير للشفقة. وحصلت طائرته على إذن بالتحليق فوق شرم الشيخ فى البحر الأحمر - أحد أماكن الإقامة المعتادة لنظيره المصرى حسنى مبارك - .. «كان عليه أن يتوقف ليصطحبه معه» (قول ردده صناع النكتة في مصر).

فى ١٨ يناير حاول صاحب مطعم صغير بالقاهرة كان يطالب بالحصول على خبز مدعم، أن يشعل النار فى جسده أمام مجلس الشعب. فى اليوم التالى تكرر نفس السيناريو مع محامى فى الأربعين من عمره بعد أن ظل يهتف بشعارات ضد ارتفاع الأسعار أمام مقر الحكومة. حاول أيضاً موظف بالشركة الوطنية للمياه إحراق نفسه أمام مبنى التليفزيون. وقد أنقذوا جميعاً فى الوقت المناسب إلا إن شاباً عاطلاً من الإسكندرية لقى حتفه من آثار الحريق. وسجلت مختلف القرى نحو اثنى عشرة مأساة مماثلة. «عدوى الانتحار تنتقل إلى المصريين» كان هذا عنوان إحدى جرائد المعارضة[1] وانقسم علماء الاجتماع حول ظاهرة إحراق النفس: هل هو حقاً أمر جديد على مصر؟ .. ألم يسبق أن انتحر بعض الفلاحين بنفس الطريقة؟، بل إن حالات الانتحار التى تم إحصاءها فى مصر مؤخراً قد سجلت ارتفاعاً ملحوظاً خلال خمسة أعوام، قدرته الهيئة المركزية للإحصاء بنحو ١٠٤,٠٠٠ فى عام ٢٠٠٩ كلها من الشباب مابين ١٥ و٢٥ عاماً.

(١) الشروق - ١٩ يناير ٢٠١١.

تدخلت السلطات الدينية القريبة من السلطة السياسية، «الإسلام يحرم تحريما قطعياً الانتحار أياً ما كانت أسبابه، ولا يسمح للإنسان بالتخلص من حياته للتعبير عن السخط والغضب أو الاحتجاج» كان هذا تصريح المتحدث باسم الأزهر الشريف أكبر مؤسسة دينية فى العالم السنى، وقام نحو ٥٠,٠٠٠ (خمسون ألف) من أئمة المساجد التابعة للأوقاف بترديد هذه الفتوى فى صلاة الجمعة، واشتعلت الشبكة العنكبوتية، «إن الثورة لا تقوم بإحراق النفس بل بالنزول إلى الشارع»، وكانت أحداث تونس وتأثيرها المحتمل على الدول المجاورة هو الموضوع الرئيسى الذى نوقش فى القمة العربية التى انعقدت فى شرم الشيخ يوم ١٩ يناير ٢٠١٠ «لقد أصاب الانكسار النفس العربية نتيجة الفقر والبطالة وتراجع مؤشرات التنمية»، هكذا صرح رسمياً الأمين العام للجامعة العربية، المصرى عمرو موسى، وأضاف أن المواطنين العرب فى حالة من الغضب والإحباط لم يسبق لها مثيل!

فالبطالة وصعوبة الحصول على مسكن تمنع الشباب من الزواج، إضافة إلى ارتفاع لا يحتمل فى أسعار المواد الغذائية منذ عدة شهور، فكيلو اللحم وصل إلى ثمانين جنيهاً مصرياً بينما ٤٠٪ من السكان يعيشون تحت خط الفقر الذى هو أربعمائة جنيه فى الشهر.

ودفعت أحداث تونس الحكومة لتقديم بعض التنازلات لخفض أسعار المواد الغذائية الأساسية، علاوات للعاملين فى وزارتى التعليم والزراعة، خلق ألف فرصة عمل فى وزارة البترول، ولكن المثقفين طالبوا بمزيد من الإجراءات لتجنب الانفجار وطالبوا الرئيس مبارك فى خطاب مفتوح بعمل «إصلاح هادئ» داخل المؤسسات.أما جماعة الإخوان المسلمين فقد كانت أكثر جرأة فأكدت انه: إذا لم نكن نرغب فى حدوث انفجار على الطريقة التونسية فلابد من القيام سريعاً بحل البرلمان وعمل انتخابات جديدة ومراجعة الدستور[1].

---

(١) بيان بتاريخ ١٩ يناير ٢٠١١.

ألوان غير معتادة من التمرد

ظلت الصحافة الرسمية تكرر «إن مصر ليست تونس» وكان هذا أيضاً رأى أغلب المحللين المصريين والأجانب، والواقع أننا يمكن أن نعد قائمة طويلة بالاختلافات بين الجانبين. عدد سكان مصر البالغ ٨٥ مليون هو ثمانية أضعاف عدد سكان تونس، ومستوى التعليم فى المجتمع المصرى بشكل عام أقل منه فى تونس، ونسبة الفقر فيه أعلى بكثير، فنحو ٦٠٪ من المصريين يعيشون بأقل من ٥ يورو فى اليوم. من ناحية أخرى فالنظام السياسى فى مصر أكثر دكتاتورية من نظام بن على، فمبارك هو ابن المؤسسة العسكرية، بل إنه يعد أحد أبطالها، فقد كان قائدا للقوات الجوية خلال حرب عام ١٩٧٣ ضد إسرائيل. وإذا كان بن على وعائلته قد انتهكوا ثروات الشعب التونسى فمبارك بذاته لم يُتهم بالفساد المالى، رغم ان ولديه علاء وجمال قد أثروا ثراءا فاحشاً باستغلال النفوذ ، وأخيراً فإن مصر بها معارضة إسلامية شديدة التنظيم، قاومت كل أنواع الاعتقالات، وتبث الرعب فى نفوس جزء كبير من الشعب خاصة المسيحيين منهم. بإيجاز شديد فإن السيناريو التونسى لا يمكن أن يتكرر فى مصر، فهنا تتردد كلمة «معلهش» كثيراً على مدار اليوم، هنا يحسب لكل شيء حسابه كما أن التضامن الأسرى والاجتماعى يعين على مواجهة صعوبات الحياة. وقد عرف الشعب المصرى بخضوعه واحترامه للسلطة القائمة، والواقع أن مصر لم تنتظر أن تبدأ تونس بالتحرك، فقد شاهدنا منذ عدة أعوام أشكالاً غير مألوفة من التمرد غذتها الصعوبات الاقتصادية، وعدم المساواة الاجتماعية، والقبضة الحديدية - سياسية كانت أم دينية - التى كتمت أنفاس مواطنين متعطشين للحرية. وإذا كان الإعلام الرسمى قد حرص على ألا يعكس تطلعات المواطنين، فجرائد المعارضة التى خرجت للنور تزايدت جرأتها يوماً بعد يوم، معرضة نفسها لمخاطر شديدة فقانون الطوارئ الذى أقر فى عام ١٩٨١، بعد اغتيال أنور السادات لا يزال سارياً. وهذا يعنى حبس تعسفى واعتقالات غير محدودة المدة، ومحاكمات استثنائية. استمرت حالة الطوارئ تسع وعشرون عاماً ... واستمر حكم مبارك تسع وعشرون عاماً.

رغم كل ذلك انتشرت الأخبار، فمصر التى عانت طويلاً من الانغلاق، قد أصبحت لا تقيدها حدود، فيمكن فيها التقاط مختلف قنوات تليفزيون العالم، حتى أولئك الذين لا يستطيعون شراء هوائى فضائى، يكفيهم أن يقوموا بمد سلك - أو وصلة - ويتمتعون بالخدمة. منذ ثلاثون عاماً مضت كان من الصعب الاتصال عبر تليفون ثابت، أما الآن فقد انتشر التليفون المحمول حتى فى أكثر الأماكن تواضعاً. نحو ثلاث وعشرون مليون مصرى، أى ربع السكان يستطيعون الدخول إلى شبكة الانترنت، بشكل منتظم أو متقطع. وقد بذلت السلطة القائمة الكثير من الجهد لتطوير علم الاتصالات، الذى أصبح لا غنى عنه لاقتصاد الخدمات الذى تحتل فيه السياحة مكانة كبيرة.

بفضل شبكة الإنترنت صار كل شيء معروفاً، وشهدت بلاد الفراعنة العديد من نجوم المدونات، رجال ونساء من الشباب ينتمون للطبقة المتوسطة المتعلمة، يتحدثون الإنجليزية ويعطون لأنفسهم الحق فى إدانة التعذيب والحبس التعسفى، ويعود الفضل إلى واحد منهم هو وائل عباس، فى نشر فيديو شديد القسوة فى عام ٢٠٠٧، يعرض الانتهاكات الجنسية التى تعرض لها سائق تاكسى شاب لمجرد تجرؤه على الدفاع عن قريبه الذى انهال عليه شرطيون بالضرب. فى عام ٢٠٠٤ نزل حفنة من الشباب الجسور إلى الشارع، رافعين لافتات كتب عليها «كفاية» فقالوا كل شيء فى كلمة واحدة!.. هذه الحركة التى يقودها نقابى قبطى، هو جورج إسحاق، جمعت حولها ناشطين من مختلف الأطياف: شيوعيون، إخوان مسلمون، وبعض الكتاب مثل علاء الأسوانى، صاحب الكتاب الأكثر مبيعاً، «عمارة يعقوبيان»، الذى تناول أيضاً السلطة بالهجوم. لم تحشد حركة كفاية الكثير من الأشخاص، ولكنها عرفت كيف تحدث ضجة، فقد نادت بإصلاحات وطالبت مبارك بشكل علنى، بعدم الترشح لفترة رئاسية خامسة، وأن يتراجع عن توريث الرئاسة لابنه جمال.

وبالتوازى مع ذلك تم تنظيم إضرابات داخل المصانع احتجاجاً على ضعف الأجور وارتفاع تكاليف الحياة. وفى مدينة المحلة الكبرى كانت شركة مصر للغزل

والنسيج درة القطاع العام، الذى تم تأميمه، فى قلب المعركة. وألقى القبض على جورج إسحاق وخمسين عضواً من حركة كفاية، لتأييدهم للإضراب العام الذى تمت الدعوة إليه يوم ٦ ابريل ٢٠٠٨. لكن جيلاً جديداً كان قد استلم الراية. وكتبت المدونة إسراء عبد الفتاح - ثلاثون عاماً - على الفيس بوك «لا عمل - لا جامعة - لا مدرسة - لا تجارة. نحن فقط فى حاجة إلى العدل، نحن بحاجة إلى مرتبات تكفينا، نحن بحاجة إلى عمل»[1].

«كلنا خالد سعيد»

هناك مدون آخر تصدر اسمه صفحات الجرائد، ولكن هذه المرة بشكل مأساوى هو خالد سعيد. شاب وسيم فى الثامنة والعشرين من عمره، ليس له اهتمامات سياسية، ويدير شركة كومبيوتر صغيرة . جرؤ على نشر صوراً لرجال شرطة عبر شبكة الانترنت وهم يتقاسمون سوياً الغنيمة التى حصلوا عليها من القبض على مجموعة من تجار المخدرات، وفى السادس من يونيه ٢٠١٠، قام شرطيان يرتديان الزى المدنى بالقبض عليه فى أحد مقاهى الإنترنت بمدينة الإسكندرية. وسرعان ما وضعا القيد الحديدى فى يديه، وقاما بدفعه بشدة على حافة رخامية، ثم جلبوه إلى الرصيف وقاما بضربه بشكل وحشى حتى فاضت روحه.

طبقاً للرواية الرسمية، فإنه قد رفض إبراز بطاقة الهوية، قبل أن يبتلع لفافة مخدر أودت بحياته...وأصبح خالد سعيد أيقونة، فكل خمسة عشر يوماً - تجوب مجموعة من المتظاهرين الشباب الشوارع فى عديد من مدن مصر، مرتدين تى شيرتات سوداء اللون ويوزعون منشورات تحمل صورة وجهه المشوه. وأطلقت على الفيس بوك صفحة باسم «خالد سعيد» جمعت عدداً متزايداً من الأعضاء.

فى هذه الأثناء ظهر على الساحة السياسية شخصية غير متوقعة: محمد البرادعى،

---

(١) كلود جيوبال (جريدة ليبراسيون) ٥ - ٦ فبراير ٢٠١١.

الذى ظل منذ ١٩٩٧ إلى ٢٠٠٧ على رأس الوكالة الدولية للطاقة الذرية - أحد منظمات الأمم المتحدة، المكلفة بتعزيز الاستخدامات السلمية للطاقة النووية ومنع دول جديدة من امتلاك القنبلة الذرية. هذا الرجل البالغ من العمر ٦٨ عاماً ذى الوجه الهادئ، والشارب الرمادى، نال جائزة نوبل للسلام لعام ٢٠١٠، جرى استقباله فى مطار القاهرة بهتافات مدوية «البرادعى رئيساً»، وهكذا دخل إلى حلبة الصراع، هذا الموظف الدولى المرموق، المحال للمعاش، الذى كان قد بدأ منذ عدة أشهر فى انتقاد غياب الديموقراطية فى مصر. وجمعت لجنة دعم ترشيحه للرئاسة فى زمن وجيز، مئات الآلاف من التوقيعات، من بين هذه اللجنة: الشاعر عبد الرحمن يوسف، الذى قام بعمل موقع www.elbaradie2011.com والكاتب علاء الأسوانى الذى صرح «لقد جاء محمد البرادعى فى الوقت المناسب، لا كمنقذ بل كرجل نزيه وحكيم. أيفتقد إلى الوسامة والكاريزما؟ إذا كان ذلك صحيحاً، فخير وبركة، لسنا بحاجة إلى جيفارا».

وفى إطار حملة الترشيح، جرى إنشاء الجمعية الوطنية للتغيير للمطالبة بإصلاحات سياسية واجتماعية. وبدأ شباب حملة البرادعى، وقد ارتدوا تى شيرتات مزدانة بنظارته الطبية المستديرة وشاربه، فى توزيع المنشورات والدعاية النشطة فى الفيس بوك والتويتر.

فى نوفمبر ٢٠١٠ تحولت الانتخابات التشريعية، إلى مذبحة، فمحاولات الإرهاب من قبل النظام، وحشو صناديق الاقتراع، وصلت إلى الحد الذى جعل الإخوان المسلمين، وحزب الوفد الليبرالى، يقررون عدم المشاركة فى الجولة الثانية، هكذا حصل الحزب الوطنى الديموقراطى، بقيادة مبارك وابنه على الاكتساح شبه الكامل لمقاعد مجلس الشعب.

وكان الإخوان المسلمون قد نجحوا فى الانتخابات السابقة فى ٢٠٠٥، فى انتزاع ٢٠٪ مقاعد البرلمان، ورغبة فى منعهم من تكرار هذا الإنجاز، لجأ النظام إلى استخدام التزوير الذى تجاوز الخيال.

وتوارت هذه الفضيحة الانتخابية بفعل حادث غير مسبوق فى ليلة ٣١ ديسمبر عشية أول يناير، انفجرت قنبلة أمام أحد الكنائس القبطية فى الإسكندرية حيث كان عدد من الأقباط يحتفلون بقدوم العام الميلادى الجديد، أسفر الحادث عن مقتل واحد وعشرون شخصاً، وجرح تسع وسبعون. ومن هول الألم قام بعض شباب الأقباط بمواجهة عنيفة مع قوات الأمن. وتوجهت أصابع الاتهام إلى النظام، الذى أدان بدوره أيد أجنبية تسعى إلى عمل شرخ فى الوحدة الوطنية. هكذا انهار أول التابوهات، فما يتعرض له أقباط مصر من تمييز، بدأ تداوله على الساحة العامة، هكذا توافرت منذ فترة بعيدة كل عناصر التمرد.

تحدد ميعاد مظاهرات ٢٥ يناير قبل بداية أحداث تونس، «لم تكن المرة الأولى التى ينزل فيها الناس إلى الشارع فى يوم عيد الشرطة» كما يقول عبد الرحمن يوسف المدير السابق لحملة البرادعى. «كان من الممكن ألا يزيد العدد عن ٢٠٠ كالمعتاد، ولكن هذه المرة كان هناك بن على وتونس، التى أثبتت لنا أن الأمر ممكن»[1]، وعلى الفيس بوك بدأت مجموعة اتخذت العلمين المصرى والتونسى شعاراً لها فى جمع توقيعات على الانترنت، لمن أكدوا استعدادهم إلى التظاهر فى يوم عيد الشرطة. ووصل العدد إلى نحو ٩٠٠,٠٠٠ وهو ما لم يحدث من قبل. وكتب منظمو الحملة «إن احتجاجات الخامس والعشرين من يناير هى نهاية للصمت والخضوع والامتثال، وبداية صفحة جديدة فى تاريخ مصر».

كانت حركة ٦ ابريل ضمن حركات أخرى على الانترنت من الداعين إلى هذا اليوم كما شاركت أيضاً والدة خالد سعيد، الشاب الذى ضربه رجلى شرطة حتى الموت فى الإسكندرية، فى الدعوة إلى النزول إلى الشارع من أجل وضع حد لهذه الممارسات. أعلن الإخوان المسلمين والوفد عدم مشاركتهم فى «يوم الغضب» هذا، ولكنهم سمحوا لشبابهم بالمشاركة. أما أعضاء الحزب الناصرى الصغير، فقد

---

(١) حوار مع عبد الرحمن يوسف - القاهرة - ٢٨ مارس٢٠١١.

كانوا منقسمين إلى الحد الذى لم يمكنهم من اتخاذ موقف محدد. ورأى حزب التجمع (اليسار الماركسي) من غير المناسب التظاهر يوم ٢٥ يناير.

وقرر محمد البرادعى الموجود حينذاك فى فيينا، العودة لمصر لهذا اليوم. وأيد عبر صفحته على الفيس بوك «الدعوة إلى التظاهر ضد القمع» وأدان «التهديد باستخدام القوة من قبل نظام يرتجف أمام شعبه». وصرح قائلاً لأحد الصحفيين الألمان «إذا كان التونسيون قد فعلوها فمن المؤكد أن المصريين قادرين أيضاً على فعلها»[١].

ولم يُسمح بالمظاهرة، وذكرت منظمة العفو الدولية أنه جرى استدعاء بعض نشطاء المعارضة وتهديدهم بالحبس، إذا ما أصروا على فكرتهم، وصرح مدير الأمن أن: «قوات الأمن ستواجه بكل حزم ودون تردد أى محاولة لمخالفة القانون»، أما وزير الداخلية حبيب العادلى فقد أعطى أوامره بإلقاء القبض على أى شخص يعبر عن أفكاره بطريقة غير مشروعة.

لم يكن أحد فى يوم الاثنين الرابع والعشرون من يناير ٢٠١١ يتصور ما يحمله يوم غد، حتى أولئك الذين نظموا الدعوة إلى «يوم الغضب»، وهو ما أطلق عليه بالفعل بعض المدونيين «يوم الثورة».

---

(١) دير شبيجل - ٢٤ يناير ٢٠١١.

٢

يوم الغضب

فى صباح الثلاثاء انتشر عدد كبير من قوات الشرطة فى القاهرة، ولكن كالعادة ليس فى الأماكن الصحيحة. حدد رواد «الفيس بوك» أماكن عديدة للتجمع، ولكنهم نشروا عن عمد معلومات غير صحيحة. على سبيل المثال أعلنت مجموعة منهم أنهم سيتجمعون أمام المسجد الكبير فى وسط البلد، بينما كان مكان تجمعهم هو حى شعبى مجاور، كانت هذه المجموعة المختلفة فيما بينها تضم بعضاً من أنصار البرادعى، إلى جانب بعض المنتمين إلى الإخوان المسلمين، وبعض الأقباط. واختارت هذه المجموعة التركيز على مشاكل الحياة اليومية، فنادوا على زبائن المقاهى مرددين هتافا طريفة ضد الظلم الاجتماعى مثل «هم بياكلوا حمام وفراخ وأحنا الفول دوخنا وداخ...»[١]. كما لو كان الجميع بانتظار هذه البداية، تقول سالى (٣٢ عام) أخصائية علم نفس قبطية من أب ايرلندى وأم مصرية «عندما وصلنا الحى لم يكن عددنا يتجاوز الخمسين وخرجنا منه بالآلاف».

فى اليوم الأول فقط قام شباب الوفد برفع أعلام حزبهم، هذه الأعلام

---

(١) نقلاً عن منى النجار - نيويورك تايمز - ١١ فبراير ٢٠١١.

الخضراء التى تحمل الهلال والصليب، كما حدث فى مظاهرات ١٩١٩ والتى كانت تنادى بالاستقلال،ستختفى تلك الأعلام فى اليوم التالى، ولن يرفع سوى العلم الوطنى بألوانه الأحمر والأبيض والأسود ويتوسطهم نسر صلاح الدين. وأخذ أغلب المتظاهرين من الشباب يهتفون «يا أهلينا ضموا لينا» فى دعوة للشعب للتعبئة، كما أخذوا يرددون نفس الهتاف الذى هُتف فى تونس منذ أسابيع قليلة «عيش، حرية، عدالة اجتماعية» ومرددين أيضاً «تونس هى الحل» (رداً على هتاف الإخوان المسلمين «الإسلام هو الحل»). فى المعتاد يكون هناك خمسة آلاف شرطى فى مواجهة خمسين من المتظاهرين.

ويقول خالد الخميسى وهو سيناريست قبل أن يكون كاتباً ناجحاً وعارفاً بالمجتمع المصرى جيداً، وهو صاحب احد الكتب الأكثر مبيعاً عن حواراته مع سائق تاكسى، وقد وجد الكثير من المصريين أنفسهم فى هذا الكتاب شديد الواقعية سهل القراءة والذى يطرح عبر لغة شعبية جذابة إحباطات هذه الأمة، يقول «عندما كتبت تاكسى عام ٢٠٠٥ كنت أعتقد أن هناك ثورة وشيكة فقد بدا لى أن كل الظروف توافرت لهذا الشعب كى ينتفض ومرت الأعوام ولم يحدث، ولم اعد اصدق فى إمكانية حدوث ثورة، كنت فاقداً للأمل مكتئباً، لذا فقد أصابنى الذهول من كمّ المواطنين الذين خرجوا للتظاهر يوم ٢٥ يناير»[١]، كان الشك قد بدأ يراوده منذ عدة أيام عندما تزايد بشكل مذهل عدد الذين سجلوا «اعجبنى like» على صفحات الفيس بوك الداعية للتظاهر. ولكن تسجيل الإعجاب عبر شبكة الإنترنت يختلف تماماً عن النزول إلى الشارع.

ومن جانبه يقول المحامى محمود أباظة الرئيس السابق لحزب الوفد: «أننى اعمل فى السياسة منذ أربعين عاماً واعرف كيف يتم تنظيم المظاهرات، ولكن

---

(١) حديث مع خالد الخميسى - القاهرة - ٢٢مارس ٢٠١١.

الانتقال من العالم الافتراضى إلى العالم الواقعى أى من شبكة الانترنت إلى الشارع كان يبدو شديد الصعوبة إن لم يكن مستحيلاً»[1].

وفى مواجهة أفراد قوات مكافحة الشغب بزيهم الأسود والخوذات فوق رؤوسهم، ظل المتظاهرون يرددون: سلمية... سلمية، واستمرت المطاردات بين الجانبين لعدة ساعات على طريقة القط والفار، فعندما يقترب المتظاهرون من مجلس الشعب يتم إبعادهم بواسطة مدافع المياه، فيقوم بعض الشباب بالوقوف بعرض الطريق لمنع العربات المصفحة من التقدم، أخذت المواجهات شكلاً أشد عنفاً بإلقاء القنابل المسيلة للدموع من جانب، ومواجهتها بقذف الحجارة من جانب آخر، وبدأت قوات النظام فى استخدام الرصاص المطاطى لإخلاء الطريق.

«لم تكن الشرطة على أية حال تستطيع قتلنا فقد كنا بكل المقاييس فى عداد الموتى» صيحة أطلقها سامى إمام[2] - ٥٣عاماً - مدرس بالمعاش.

يا جمال لارحل مع بابا

قام عبد المجيد - الموظف بأحد البنوك - يرفع لافتة باللغة الفرنسية مستوحاة من تونس «Moubarak De'gage» (أى ارحل يا مبارك)، تناقلتها كل وسائل الإعلام الناطقة بالفرنسية. وأعطى هذا انطباعاً زائفاً بالتواجد القوى للغة موليير فى مصر، بينما واقع الحال أنها فى تراجع شديد. وقال حامل اللافتة «هذا نظام غبى سينبغى علينا أن نكررها له أكثر من مرة، ولكننا على أتم استعداد لدفع الثمن» .. كان المتظاهرون يهتفون باللغة العربية «ارحل» أو بشكل أكثر سخرية «يا جمال ارحل مع بابا» وفى إشارة إلى النفى الإجبارى لـ بن على كان البعض يهتف «يا مبارك يا مبارك السعودية فى انتظارك».

---

(١) حديث مع محمود اباظة - القاهرة - ٢٢مارس ٢٠١١.

(٢) اسوشيتدبرس - الثلاثاء - ٢٥يناير ٢٠١١.

أصابت الدهشة الكثير من المصريين الذين كذبوا أعينهم وآذانهم، فلم يسبق من قبل أن جرى التحاور «مع الرئيس» بهذا الشكل. كانت الانتقادات والسخرية بالطبع تحدث على مستوى الأحاديث الخاصة، بل أن مبارك اشتهر بـ لقب «البقرة الضاحكة»، ولكن كان من الجنون أن يسمح احد لنفسه بسبه والتهكم عليه علناً.

يقول الكاتب جمال الغيطانى «كنت قد ألتقيته يوم ١١ يناير فى احتفال أقيم على شرف الدكتور مجدى يعقوب، كنا نحو مائة مدعو فى القصر الرئاسى بمصر الجديدة، للاحتفال بتسليم أعلى وسام مصرى وهو قلادة النيل إلى هذا الجراح العظيم. شعرت أننى أمام إمبراطور، فحسنى مبارك الذى تردد أنه مريض ظل واقفاً لنحو الساعة يحيى كل شخص لوقت طويل، كان يبدو فى قمة القوة، كان الله وحده يعلم ما الذى سيحدث بعد أسبوعين»[(١)].

لأول مرة فى القاهرة يبدو عدد المتظاهرين أكبر من عدد رجال الشرطة. يقول المعارض عمار على حسن[(٢)]: «لقد فاق هذا كل توقعاتنا، لقد شهدت العاصمة المصرية عدداً كبيراً من التجمعات فى ٢٠٠٣ و٢٠٠٩، ولكن ذلك كان بسبب أحداث خارجية، كغزو العراق والقصف الإسرائيلى لغزة. أما أن يكون التظاهر ضد الحكومة نفسها فهذا ما لم نشهده منذ اضطرابات ١٩٧٧ فى أعقاب ارتفاع أسعار الخبز». ويضيف عمار على حسن قائلاً «كنت أعتقد أن عددنا لن يتجاوز العشرات كالعادة، وعندما رأيت هذه الحشود الهائلة لم أتمالك نفسى من البكاء. وعندما رأيت المواطنين العاديين يجرون وراء رجال الشرطة قلت لنفسى «هالحن ذا - ها قد حانت اللحظة»

«لقد أصبح الحلم حقيقة» كما تقول جيجى إبراهيم (٢٤ عام) التى تدرس العلوم السياسية وتعتبر نفسها «اشتراكية ثورية». وهى مع صديقتها منى سيف ٢٥

(١) حوار مع جمال الغيطانى - القاهرة - ٢٥مارس ٢٠١١.

(٢) المصرى اليوم - ٢٦ مارس ٢٠١١.

عاماً احد لجوم التويتر[1].. هذا التويتر الذى سيتوقف عن العمل فى الرابعة والنصف. ولكن أنظمة الاتصال بالعبارات القصيرة كانت تتيح للمعارضين أن يحصلوا على المعلومات وأن ينظموا أنفسهم. إذ كان التواصل عبر الفيس بوك قد أصبح مستحيلاً أيضاً، كما تم قطع شبكات التليفون المحمول.

مكبرات صوت فى ميدان التحرير

توافد آلاف الأشخاص إلى ميدان التحرير حيث يوجد فندق هيلتون الكبير الذى انطفأت أنواره: فقد أغلق العام الماضى ليصبح «كارلتون» تحت الإنشاء. وتم تقسيم الميدان بحواجز معدنية مثبتة فى الأرض لمنع التجمعات الكبيرة. لابد أن نذكر هنا أن هذا الميدان كان دائماً ما يجتذب الحشود على سبيل المثال فى ١٩١٩ عندما خرجت القاهرة كلها إلى الشارع مطالبة بالاستقلال، وفى ١٩٦٧ لمطالبة عبد الناصر بالرجوع عن قرار التنحى، ثم ثلاثة أعوام بعد ذلك لتشييع جثمانه بالدموع، وفى ١٩٧٧ خلال مظاهرات ارتفاع الأسعار وأخيراً فى ٢٠٠٣ للاحتجاج على غزو العراق[*].

لم يكن من السهل على قوات الأمن منع الوصول إلى ميدان التحرير والشوارع المحيطة به، أو الموصلة إليه، فوفقاً لحسابات المهندس المدنى نزار السيد يوجد لحو ثلاث وعشرون[2] منفذ للميدان.

يقول الشاعر عبد الرحمن يوسف المنسق السابق للجمعية الوطنية للتغيير: «وصلنا ميدان التحرير فى لحو الخامسة. نظرت حولى فوجدت عدداً كبيراً من الناس لا أعرفهم. أعطيت نقوداً لبعض الشباب وطلبت منهم شراء ميكروفون

---

(١) ريمى اوردان - لوموند - ٢٥ فبراير ٢٠١١.

(*) أيضا تظاهر الطلاب فى ميدان التحرير عام ١٩٧٢ مطالبين السادات بخوض الحرب وقد خلد الشاعر امل دنقل هذا الحدث فى قصيدة الكعكة الحجرية. (المترجمة)

(٢) «القاهرة - حكايات مدينة»؛ دويل فبراير ٢٠١١، Histories of city

ومكبرات صوت، وهو ما قاموا به بالفعل. ثم سألنا «هل يوجد بيننا كهربائى يستطيع مساعدتنا»، فتقدم إلينا على الفور مهندسان كهربائيان!، «لقد بدأت ثورتنا»، قلت هذا فى الميكروفون قبل أن أعطى الكلمة للعديد من الشخصيات الموجودة. واستمرت هذه الإذاعة الثورية لمدة ساعتين، قبل أن تضطرنا مدافع المياه وقنابل المولوتوف على الفرار إلى الشوارع المجاورة»[1].

وتم بناء خيمة فى وسط الميدان حيث قرر بعض المتظاهرين البقاء طوال الليل والاعتصام حتى تلبية مطالبهم، كان من بينهم عادل أبو زيد عضو أحد أحزاب الوسط «الغد» الذى قال «لقد سحقت لمدة ٣٠ عاماً فيمكننى الاعتصام لشهر أو شهرين بل أننى سأظل هنا إلى أن يرحل مبارك»[2].

أما ياسر حسن - ٢٣ عاماً - فهو طالب بإعلام القاهرة وكان قد سبق له التظاهر فى الإسكندرية بعد وفاة المدون خالد سعيد فيقول: قلت لأحد أصدقائى «سوف أجعل مصر تتحرك» كلما تذكرت هذه الجملة ارتعش من الانفعال .. واستطعت مع بعض زملائى المتظاهرين الوصول إلى ميدان التحرير، حيث أدينا الصلاة. لم أكن قد خططت لتمضية الليل فى الميدان، ولم احضر أى شيء من أجل المبيت.

ولكننا قلنا: «إذا تركنا الميدان ستأتى الشرطة للبحث عنا فى منازلنا. لذا قررنا البقاء. كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل بست وثلاثين دقيقة تمامً عندما قامت قوات الأمن بمحاصرتنا بالكامل ولم تترك لنا سوى مخرجاً واحداً من ناحية الجامعة الأمريكية. كنا قد تعرضنا للكثير من الغازات المسيلة للدموع، ولكن أهالى الحى أمدونا بالخل والبصل للتخفيف من أثره»[3].

---

(١) حديث عبد الرحمن يوسف - القاهرة - ٢٨ مارس ٢٠١١.

(٢) المصرى اليوم - ٢٦ يناير ٢٠١١.

(٣) حديث مع ياسر حسن - القاهرة - ٢٢ مارس٢٠١١.

أما الكاتب علاء الأسوانى الذى اعتراه القلق على الشباب المحيطين به فقد حثهم فى نهاية الليل على العودة إلى منازلهم على أن يعودوا للميدان فى اليوم التالى. ولكنهم أصروا على البقاء - فصاح بهم فى عصبية «لا اعتقد أنكم تظنون أن حسنى مبارك سيأتى للقاءكم بالبيجامة !»، فبكى اثنان منهم وهنا رضخ لهم الأسوانى وقال «كانوا على حق وقد أدركت فى هذه اللحظة أن مصر لم تعد كما كانت، فلم يعد الناس يشعرون بالخوف»[1].

ولم تقتصر الاشتباكات بين الشرطة والمتظاهرين على منطقة وسط القاهرة، ولكنها امتدت إلى بعض الأحياء المحيطة، مثل شبرا أو حتى المطرية. وشهدت بعض المدن المختلفة مثل السويس وأسيوط والمحلة الكبرى أحداثاً كانت أحياناً شديدة العنف. فى الإجمالى كانت هناك إحدى عشرة محافظة (من ٢٩) مشاركة فى الأحداث.

لابد أن حسنى مبارك يشعر بالأسف الشديد لأنه جعل الخامس والعشرين من يناير عطلة رسمية.

أما الحصيلة فكانت ثلاث قتلى بينهم اثنين من متظاهرى السويس وشرطى قد أصيب بحجارة فى الرأس فى ميدان التحرير بالقاهرة، وأضافت وزارة الداخلية إلى ذلك إصابة ٧٢ شرطياً و٨٣ متظاهراً[*].

ولم تذكر الصحافة الحكومية شيئاً ذى قيمة كبيرة من هذا اليوم الذى سيذكره التاريخ .. كان عنوان جريدة الجمهورية فى اليوم التالى: «المتظاهرون يقطعون الطريق ويحدثون حالة من الفوضى فى ميدان التحرير»، أما جريدة الأهرام فقد

---

(١) حديث مع علاء الأسوانى - القاهرة - ٢٧ مارس٢٠١١.

(*) وآلاف المتظاهرين اخذوا إلى معسكرات الأمن المركزى بمدينة السلام، الجبل الاحمر وصلاح سالم. (الناشر).

انصب اهتمامها على ما يحدث فى ....بيروت!: «احتجاجات واسعة وإضرابات فى لبنان»، أما موقعها على الانترنت فقد وضع صورة لوزير الداخلية مبتسماً حاملاً الزهور والتعليق عليها: «احتفل المواطنون ورجال الشرطة فى جو من البهجة بعيد الشرطة فى مختلف المحافظات حيث تبادلوا الأزهار والشيكولاتة».

٣

الريس

كان العنف الشديد فى الهجوم على شخص «الريس» مثيراً لدهشة الكثير من المصريين، فعلى العكس من سلفية عبد الناصر والسادات، لم يثر حسنى مبارك أبداً مشاعر عنيفة فى أى من الاتجاهين: التزلف أو الكراهية. صورته فى الصدارة فى كل مكان، فما من يوم يمر منذ تسعة وعشرين عاماً دون أن تخصص له الصحافة احد مانشيتاتها. كل يوم به من أعمال وأفعال يتم عرضها وذكرها والاحتفاء بها دائماً. وإذا لم يكن هو تكون زوجته سوزان هى التى تتصدر المشهد. ولا يوجد لدى سيدة مصر الأولى ما يمكن أن تغبط عليه جيهان السادات ذات الشعبية الكبيرة فى الغرب، فهى مثلها من أم بريطانية وتتمتع بنفس الجاذبية والمظهر. كما أنها ذكية جامعية تتحدث الانجليزية بطلاقة، وتفهم اللغة الفرنسية، ولا ترتدى الحجاب على عكس غالبية المصريات. كما أنها تؤدى مهام وزير أعلى للشئون الاجتماعية والسياسية.

والتواجد الشديد للعائلة الرئاسية يكتمل بالابن الأصغر جمال. بعد أن أتم دراسته فى مدرسة سان جورج ثم الجامعة الأمريكية بالقاهرة عمل ببنك «أوف أمريكا» فى مصر ثم لندن.

هذا الرجل البالغ من العمر ٤٧ عاماً والذى تحيط به دائرة من الأصدقاء

الذين يتمتعون مثله بالعصرية والثراء، كان يحتل منصباً رئيسياً داخل الحزب الحاكم. وتدور الشكوك حول رغبة والده - أو على الأرجح والدته - فى أن يصبح وريثاً للحكم. ويصيح أحد متظاهرى يوم الثلاثاء - أحمد وجدى (٢٠ عاماً) طالب بكلية الطب - متعجباً «كفاية...كفاية! لا نريد أسرة حاكمة فمصر دولة جمهورية وليست مملكة»[١]، ويبدا الأمر كأن حسنى مبارك - ٨٢ عاماً - برفضه تعيين نائباً له يعد المكان لابنه ليخلفه عندما يصبح قادراً على ذلك.

أما هواة النكتة فى مصر فقد وجدوا منذ زمن طويل تفسيراً آخر: «كل رئيس مصرى يعين نائباً له أكثر غباءً منه هكذا اختار عبد الناصر السادات واختار السادات مبارك أما مبارك فلم يجد من هو أكثر منه غباءً».. ولكن مثل هذه المزحة لا يمكن ترديدها فى الأماكن العامة، فإذا أصبح ممكناً شيئاً فشيئاً التهكم على وزير أو حتى رئيس حكومة فقد ظلت ذات الفرعون مقدسة.

نصف قرن من الاضطرابات

فى الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١ نُسف حاجزا أدى إلى التحرر من كمّ كبير من المعاناة والإذلال والإحباطات، وعدم الفهم..فقد مرت مصر فى أقل من نصف قرن بتغيرات هائلة لم تستطع استيعابها، فهى ببساطة انتقلت من اشتراكية الدولة إلى الاقتصاد الخاص ومن الشقيق الأكبر السوفيتى إلى العم سام، ومن الحرب إلى السلام ومن العروبة إلى الإسلام. بالطبع لم يتم أى من هذه التحولات بين عشية وضحاها، ولكن أى منها لم تصاحبه تفسيرات كافية أو مشاورات شعبية أو أى نوع من الحوار الوطنى، وهو ما يفسر جزئياً هذه الهوة المتزايدة بين الشعب وقادته.

حين قام جمال عبد الناصر ومجموعته من الضباط الأحرار بالانقلاب على

---

(١) اشرف خليل - التايمز - ٢٦ يناير ٢٠١١.

الملكية فى يوليو ١٩٥٢، آنذاك كان عدد سكان مصر عشرون مليوناً، أما اليوم فهم أربعة أضعاف. كما حدث امتداد هائل فى المدن الكبرى، فامتدت المبانى بطول ساحل المتوسط من الإسكندرية إلى مرسى مطروح.

أما السكان فهم يتركزون حول شريط اخضر ضيق فى وسط الصحراء. والقرية المصرية اليوم بها عشرات الآلاف من السكان. ولم يعد أهل الريف ينزحون إلى المدينة بل صارت المدينة هى التى تسعى إليهم. ومن اجل توفير المياه والكهرباء لدولة مثل هذه فى حالة نمو دائم، كان لابد من بناء السد العالى بأسوان. هذا السد الذى غير جغرافية البلاد: فقد اختفت النوبة وحرم النيل من الفيضان، وتعرضت شاطئيه للتآكل ولنقص فى الطمى تمت الاستعاضة عنه بكميات هائلة من الأسمدة الكيماوية. ومع ذلك لم تستطع مصر أن تنتج القمح التى هى فى حاجة إليه. القمح الضرورى لصناعة الخبز أساس الغذاء، («العيش» بالعامية المصرية) وهى كلمة تعنى أيضاً الحياة. يزداد تعداد مصر مليون نسمة كل تسعة أشهر ومع ذلك فهناك بطء فى النمو الديموجرافى بسبب تنظيم الأسرة، وصعوبة الحصول على عمل أو مسكن. مما أدى إلى ارتفاع سن الزواج. ومتوسط العمر قد ارتفع من٤٧ عاماً فى الستينات إلى ٧٠ عاماً اليوم

كان الانقلاب العسكرى فى يوليو ١٩٥٢ قد منح المصريين للمرة الأولى الشعور بأنهم يصنعون مصيرهم. وبعد أربعة أعوام أعلن عبد الناصر تأميم قناة السويس، متحدياً الدول الغربية، ليصبح بطلاً للعالم العربى.

كان لمصر تأثيراً على كل جيرانها سواء عن طريق السياسة أو السينما أو الأغانى بل حتى بلهجتها. وجاءت هزيمة ١٩٦٧ أمام إسرائيل إعلاناً بوفاة عبد الناصر السياسية وإيذاناً بدخول المملكة العربية السعودية إلى الساحة.

قام الريس الجديد أنور السادات بالحرب من جديد فى ١٩٧٣ ولكن هذه المرة من أجل توقيع السلام برعاية الولايات المتحدة، وبعد أن استعاد قناة السويس، كان توقيع اتفاقية السلام زلزالاً حقيقياً عرض بلاده لبعض الوقت لمقاطعة

العرب. وإذا كان كثير من المصريين قد أيدوه فى هذه الخطوة فقد ضاقوا ذرعاً فيما بعد بمآل الصراع الفلسطينى الإسرائيلى، والاستيطان المتزايد فى الضفة الغربية.

أما الريس الثالث[1] حسنى مبارك فقد احترم بشدة معاهدة السلام، هذا السلام الذى أصبح «سلاماً بارداً» قبل أن يصبح اليوم شديد البرودة. وفى المقابل توثقت العلاقات بالولايات المتحدة، فالبلاد لا غناء لها عن المعونة أمريكية.

الانقلاب على عبد الناصر

ظل حسنى مبارك باسطاً حكمه على وادى النيل نحو ثلاثة عقود، لذا فإن أغلبية المصريين ومن بينهم ٣٠٪ أقل من خمسة عشر عاماً لم يعرفوا رئيساً سواه. ربما كان طول البقاء هو الذى منحه صورة الأب للبلاد، إذ أنه لا يملك أى كاريزما تتيح له ذلك.

ولد الفرعون الثالث لمصر فى عام ١٩٢٨ فى إحدى قرى الدلتا الصغيرة لأب يعمل فى المحكمة وهو يتميز بالبنية القوية وهدوء النفس، رجل شديد الواقعية وإن كان تحليقه فى السماء هو الذى منحه أعلى المراتب. كان ضابط فى السلاح الجوى عندما شهد بذهول شديد تدمير الطيران المصرى فى بداية حرب الأيام الست فى يونيه ١٩٦٧ . وقد اختاره عبد الناصر لمهمة إعادة بناء سلاح الطيران، قبل أن يعينه بعد عامين من ذلك رئيساً لأركان سلاح الطيران. كان مبارك أحد اللاعبين الأساسيين فى الحرب التالية ضد إسرائيل التى اندلعت فى أكتوبر ١٩٧٣ والتى أتاحت للقوات المصرية عبور قناة السويس. عينه السادات نائباً له، لذا كان هو أنسب من يخلفه بعد اغتياله فى أكتوبر ١٩٨١ .

---

(١) الرابع فى واقع الحال إذ أن اللواء محمد نجيب احتل منصب الرئيس عند الإعلان عن الجمهورية فى ١٨ يونيه ١٩٥٣، حتى تمت إزاحته من قبل عبد الناصر فى ١٤ نوفمبر ١٩٥٤.

تدين له مصر بثلاثة عقود من السلام الخارجي بينما كانت قد عاشت من قبل ثلاث حروب ضد إسرائيل (١٩٤٨ - ١٩٦٧ - ١٩٧٣) إلى جانب معارك أكتوبر ١٩٥٦ إثر تأميم قناة السويس، وبعض المغامرات العسكرية لعبد الناصر خاصة فى اليمن.

كان السادات بتوقيعه لمعاهدة السلام مع الدولة العبرية قد تعرض لمقاطعة الدول العربية له. أما مبارك فقد نجح فى الحفاظ على السلام وفى تهدئة الأجواء مع الدول العربية, فاستعادت مصر مكانتها وأصبحت القاهرة من جديد مقراً لجامعة الدول العربية.

خرج السادات تماماً عن مسار عبد الناصر، وأدار ظهره للشقيق الأكبر السوفيتى، ليتحالف مع العم سام. هنا أيضاً التزم مبارك الحدود، فقد دعم التعاون مع الولايات المتحدة التى تقدم لمصر معونة سنوية قدرها ١,٣ مليار دولار. وأصبح «الريس» شريكاً ثميناً للغربيين. كما عزز بدوره الاستقرار فى المنطقة بالوساطة بين الإسرائيليين والفلسطينيين، وأيضاً بين مختلف الفصائل الفلسطينية. وقد أثار ما يحظى به مبارك من احترام من قادة العالم إعجاب مواطنيه الذين اخذوا عليه مع ذلك عدم إبداء أية معارضة كافيه لإسرائيل والولايات المتحدة.

كان نظام مبارك بالنسبة للغربيين ولكثير من المصريين حصناً ضد التيار الإسلامى، وحاول مبارك إثبات ذلك بمنعه ظهور أى حزب ديمقراطى متماسك، كان دائماً ما يكرر «إما نحن أو الملتحون». ومع ذلك تراجع فى نواح عديدة أمام الأصولية وتركها تتغلغل بشكل ملحوظ فى التعليم العام. وما انتشار الحجاب الإسلامى أو علامة الصلاة على جبين الكثير من الرجال (دليل على الورع) إلا بعض المظاهر الصريحة للعودة إلى حظيرة التقاليد الإسلامية. أما دعاة التليفزيون الذين أصبحوا نجوماً بفضل الشاشة الصغيرة، فقد باتوا يطلقون أحكامهم على أدق تفاصيل الحياة فى المجتمع.

قطعاً كانت مصر دائماً دولة متدينة ومحافظة. لم يكن هناك «متدينون» من

جانب و «علمانيون» من جانب آخر، بل كانت مرجعية الجميع هى الإيمان بالله. ولكن الورع والمحافظة تزايد بشدة فى العقود الأخيرة بقدر ما تلاشى حلم العروبة.

حداثة وفساد

قام عبد الناصر بمنع الزيادة فى الإيجارات، وحدد الملكيات الزراعية الكبرى، وقام بالكثير من التأميم وخلق العديد من فرص العمل. هكذا تحسنت أوضاع الفلاحين والعمال والبورجوازية الصغيرة على الرغم من فشل النظام الاقتصادى.

أما السادات فقد أحدث انتكاسة كبيرة فى السبعينيات بسياسته المسماة «الانفتاح»، والمستوحاة من الحرية الاقتصادية، فألغت الدولة الدعم والرعاية الاجتماعية، وأعطت الضوء الأخضر للمبادرات الخاصة، بينما أدى التضخم المتسارع إلى زيادة ثراء البعض، وتفاقم فقر البعض الآخر، واختلال التوازن الاجتماعى، وظهرت طبقة من الأثرياء الجدد الذين أطلق عليهم تهكماً «الانفتاحيون». وتأكد التحول لمحو الحرية الاقتصادية فى ١٩٩١ مع مبارك وتحت رعاية صندوق النقد الدولى، هذه المرة كنا بصدد إعادة هيكلة حقيقية، نقلت البلاد من اقتصاد الدولة والمركزية إلى اقتصاد السوق الحر عن طريق خصخصة العديد من شركات القطاع العام وإعادة المعاملات فى سوق الأوراق المالية.

وفى ظل حكم مبارك ازدادت مصر ثراء وحداثة رغم التفاوت الاجتماعى المتزايد، وظهرت طبقة بورجوازية صغيرة جديدة، كما يدل على ذلك زيادة السيارات بشكل كبير، ومن أجل التخلص من الاختناق المرورى فى القاهرة تضاعفت عدد الكبارى العلوية مما أدى إلى تشوه معمارى للعديد من الأحياء، وهكذا استحق محمد حسنى مبارك لقب «محمد كوبرى مبارك».

ساهم الازدهار المستمر للسياحة فى تنمية البنية التحتية (طرق سريعة - مطارات - وفنادق...) وتم التوسع فى تكنولوجيا الاتصالات بعد أن تحولت مصر

شيئاً فشيئاً إلى اقتصاد الخدمات، وساهم رئيس الوزراء «أحمد نظيف» شخصياً فى تحقيق ذلك. وكانت القرية الذكية التى تم إنشاؤها فى مدخل القاهرة على طريق الإسكندرية، أحد بواعث فخره، وهاجرت العديد من الشركات من العاصمة إلى تلك المدينة التكنولوجية ذات الطابع المعمارى المستقبلى، المزودة بأحدث التجهيزات، والتى توجد بمنأى عن الازدحام المرورى والضجيج والتعقيدات الإدارية.

وشهدت مصر منذ عام ٢٠٠٤ نمواً سنوياً بنحو ٧٪ هو من بين الأعلى فى العالم. وتضاعف إجمالى الناتج الداخلى للفرد مرتان خلال خمسة عشر عاماً، أما عن تدفق الاستثمارات الأجنبية فقد تضاعفت عشر مرات خلال العقد الأخير. كما واجهت مصر الأزمة المالية لعام ٢٠٠٨ أفضل من العديد من الدول، ولكن هناك كل عام ٥٠٠,٠٠٠ شاب يدخلون سوق العمل، والقطاع الحكومى لا يضمن وظائف لحاملى الشهادات الجامعية كما أن عمليات الخصخصة لم تتح عدد كاف من فرص العمل. وسرعان ما أصبحت مصر دولة ذات سرعتين فى كافة المجالات. وناهيك عن مجال الصحة حيث أصبحت هناك فجوة تفصل بين مستشفيات وزارة الصحة والمنشآت الصحية الخاصة.

ونفس الفجوة لحقت بالتعليم العام، فتوجد ذات عدم المساواة بالتعليم العام، حيث يتمكن من النجاح فقط الطلبة الذين بوسعهم الحصول على دروس خصوصية. أما المعلمون الذين يحصلون على رواتب هزيلة فقد استطاعوا زيادة دخولهم بتنظيم فصول دراسية موازية، تجلب لهم ما يوازى خمسة أو عشرة أضعاف رواتبهم.

أما الوجه الآخر لمصر التى شهد نمواً اقتصادياً كبيراً، فهو الفساد والانهيار بكل شيء، فقد عهد بالأعمال العامة لرجال قريبين من دوائر السلطة، ولنا أن نتخيل حجم استغلال النفوذ، قبل زلزال الخامس والعشرين من يناير إذ وقع حادث قد أثار شغف المصريين، وجاءت نهايته بما أثار استياءهم فأحد عمالقة العقارات فى

مصر وأحد أعمدة الحزب الحاكم وهو هشام طلعت مصطفى المدان فى قضية مقتل عشيقته السابقة سوزان تميم وهى مطربة لبنانية معروفة وقد حكم عليه بخمسة عشر عاماً فقط.

وللحق فقد كان الحزب الحاكم يضم بين جنباته أيضاً بعض الأشخاص الديناميكيين الراغبين فى تطوير الأوضاع والذين نجحوا بالفعل فى ذلك، فهناك مكتبة الإسكندرية «تحت إدارة إسماعيل سراج الدين» ورئاسة سوزان مبارك، كما بدأت الإصلاحات فى العديد من المجالات دون أن تعرقلها المعوقات الإدارية.

ومع تصاعد حدّة الغضب فى يناير ٢٠١١ تبادرت إلى ذهنى مقولة شديدة الصوابِ لألكسيس توكفيل[*] Alexis de Tocqueville الذى قال: «إن أسوأ لحظة فى عمر حكومة فاسدة هى عادة اللحظة التى تنحو فيها نحو الإصلاح. فليس تدهور الأوضاع من سيئ إلى أسوأ هو دائماً الدافع للثورة بل كثيراً ما يقوم الشعب الذى تحمل طويلاً ودونما شكوى أكثر القوانين ظلماً وتقييداً بالاندفاع فى ثورة عنيفة ما أن ترفع بعض هذه القوانين من على كاهله»[1].

(*) ألكسيس توكفيل (١٨٠٥ - ١٨٥٩) مؤرخ ومفكر سياسى فرنسى. (المترجمة).

(١) النظام القديم والثورة، ١٨٥٦.

٤

هل يصبح البرادعى رئيسا؟

فى صبيحة يوم الأربعاء ٢٦يناير قامت قوات الشرطة باستخدام خراطيم المياه والغازات المسيلة للدموع لتفريق المتظاهرين الذين امضوا الليل فى ميدان التحرير. وحذرت وزارة الداخلية من أنها لن تتهاون «مع أى عمل استفزازى أو تجمعات احتجاجية أو مسيرات أو مظاهرات» وهو ما أثار استياء المتظاهرين، فنادى المتظاهرون بأنه «على الجميع التوجه إلى ميدان التحرير للسيطرة عليه من جديد».

عاد خليل العوامى (٣٣ عام) صحفى بجريدة الوفد المعارضة مرة أخرى للشارع للتظاهر. وفى شارع رمسيس قامت الشرطة بمطاردته هو ومجموعته الصغيرة. ويروى قائلاً: «ظللنا نعدو لنحو الساعة والنصف حتى لحجنا فى الإفلات منهم. وعندما وصلنا إلى تقاطع شارعى طلعت حرب و٢٦يوليو كنا نحو خمسمائة شخص لا أعرف واحداً منهم على الرغم من أننى تعودت على الخروج فى مظاهرات منذ دراستى الجامعية، كانوا جميعاً شباب من الطبقة الوسطى غير مسيسين، يبدو واضحاً أنهم يهتفون بشعارات للمرة الأولى.والشعار الجيد لا بد أن يكون له إيقاع وموسيقى تنطق به من كلمة وتبنى عليها. فقمت بتأليف شعارات مختلفة، وبعد قليل كانت الحوائط ترتج من أصواتنا، وقامت بعض

البائعات أمام محلاتهن بمشاركتنا فى الهتاف، كما قام بعض التجار بإغلاق محالهم والانضمام إلينا»[1].

تزود المتظاهرين بصافرات لتنظيم تحركاتهم كما اكتشفوا إنه لمواجهة الغازات المسيلة للدموع لا بد من التزود بالبصل والخل أو دهن الوجه بمشروبات غازية.

كان هناك كتيباً مستوحى من التجربة التونسية غير معلوم المصدر فى ٢٦ صفحة ومزوداً برسومات توضيحية[2] معنوناً «العمر الطويل لمصر»، يقدم من بين نصائح أخرى ضرورة ارتداء سترات بغطاء رأس، وأحذية رياضية وأيضاً نظارات وإشاربات للوقاية من الغاز. أما لتفادى ضربات الهراوات والرصاص المطاطى فكانت النصيحة هى حمل أغطية القمامة. كما اقترح كاتبو هذا الكتيب بعض الشعارات مثل: «فليسقط فساد النظام» كما نصحوا المتظاهرين بتقديم الزهور إلى رجال الشرطة. إلا أن هذه النصيحة الأخيرة لم تجد نفعاً فقد كانت المواجهات التى حدثت مع قوات النظام كما باليوم الماضى فى العديد من مناطق القاهرة قليلة ولكن شديدة العنف.

وكان المتظاهرون يهتفون «الشعب يريد إسقاط النظام» و «عيش، حرية، كرامة إنسانية» واستطاعت مجموعة من المتظاهرين اقتحام مدخل وزارة الخارجية، إلا أنه قد تم تفريقها بالغاز المسيل للدموع. وشوهدت سيارات للشرطة تدهس المتظاهرين، وقريباً من الأوبرا تم اقتحام سيارة مدرعة وقلبها. وسمعت أصوات أعيرة نارية قريباً من مبنى وزارة العدل. وقام رجال شرطة يرتدون ملابس مدنية ويحملون الهراوات بالانقضاض على المتظاهرين وشل حريتهم ثم اقتيادهم إلى حافلات تتوالى على المكان.

---

(١) حديث مع خليل العوامى - القاهرة ٢٧مارس ٢٠١١.

(٢) أيان بلاك - الجارديان، ٢٨يناير ٢٠١١.

وفى مدينة السويس على بعد ١٠٠ كيلومتر شرق القاهرة أخذت الأحداث منحىً أشد عنفاً. حدثت معركة أمام المشرحة حيث كان المواطنون يطالبون بجثامين ضحايا الليلة السابقة. تم التعدى على مراكز الشرطة بقذفها بالحجارة، وتم إلقاء زجاجات تحوى مواد حارقة على مبنى الحزب الحاكم الذى اشتعلت النار فى جزء منه.

ليس هناك زعيماً للشباب

لم يكن هناك قائداً لحركة الخامس والعشرين من يناير، لم يكن هناك وجهاً معروفاً يمثل هذه الصورة. «لسنا بحاجة إلى زعيم» يقول شباب المتظاهرين. كما لو كانت العقود التى مرت فى ظل النظام السلطوى قد خلقت لدى المصريين نفوراً من الزعامة ... ولكن هل يمكن أن تنتصر فى معركة دون جنرالاً؟. من بين صفوف المعارضين كان محمد البرادعى المدير السابق لوكالة الطاقة الذرية، الوحيد القادر على حشد الجماهير حوله، لكنه كان فى سفرة قصيرة خارج البلاد.

فى مساء يوم الخميس ٢٧يناير وصل صاحب جائزة نوبل للسلام لعام ٢٠٠٥ إلى مطار القاهرة قادماً من فيينا.

هذا هو الإعلان الثانى عن نزوله إلى الساحة السياسية بعد فبراير ٢٠١٠ وقد صرح قائلاً «قد أتيت محملاً بالأمل فى الاستمرار فى العمل من أجل تغيير سلمى ومنظم»، وطالب النظام «بوقف العنف والاعتقالات والتعذيب» وكان يرى أنه يجدر بحسنى مبارك العدول عن الترشح لفترة رئاسية سادسة فى شهر سبتمبر «ثلاثون عاماً، هذا يكفى». وقد كان قبل سفره إلى فيينا أكثر وضوحاً عندما قال: «إذا كان الشعب يريدنى أن أقود المرحلة الانتقالية، فلن أخيب ظنه».

فى مساء الخميس أعلن المدير العام السابق لوكالة الطاقة الذرية أنه سيشترك فى المظاهرات الجديدة، ولكنه كان قد تأخر ثلاثة أيام بالفعل، وهذا ما أخذه عليه بعض أوفى مؤيديه مثل الكاتب علاء الأسوانى: «محمد البرادعى هو صديق لى

ورجل يستحق كل الاحترام، إلا أنه وصل بعد الثورة، الشباب هم الذين يقودون الثورة اليوم! وهم بلا قائد !» [1].

وُلد محمد البرادعى فى ١٩٤٢ لعائلة ميسورة، فهو ابن مصطفى البرادعى الوفدى المخلص ونقيب المحامين الأسبق. درس محمد البرادعى القانون فى القاهرة قبل أن يحصل على الدكتوراه فى القانون الدولى فى نيويورك. عمل مساعداً خاصاً لوزير الخارجية من ١٩٧٤ إلى ١٩٨٤ ليصبح بعد ثلاث عشر عاماً مديراً لتلك الوكالة خلفاً لأثنين سويديين.

لا يترأس البرادعى حزباً سياسياً، ولعل هنا مكمن ضعفه وقوته فى آن واحد، فهو ليس رهيناً بأحد. ويمتلك المرشح لرئاسة «الفترة الانتقالية» - وهى الكلمة التى ستتردد كثيراً فيما يلى من أيام - ثلاث مقومات على الأقل: ما عرف عنه من نزاهة (وهو أمر نادر فى بلد أصبحت كل الشكوك تثار حول كل شخصية هامة من أنها تسعى للإثراء على حساب الدولة)، رفضه لأى حل توفيقى مع النظام (فمبارك لم يكن مرحباً بترشيحه فى ١٩٩٧ كمدير لوكالة الطاقة الذرية)، وأخيراً وضعه الدولى، فهو أيضاً الذى قام فى الخارج بالتعريف بالمعارضة المصرية.

كما يتمتع البرادعى بشخصية قوية، والكثير من المصريين يذكروا له بامتنان وقوفه فى وجه الولايات المتحدة فيما يتعلق بالملف العراقى، عندما اتهمت واشنطن - ظلماً - صدام حسين بامتلاك أسلحة دمار شامل. ومع ذلك كان البيت الأبيض هو من قام بانتخابه فى ١٩٩٧ معتبراً أنه من الأصوب أن يتولى شخص عربى هذا الملف.

وفى الغرب جرى اتهامه بالتقليل من شأن البرنامج النووى الإيرانى، وتأجيل توجيه عقوبات ضد طهران، أما خصومه فيؤكدون أن جائزة نوبل قد أدارت

---

(١) نقلاً عن الكسندرا شوارتزبورج، ليبراسيون - ٢٩يناير ٢٠١١.

رأسه. أما فى مصر، فلا يعرف المصريون الكثير عن محمد البرادعى، فهم يوجهون إليه اللوم بقضاء وقت طويل فى أوروبا (فهو يملك منزلاً ريفياً فى قرية لاروميه la Romieu فى منطقة لوجير Le gers بفرنسا) وانطلقت شائعات تذكر أنه يحمل الجنسية السويدية، وهو أمر غير صحيح.، ومن أجل تشويه صورته فى أذهان المسلمين سُربت صور لابنته وهى ترتدى مايوه السباحة إلى صالات التحرير فى الصحف، وحتى زجاجات النبيذ التى قُدمت فى حفل زفاف كريمته استُخدمت كدليل لإدانته.

٥

قطع الانترنت

قرر المعارضون القيام بمظاهرة يوم الجمعة ٢٨ يناير فى أعقاب الصلاة. هنا يذكر الكاتب خالد الخميسى «كنت قد نزلت للتظاهر يوم الثلاثاء ولكننى قضيت اليومين التاليين فى إجراء مكالمات تليفونية. قمت بعدد هائل من المكالمات كى أحث كل الذين أعرفهم فى كافة أنحاء مصر على التظاهر يوم الجمعة. وأعلم أن كثيرين مثلى قد فعلوا نفس الشيء»[١].

على الفيس بوك جرى توجيه الدعوة: «التاريخ: الجمعة... الساعة: الثانية عشرة ظهراً.... الحدث: المطالبة برحيل حسنى مبارك».

ولكن الأهم هو إمكانية الدخول إلى الشبكات الاجتماعية. فقد قامت السلطات المصرية بإغلاق الفيس بوك والتويتر. كما فُرض الحظر على موقع Bambuser السويدى الذى يسمح بالمشاهدة المباشرة للفيديو الذى يتم تصويره عبر المحمول. قام معارضو الانترنت بالتحايل على ذلك بالاتصال عبر مواقع أخرى أو من خلال خوادم Proxy، ولكن أغلب المحتجين فقدوا أداة الاتصال. ولكن مجموعة

---

(١) حديث مع خالد الخميسى - القاهرة - ٢٢مارس ٢٠١١.

من قراصنة الاتصالات أطلقوا على أنفسهم «Anonymous» دعوا مستخدمي الانترنت إلى المشاركة فى «عملية مصر» التى تقضى بتحميل برنامج يؤدى تزايد الدخول عليه إلى تعطيل خوادم المواقع الحكومية.

فى منتصف ليل الخميس تم قطع شبكات أكبر أربع مزودى خدمات اتصالات الانترنت فى مصر (لينك ايجيبت - تيليكوم ايجيبت - فودافون - واتصالات مصر) فى نفس الوقت، وتم الإبقاء على جزء صغير فى الخدمة فقط مثل موقع البورصة المصرية على الانترنت على سبيل المثال، أما البورصة المصرية فقد أغلقت أبوابها وغير مستعدة لإعادة الافتتاح بعد أن أغلقت يوم الأربعاء على خسارة ٦٪ ويوم الخميس ١٠٪.

كانت هذه أول سابقة على المستوى العالمى بالنسبة لشبكة الانترنت، فلم يسبق مطلقاً أن جرى تعطيل للخدمة بهذا الحجم «بأوامر من السلطات»، حتى فى أثناء الاحتجاجات الكبرى فى بورما ٢٠٠٧، وفى إيران ٢٠٠٩ لم تُقطع الاتصالات إلا عن مواقع بعينها.

أما التليفونات المحمولة فلم تعد تعمل فى القاهرة. فقد تلقت كل شركات المحمول الأوامر بوقف الخدمة فى بعض مناطق البلاد[١].

وفى صبيحة يوم الجمعة الذى تم الحشد له لم يكن بوسع أحد الاتصال عن طريق الانترنت إلا أصحاب الخط الثابت الذين يمكنهم عن طريق الاتصال برقم فى الخارج الدخول إلى الانترنت (ببطء).

وفى هذه الليلة استطاع بعض عباقرة الانترنت بالتوصل إلى أسلوب للتحايل على الوضع يشرحه أحدهم وهو عبد الكريم ماردينى والموجود آنذاك فى زيورخ[٢]

(١) ذاع الخبر فى المساء من خلال بيان لشركة فودافون عملاق الاتصالات البريطانى.
(٢) عن برنارد هنرى ليفى، ليبراسيون ٢٦ فبراير ٢٠١.

ب- «تزاوج الصوت والانترنت»: وهو أن يقوم المصريون بالاتصال بثلاث تليفونية خطوط ثابتة فى ثلاث دول مختلفة ويقوموا بتسجيل ثلاث رسائل موجزة تحدد على سبيل المثال زمان ومكان التجمع. هذه الرسائل يمكن أن يستمع إليها فيما بعد من يقومون بالاتصال بنفس الأرقام أو عن طريق الدخول على موقع speak 2 sweet .

على مرأى من واشنطون

أثار قطع الاتصالات العديد من الاحتجاجات حول العالم، عبرت عنه وزيرة الخارجية الأمريكية هيلارى كليتون قائلة: «نحن نساند حقوق الشعب المصرى المقررة وفقا للإعلان العالمى لحقوق الإنسان خاصة حرية التعبير وحرية التجمع، ونحن ندعو السلطات المصرية إلى عدم منع المظاهرات السلمية أو قطع الاتصالات خاصة التواصل عبر الشبكات الاجتماعية» لاسيما أن هيلارى كليتون قد ذكرت أنها قد طالبت قبل تولى مهام منصبها بحق جديد من الحقوق الإنسانية الأساسية وهو حق الاتصال.

كانت سفارة الولايات المتحدة قد تدخلت فى بداية عام ٢٠١٠ من أجل إطلاق سراح المدونة شاهيناز عبد السلام، وقد توجهت هذه المدونة فيما بعد مع بعض الناشطين على الانترنت إلى الولايات المتحدة بدعوة من منظمة فريدوم هاوس. وهناك قام بعض خبراء الاتصالات بتعريفهم وسائل إحباط المراقبة البوليسية على الانترنت.

كان لدى الإدارة الأمريكية ما يشغلها أكثر من حرية التعبير فقد أصبحت منذ أحداث تونس تراقب ما يحدث فى مصر عن كثب. كان بن على بالنسبة لها مجرد دكتاتور هامشى، أما مبارك فهو أثمن قطعة فى مجموعتها الأمنية فى الشرق الأوسط، وإذا كان جيمى كارتر قد «خسر إيران» فإن أوباما لا يريد أن يكون الرئيس الذى «خسر مصر». ولم يكن اختياره القاهرة لتوجيه خطابه للعالم الإسلامى فى ٩يونيه ٢٠١٠ محض صدفه.

وتعطى سياسة الولايات المتحدة منذ عدة سنوات، على اختلاف الرؤساء كلينتون، بوش، أو أوباما انطباعا بأن لها فى مصر أهدافاً متناقضة، فبينما تؤيد النظام وتغض الطرف عن الكثير من الأمور فإنها تضغط عليه من ناحية أخرى من أجل التحول الديمقراطى حتى لو اقتضى الأمر دعم معارضى النظام.

فللأمريكيين يعود الفضل فى إطلاق سراح أيمن نور، مؤسس حزب الغد، والذى كانت تهمته هى تحدى مبارك، ولكن باراك اوباما فى خطابه فى القاهرة حرص على عدم التطرق للتحول الديمقراطى الذى كان يطالب به جورج بوش، وصرح فى مجمل كلامه بأن الأهم هو أن تعيش الأمم «فى سلام» وهنا وجهت له اتهامات بأنه يجامل الحكام الديكتاتوريين. وهو جدل أثير من جديد فى أعقاب الاحتجاجات فى مصر. ومن الغريب أن المحافظين الجدد الذين اختلفوا لأول مرة مع إسرائيل هم من وجه عتابا للبيت الأبيض لعدم إجباره مبارك على إجراء مزيد من الإصلاحات.

وعلى الرغم من ذلك فقد تابعت الولايات المتحدة المسارين معا، فقد صرح أوباما فى القاهرة قائلاً: «إن أمريكا لا تدعى معرفة ما يصلح للجميع، ولكن أعتقد دون أى تهاون فى هذا الشأن أن للناس بعض الآمال فيما يتعلق بإمكانية التعبير عن رأيهم حول الأسلوب الذى يحكمون به، والثقة فى سيادة القانون ووجود إدارة تتوخى المساواة فى العدل بين الجميع، وحرية اختيار أسلوب الحياة. وتلك ليست مجرد أفكار أمريكية، ولكنها حقوق إنسان، وهذا ما يدفعنا بمساندتها فى كل مكان».

أما هيلارى كلينتون فقد سجلت مرتين رد فعلها تجاه أحداث مصر فى مساء يوم الثلاثاء ٢٥يناير عندما بدت واثقة بقولها: «لدينا انطباع بأن الحكومة (المصرية) مستقرة، وتسعى جاهدة للاستجابة لمطالب الشعب»، (وهى جملة ستلام عليها كثيراً فيما يلى من أيام)، فى اليوم التالى حاولت تصويب الأمر بقولها: «على كل الأطراف التحلى بضبط النفس وعدم اللجوء إلى العنف». من جانبه أكد المتحدث

الرسمى للبيت الأبيض، روبير جيتس، تحت إلحاح الأسئلة الموجهة إليه: «إن الولايات المتحدة لا تنحاز لأى طرف فى الأزمة الحالية، ولكن الاحتجاجات تمثل فرصة للرئيس مبارك للاستماع إلى شعبه».

فى القاهرة كان المتظاهرون يلوحون بالقنابل المسيلة للدموع أو بالرصاص الذى أطلق عليهم ليظهروا أمام الـ سى إن إن «صنعت فى الولايات المتحدة الأمريكية». فأغلب الشعارات موجهة ضد النظام ورئيسه.

وتظهر استطلاعات الرأى على عكس مما يمكن أن نعتقده أن رأى المصريين تجاه الولايات المتحدة الذى هبط إلى أدنى مستوياته قد تحسن على الرغم من مسألة العراق. بل إن الآراء الإيجابية كانت أعلى من الآراء السلبية، ويمكن أن نرجع ذلك دون شك لكون باراك أوباما قد حل محل جورج بوش.

٦

المنزل يحترق

ألغيت كل مباريات الدورى المصرى لكرة القدم المقرر لها أن تلعب يومى الجمعة ٢٨ والسبت ٢٩ يناير، مما يدل على خطورة الوضع، ومع ذلك فإن بطرس بطرس غالى الأمين العام الأسبق للأمم المتحدة ينفى ببساطة أية بواعث للقلق، فعندما سئل عما إذا كان النظام مهدداً أجاب: «بالقطع لا، فقد حدثت فى مصر خلال الخمسين سنة الأخيرة عشرات المظاهرات، فهذا ليس بالأمر الجديد[١]»، وفيما يتعلق بالعداء تجاه حسنى مبارك قال: «هو محبوب جداً، إنه يفهم الرأى العام ويعرف كيف يتحدث إليه».

أما الواقع - وهو ما يمكن لرجل الدبلوماسية إنكاره - فإن يوم الجمعة ٢٨يناير بدأ مليئاً بالمخاطر، هو يوم الأجازة الأسبوعية وصلاة الجمعة، وقد أعلن المعارضون «يوم الجمعة سيكون هناك أكثر من مليون شخص فى الشارع»، هذه

---

(١) فى حديث مع باتريك كوهين فى الفترة الصباحية لفرانس انتر ٢٨يناير ٢٠١١، الساعة ٨,٤ .

المرة سيشارك الإخوان المسلمون، فقد كانت الجماعة حتى هذه اللحظة شديدة الحذر خوفاً من أن تدفع ثمن فشل الحركة، لذا فقد ظلت بعيداً دون أن تمنع شباب الجماعة من المشاركة. إلا أنها بعد أن تابعت مجرى الأحداث فى الثلاثة أيام الأخيرة، فقد خشيت ألا تلحق بقطار التاريخ. على أية حال لم يحرم وزير الداخلية نفسه من تحميل الجماعة مسئولية ما حدث، إدراكاً منه إلى أى مدى يثير الإخوان قلق الغربيين وقطاعات من الشعب المصرى على رأسهم المسيحيين. وفى ليلة الخميس إلى الجمعة تم إلقاء القبض على مجموعة منهم، عصام العريان ومحمد مرسى الذين كانا قد أعدا حقيبتيهما، فقد اعتادا الدخول إلى السجن دون سبب محدد وفقاً لحالة الطوارئ السارية منذ ثلاثة عقود.

فى الصباح الباكر بدت القاهرة خالية إلا من سيارات الشرطة المدرعة التى امتلأت بها الشوارع. وانتشر رجال الشرطة بزيهم الرسمى فى بعض المناطق الإستراتيجية، كما انتشروا حول ميدان التحرير. وعندما انتصف النهار خرج الرجال من منازلهم لصلاة الجمعة.

قرر وائل شيحة - ٢٢عاماً - الذى ينهى دراسته للحقوق، أن يخرج للتظاهر للمرة الأولى فى حياته «كنت حتى هذه اللحظة أؤمن بالانتخابات» هكذا يقول وائل الذى ذهب أولاً لأداء الصلاة فى جامع صغير بشارع نبيل الوقاد بالدقى، هذا الحى البرجوازى الذى يلتزم فيه المصلون بحسن السلوك، قام الإمام فى خطبته بنصح المصلين بعدم التظاهر ودعاهم إلى تسليم أمورهم «إلى الله والالتزام بالعمل» هنا استوقفه وائل على الملأ قائلاً «إذن علينا الانتظار حتى يوم القيامة؟» وهنا قهقه الحاضرون.

قام منظمو المظاهرات بتحديد مسجد بعينه لكل من الشخصيات المؤيدة لهم لذا توجه محمد البرادعى إلى ميدان الجيزة لأداء الصلاة وعند خروجه من المسجد تم إغراقه بالكامل بواسطة مدفع مياه انطلق من إحدى سيارات الشرطة المدرعة، وتم إبعاده سريعاً إلى أحد المبانى المجاورة، وطارت الشائعات بأنه القى القبض عليه.

جرت الأمور بسرعة شديدة، فبعد انتهاء الصلاة بدأت المظاهرات تجوب الشوارع وترتفع الصيحات «حرية» أو «الله أكبر». وأسدلت المحال القليلة التى كانت قد فتحت أبوابها ستائرها الحديدية. وحدثت مواجهة عنيفة بين المتظاهرين الذين حاولوا اعتلاء كوبرى قصر النيل بميدان التحرير وشرطة مكافحة الشغب. كانت هناك مواجهة أخرى دائرة على الكوبرى القريب الذى غطاه دخان الغازات المسيلة للدموع.

حرب شوارع فى المدينة

يحكى لنا ياسر حسن ٢٣سنة طالب بكلية الأعلام جامعة القاهرة قائلاً «كنا قد تعلمنا أن نأخذ زجاجات المولوتوف ونلقيها على رجال الشرطة ». وكنت أقول فى نفسى «إذا كان آباؤنا قد استطاعوا عبور خط بارليف ألن يكون بوسعنا نحن أن نصل إلى نهاية الكوبري؛ وفجأة أصيب صديقى أحمد بسيونى برصاصة فى عنقه. أخذته بين ذراعى ولكن كان الأوان قد فات» ويستطرد - وقد اغرورقت عيناه بالدموع - «هنا انقضضت على الشرطى الذى أطلق عليه النار لم أكن أفهم شيئاً، كنت أريده أن يفسر لى ما حدث، وهنا أصابونى بوابل من الهراوات... تم اقتيادى إلى الجبل الأحمر واعتقلت لمدة يومين وقد وضعت القيود الحديدية فى يدى، ووضعت عصابة على عينى، وحاصرونى بأسئلة متكررة بل إنهم ضربونى حتى أعترف بانتمائى للإخوان المسلمين، والحقيقة أنه ليس لى أية علاقة بالإخوان المسلمين[1]»، كان الكثير من المتظاهرين مضرجين فى دماءهم، ومن نجح منهم فى الوصول إلى منطقة العمل فى فندق ريتز - كارلتون، بميدان التحرير قام بجمع القطع الإسمنتية لإلقائها على السيارات المدرعة، وفى الشوارع المجاورة تم اقتحام سيارات الأمن وإشعال النار بها لتنفجر محدثة دوى رهيب. وهرباً من المطاردة

---

(١) حديث مع ياسر حسن - القاهرة - ٢٢مارس ٢٠١١.

اختبأ بعض المتظاهرين بالأبنية الداخلية للمنازل حيث استلقى العديد من الجرحى أرضاً، وقدم لهم السكان البصل والخل.

لم يكن كل رجال شرطة مكافحة الشغب بالضرورة أشخاصاً شرسين، فقد صعد أحدهم أحد البنايات الموجودة بالميدان وطرق أحد الأبواب بضربات من قدميه إلى أن فتح الباب أخيراً فقال: «أعهد إليكم بأولئك السيدات» وتقدمت بعض السيدات صغار السن اللائى تملكهن الخوف ثم اختفى رجل الشرطة. بعض من هؤلاء الشرطيين قد أصيب بالاختناق من الغاز المسيل للدموع، وسأل أحدهم الصحفيين باكياً - وهو يدعى نجيب من صعيد مصر «لماذا يهاجمنا هؤلاء الأشخاص؟ إننى أقف على قدمى منذ الخامسة صباحاً؟ ما الخطأ الذى ارتكبته ضدهم إن مهمتى هى حمايتهم»[1]، ثم ألقى سلاحه وأسرع فى اتجاه المتظاهرين وهو يهتف «تحيا مصر» «تحيا مصر» وقد أدى انقطاع التواصل عبر الهاتف إلى بعض المواقف غير المتوقعة.

بين المتظاهرين كان هناك صحفيان فى الأربعين من العمر: هشام أبو المكارم وحمدى عبد الرحيم، كانا يتظاهران فى أحد الشوارع فى وسط الميدان، عندما لمحا سيدة قد سقطت أرضاً، وسارعا لإنقاذها، وأصاب الذهول الشديد الصحفى الثانى عندما أدرك أنها زوجته المدرسة، فسألها بدهشة: «ماذا تفعلين هنا؟ كنت أظنك بالمنزل» فأجابته قائلة: «لقد رأيت بالتليفزيون أن بعض الأشخاص قد قتلوا فى المظاهرات، ماذا كنت تريدنى أن أفعل إن قتلت؟ هل أظل بالمنزل؟»[2].

فى منتصف فترة بعد الظهر أعلن تليفزيون الدولة أن الرئيس مبارك القائد الأعلى للقوات المسلحة قد أعلن بموجب حالة الطوارئ حظر التجوال فى القاهرة والإسكندرية والسويس، من الساعة السادسة مساءاً إلى السابعة صباحاً

---

(١) شرين عبد العظيم واحمد لطفى - الأهرام ابدو - ٢فبراير ٢٠١١.

(٢) نقلاً عن زميلهم خليل العوامى، فى حديث بالقاهرة فى ٢٧مارس ٢٠١١.

حتى إشعار آخر، كما طلب أيضاً «من القوات المسلحة بالتعاون مع الشرطة تنفيذ هذا القرار والحفاظ على الأمن وحماية المنشآت العامة والملكيات الخاصة»، وسرعان ما ظهرت فى الشوارع الدبابات الضخمة ترابية اللون بجنازير ضخمة تخوض فى الإسفلت.

بعد عدة ساعات اجتمع آلاف المعارضين فى ميدان التحرير، على الرغم من حظر التجوال - عازمين على التوجه إلى مقر البرلمان. تعالى الهتاف «الشعب يريد تغيير النظام» وقام بعضهم باعتزاز شديد بعرض خوذات الرأس والهراوات التى أخذوها من الشرطة، يقول محمد الدهشان طالب ٢٠ عاماً «هذا اليوم عايشته بمشاعر متضاربة بين القوة والضعف. ولكن كثرة العدد ومشاعر الأخوة التى كانت تظللنا، كانت تعطينا الشعور بأننا لن نقهر. بعد ثلاثة أيام متوالية من الغازات المسلة للدموع لم تعد الشرطة تبعث فينا أى خوف»[1].

لكن المحتجون باتوا تحت رحمة القناصة ببنادقهم المزودة بنظارات مكبرة: «فى فترة بعد الظهر - يقول الكاتب علاء الأسوانى سقط إلى جوارى أشخاص كنت أتحدث معهم للتو. ولكن الخوف كان قد غادرنا تماماً، فى نحو الرابعة قلت لنفسى، لقد انتهى حسنى مبارك، ولم يعد الناس يفرون كما فى أول يوم»[2] وغير بعيد من ميدان التحرير بمحاذاة النيل حاول بعض المتظاهرين اقتحام مقرى الإذاعة والتليفزيون ووزارة الخارجية، ولكن تم إبعادهم بواسطة رجال الجيش. فى المقابل فإن الحزب الوطنى الديمقراطى الحاكم قد تم اقتحامه من قبل أشخاص يجتاحهم غضب عارم وغادروه محملين بالسجاجيد والمقاعد الوثيرة وأجهزة الكومبيوتر... وبعد قليل تطايرت ألسنة اللهب عبر النوافذ... وظل هذا المبنى الأبيض يحترق طوال الليل، مبنى الحزب الوطنى الديمقراطى!... وتواردت الأنباء

(١) محادثات هاتفية مع محمد دهشان - مارس ٢٠١١.

(٢) حديث مع علاء الأسوانى - القاهرة - ٢٧مارس ٢٠١١.

فيما بعد عن احتراق العديد من مراكز الشرطة فى بعض الأحياء مثل مدينة نصر والأزبكية ... مما أعاد لأذهان الأكبر سناً حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢.

لم يتوقف الأمر عند العاصمة: فمقار الحزب الوطنى فى دمياط والمنصورة قد جرى تحطيمها بل والأسوأ من ذلك أن مبنى المحافظة فى العاصمة الثانية الإسكندرية قد اشتعل. وإذا ما عرفنا مدى سلطة هذه المؤسسة... حيث يعد المحافظ الممثل الشخصى للفرعون، المحافظ هو السيد القوى فى المنطقة التى يعين على رأسها، وإشعال النار فى مبنى المحافظة هو بمثابة هجوم على قلب الدولة.

ومن السويس.. تواترت معلومات مثيرة أيضاً للقلق الشديد، كان يوم الجمعة هذا شاهداً على تمردات فعلية، ويشرح لنا ناصر صاحب شركة سياحية قائلاً: «قام إبراهيم فرج - أحد أكبر رجال الأعمال فى المدينة بإحضار رجال مسلحين من سيناء لحماية مراكز توكيلات السيارات التى يملكها. وقام بمساعدة رجال الشرطة بإطلاق النار على كل من يقترب ثم بدءوا بعد ذلك فى استهداف عربات الإسعاف التى كانت تنقل الجرحى[1]» وقامت الحشود الغاضبة بعد ذلك بتدمير المحال والوكالات المصرفية... وكل مقار إبراهيم فرج الذى انتهى به الأمر إلى الفرار من المدينة.

درع بشرى حول المتحف

فى ميدان التحرير حدث أمر غريب فقد رأى المتظاهرون أشخاصاً مجهولين يفرون من المتحف المصرى محملين بأشياء فى أيديهم. قام المخرج خالد يوسف سريعاً بعمل مداخلة تليفزيونية على قناة العربية مطلقاً دعوة لسرعة التحرك وقد ملأت الدموع عيناه. كان المتظاهرون أنفسهم هم الذين سارعوا بحماية هذه الجوهرة الثمينة للتراث العالمى، حيث توجد ١٥٠,٠٠٠ قطعة لا تقدر بثمن. قاموا بتشكيل درع

---

(١) نقلاً عن لوك بايون - ليبراسيون - ٣١ يناير ٢٠١١.

بشرى حول أسوار المتحف وقد تشابكت أيادى المئات منهم بعضها ببعض وتمت السيطرة على العديد ممن قاموا بأعمال النهب وتسليمهم لرجال الجيش.

هذه المبادرة من جانب الرجال المحتجين لا تنم عن حس للمواطنة فحسب، ولا عن تطور للعقليات، فلفترة طويلة كان الأوروبيون فقط هم الذين يهتمون بالفراعنة، أما المصريين فكانوا يتجاهلون هذه الآثار التى خلفها أجدادهم الأوائل بل أسوأ من ذلك كان يمكن أن يستخدموها كحجارة للبناء، فهذا العالم القديم لم يكن بالنسبة لهم سوى عالم وثنى يعبد آلهة عديدة... ولكن شيئاً فشيئاً أعاد المصريون اكتشاف مصر الفرعونية وإعادة تقديرها انتظاراً لأن يتم دراستها والاحتفاء بها فبدأ بعض المصريين دارسة علم المصريات لتعويض تأخيرهم مقارنة بعلماء المصريات من الأوربيين والأمريكيين. ونجحت عائدات السياحة فى إقناع من كان متحفظاً بأن هذا البلد يحوى كنزاً. اليوم يشعر المصريون بالفخر الشديد لأنهم كانوا يمثلون قوة عظمى فى الحضارة القديمة. وأصبحوا يطلقون تلقائياً على فرقهم الرياضية الوطنية اسم «الفراعنة».

أعلن فى المساء أن حسنى مبارك سيتوجه إلى الأمة بحديث تليفزيونى. وانتظر عبد الرحمن يوسف، أحد أقرب معاونى البرادعى، بداية انفراجه، ويقول «بعد واقعة المسجد قررت أن أذهب لتبديل ملابسى المبتلة بالكامل فى مسكنى بالسادس من أكتوبر. وقد اقتضى منى ذلك أن أقوم بعمل دورة كبيرة كى أستطيع الوصول إلى هناك. ورأيت حشوداً هائلة، فقلت فى نفسى لا يمكن أن يكون الخطاب الذى سيلقيه مبارك سوى خطاب الاستقالة، فسارعت بالعودة إلى التحرير عازماً على المبيت هناك[1]».

وظهر مبارك على شاشة التليفزيون، لم يبد بأية حال فى صورة الشخص

---

(١) حديث مع عبد الرحمن يوسف، القاهرة ٢٨ مارس ٢٠١١.

المصدوم الذى قيل أنه على أعتاب الموت. وجه شمعى جامد، تعلوه طبقات من الماكياج وشعر تدل شدة سواده على أنه مصبوغ للتو، كان يتحدث بشكل رسمى باللغة العربية الفصحى دون أى ارتجال «لقد طلبت من الحكومة تقديم استقالتها، وغداً ستكون هناك حكومة جديدة» «كما أعلن عن اتخاذ إجراءات من استقلال القضاء والديمقراطية، ومنح مزيد من الحريات للمواطنين، والقضاء على البطالة، وتحسين مستوى المعيشة وتطوير الخدمات ودعم الفقراء».

كان خطاباً يحفظه المصريون عن ظهر قلب، فهو الخطاب الذى يكرره الريس منذ تسع وعشرون عاماً: «أنا موجود وأعلم أن الناس يعانون، وسوف أهتم بالأمر» ولكن هذه المرة كان المنزل يحترق. هل يدرك الفرعون مبارك مدى خطورة الوضع؟ .. «قليل جداً، متأخر جداً» هكذا كان هذا تقدير المراقبين، أما المتظاهرون فكان ردهم هتافاً هادراً: «الشعب يريد تغيير النظام» وبعد أن كانوا قد تراجعوا إلى الشوارع المحيطة بعد أن فرقتهم قوات الجيش، عادوا بالمئات إلى ميدان التحرير بعد خطاب الرئيس، بعد قليل جاء دور باراك أوباما الذى ألقى كلمة فى واشنطن، كانت نبرته أكثر حسماً بكثير عما مضى من أيام، حيث صرح «أود أن أدعو السلطات المصرية بشكل شديد الوضوح إلى الامتناع عن استخدام العنف ضد المتظاهرين السلميين... فالشعب المصرى له حقوق يصونها المجتمع الدولى وفقا للإعلان العالمى لحقوق الإنسان بما فيها حق التجمع السلمى، وحرية التعبير، وحق تقرير مصيره».

وخلال محادثة هاتفية استمرت نحو نصف الساعة مع نظيره المصرى طالبه اوباما «بإجراءات ملموسة للوفاء بوعوده» وفى وقت سابق فى صباح هذا اليوم ألمح المتحدث الرسمى للبيت الأبيض ببعض التهديدات: «سنقوم بإعادة النظر فى ما نقدمه من معونة لمصر على ضوء ما سيجرى من أحداث فى الأيام المقبلة» أسفرت المواجهات التى وقعت فى هذا اليوم، الجمعة ٢٨مارس عن مقتل ٢٠ شخصاً فى مصر من بينهم ١٣ فى مدينة السويس وحدها. مما أرتفع بعدد الضحايا إلى ٢٨ وذلك بخلاف ألف من الجرحى، منذ بداية الاحتجاجات.

٧

لجان شعبية

فى صباح يوم السبت ٢٩يناير ظل الانترنت مقطوعاً ولكن التليفونات المحمولة بدأت تعمل بشكل جزئى، وفى وسط القاهرة تجمع آلاف المتظاهرين من جديد، أما الجيش فقد اتخذ مواقعه فى التقاطعات الرئيسية وبالقرب من المبانى الرسمية، «الجيش معنا» هكذا صاح المتظاهرون، «الجيش والشعب أيد واحدة»، ورأينا بعض المشاهد - المتصنعة أحياناً -، متظاهرون يصعدون فوق الدبابات لتحية رجال الجيش ومصافحتهم ومعانقتهم.

ولكن، حدث فى القاهرة أمر لا يصدق: فقد اختفت الشرطة. هذه الشرطة المتواجدة فى كل مكان قد تبخرت، حتى فى المنطقة المحيطة بالسفارة الأمريكية فى جاردن سيتى، وهو حى قريب من ميدان التحرير، حيث يكون عدد رجال الشرطة عادة أكثر من عدد السكان، جاءت أوامر عليا أدت إلى اختفاء كل الأشخاص ذوى الملابس المدنية، والنظرة المقلقة اللذين يمكن التعرف عليهم بسهولة، أما أفراد الأمن ذوى الملابس الرسمية فقد سارعوا بالانسحاب وقد أصابهم الهلع، شوهد بعضهم يختبئ داخل البنايات وقد تخلصوا من زيهم الرسمى كما لو كانوا يتعرضون للخطر.

ويدأ بعض السوقة يستفيدون من هذا الوضع لنهب المتاجر، هكذا تم نهب

أحد المحال الكبرى وهو كارفور فى المعادى (حى سكن يقطنه الكثير من الأجانب) كما تم إحراق أجزاء منه، وسارع أصحاب المتاجر بإغلاق متاجرهم وإنزال السياج الحديدية للحماية، كما قاموا بطلاء واجهات المحال باللون البيض لإخفاء ما تحتويه من بضائع.

أخذ بعض الأفراد يجوبون الشوارع بدراجات بخارية لتحديد المحال التى يسهل اقتحامها ثم يعودون بعدد كبير لتحميل ما يشاءون، حتى أنهم ظهروا فى بعض البنايات والمنازل ملقين الرعب فى نفوس السكان، وفى أحد الشوارع الرئيسية بحى المهندسين الذى يقطنه الطبقة الميسورة تم سلب كل الأسواق الحرة ونهب كل خزانات الوقود.

وفى حى الحلمية الشعبى ساد الذعر لظهور نحو أربعون فرداً من البلطجية وبأيديهم أسلحة، فأخذ الأطفال يصرخون والشباب يدافعون عن أنفسهم بإلقاء الحجارة أما السيدات فقد قمن من الشرفات بإلقاء كسرولات من الماء المغلى على رؤوس المهاجين[1].

الاتصالات الهاتفية بالشرطة لا تجد مجيب. هنا قرر السكان أن يتولوا حماية أنفسهم بأنفسهم وبدأ ظهور لجان شعبية بشكل تلقائى فى أغلب أحياء العاصمة: كل من كان معه تصريحاً بحمل السلاح سارع بحشو مسدسه أو بندقيته، وفيما عدا ذلك فكل ما يصلح للدفاع عن النفس تم استخدامه: عصى أسياخ حديدية، أرجل المقاعد، سكاكين، مطارق، بلطات، أو حتى مضارب الجولف.... حتى أنه شوهدت خطافات صيد. وتم شراء قنابل مصنوعة من المبيدات الحشرية لإصابة عيون أى معتد محتمل بالعمى.فى حى الزمالك السكنى قام سكانه من الطبقة الميسورة بمساعدة البوابين (حراس العمارات) لوضع ما يشبه الحواجز فى مدخل الشوارع، ولم يكن مصرحاً لأى سائق سيارة بالمرور إلا بعد إبراز بطاقة هويته، وكان هناك

---

(١) مى المغربى - الأهرام ابدو - ١٧فبراير ٢٠١١.

شك حيال سيارات الإسعاف حيث قام بعض الخارجين على القانون بالتنكر كرجال إسعاف أو شرطة.

فى حى مدينة نصر كان هناك مركزان تجاريان كبيران يتولى العاملون بها حراستهما، وتم ملء عربات التسوق لسوبر ماركت مترو بالحجارة لاستخدامها كقذائف إذا استلزم الأمر ذلك. وكان شيخ المسجد يقوم بعمل المنسق داعياً - من خلال الميكروفون - الرجال للنزول إلى الشوارع والسيدات لإضاءة أنوار الشرفات هنا لم يكن هناك فيس بوك أو انترنت، ولم يعط شخصاً الأمر ولم يتخيل أحد بدءاً بالنظام نفسه، أنه فى كل المدن وكل الأحياء تقريباً سيحشد السكان من كافة الطبقات الاجتماعية فى نفس الوقت وبنفس الطريقة.

كان من يلقى القبض عليه من المجرمين يتعرض أحياناً للضرب العنيف، ولكن فى أغلب الأحوال كانت الميلشيات المدنية تقوم بتسليمه إلى الجيش (الذى لم يكن يلقى بالضرورة معاملة ألطف)، لم يكن الأمر خاصاً بالرجال فقط بل كانت السيدات أيضاً يؤمنّ الإمداد اللوجيستى من طعام وشراب وأغطية لأفراد الميلشيات الشعبية، إلى جانب تأمين الحراسة أثناء النهار كى يستطيع الرجال النوم لبضع ساعات.

كان بعض الشباب من صغار السن ينظمون المرور، وكان هذا أيضاً جزء هام، إلى جانب كل هذه المبادرات كانت هناك الأعمال المنظمة للإخوان المسلمين، فقد قامت الجماعة بتكوين لجان تطوعية «تمركزت فى كافة أنحاء العاصمة» لحماية الممتلكات.

فى حى الدقى، فى الليل اجتمع إفراد اللجنة الشعبية حول نيران تم إشعالها للتدفئة، وقد امسكوا بأقداح من الشاى بينما يستمعوا لأغنيات لأم كلثوم: «مشهد يذكرنا بمصر فى الماضى» هكذا علق اثنان من الصحفيين بحنين للماضى، وقد ذكرا ما قاله لواء فى الجيش: «لقد أظهر المصريون فى هذا الوقت العصيب معدنهم الأصيل»[1].

---

(١) دعاء خليفة وأميرة دوس - الأهرام ابدو - ٢ فبراير.

إستراتيجية الفوضى

كيف يمكن تفسير اختفاء الشرطة إذا لم يكن بوجود إرادة لنشر الذعر، حتى يرتد المواطنون ضد المتظاهرين؟. إنها «إستراتيجية الفوضى» التى أدانها العديد من الصحفيين غير الحكوميين، والتى لا يمكن إنكارها حتى ولو لم تكن تعطى تفسيراً كاملاً لما حدث.

يقول وائل شيبة، ٢٢سنة - محامى - شارك فى المظاهرات: «لقد رأيت رجال شرطة يبكون وقد فقدوا أعصابهم»[1] كانت أربعة أيام من التعبئة المكثفة كافية لإنهاك هؤلاء الرجال الذين لم يتلقوا الإعداد الكافى، ولم يكن لديهم أيضاً من الحافز ما يمكنهم من مواجهة مثل هذه الحركة.

ويوضح الرئيس السابق لحزب الوفد هذا الأمر قائلاً: « فى المعتاد يتم تقسيم قوات مكافحة الشغب إلى ثلاث أقسام: الثلث للعمل، الثلث احتياطى، والثلث الأخير فى حالة راحة» وكان الخطأ الذى ارتكبه وزير الداخلية هو الدفع بكامل القوات إلى الشارع منذ اليوم الأول.

من ناحية أخرى قرر بعض الضباط الذين رفضوا تنفيذ الأوامر، من جانبهم، سحب قواتهم من المعركة: «لم نكن نعرف ما الذى علينا أن نفعله. فقد اختفى قادتنا وكنا نريد أن نتجنب المزيد من إراقة الدماء[2]»، هذا ما صرح به فيما بعد أحد هؤلاء الضباط الذى طلب عدم ذكر اسمه.

عندما كان يتم الهجوم على أحد مقار الشرطة لإطلاق سراح أحد الأقارب أو الأصدقاء، كان يتم استخدام الذخيرة الحية، كما حدث فى مدينة بنى سويف، على بعد مائة كيلو متر جنوب القاهرة - حيث تم يوم ٢٩يناير قتل ١٧ من

---

(١) حديث مع وائل شيبة - القاهرة - ٢٨مارس ٢٠١١.

(٢) جيلان هلاوى - الأهرام ويكلى - ٢٢فبراير ٢٠١١.

المقتحمين -، ولكن فى الغالب كان رجال الشرطة يتعرضون لهجوم من قبل حشود غاضبة، ترغب فى الانتقام من الشرطة، لما عانوه منها، فكانوا يحطمون كل شيء»، وتؤكد أجهزة الشرطة أنه خلال أربعة أيام من حركة الاحتجاجات تم إحراق ٦٠ مقراً للشرطة فى أنحاء البلاد، من بينهم ١٧ فى القاهرة. ومع ذلك فقد تم اتهام بعض رجال الشرطة بالقيام بإشعال النيران داخل مقارهم وتشجيع الأعمال التخريبية.

وبالنسبة لجريدة «المصرى اليوم» اليومية فالأمر يتعلق حقيقة «بمخطط لتأكيد سيناريو الفوضى[1]». أما الإعلام الرسمى فكان يسعى لإبراز ما يحدث فى السجون، قام الجيش بمحاصرة سجن طره الكئيب، الذى يعرفه الكثير من الإسلاميين، والذى يقع بالقرب من المعادى، وكان يسمع دوى إطلاق النار داخله دون أن يتاح لأحد معرفة ما يجرى. تم إقامة حواجز حول موقع السجن، وكان رجال الجيش يقومون بتفتيش السيارات بحثاً عن الهاربين من السجن.

أما سجن «أبو زعبل» على أطراف العاصمة فقد كان مسرحاً لأحد أشد حركات العصيان دموية، فقد نجح بعض المعتقلين فى الاستيلاء على الأسلحة من حراسهم والهرب. ولكن داخل أحد المساجد المجاورة وجدت أربعة عشر جثة ممددة.

وخلال المعركة استطاع ثمانية أعضاء فى حركة حماس الفلسطينية الهرب، وظهر اثنان منهم على الأقل بعد بضعة أيام فى غزة، بعد أن مروا عبر النفق المخصص لتهريب السلاح. أما سجن وادى النطرون فهو يقع فى الصحراء، فى منتصف طريق القاهرة - الإسكندرية ومن هذا السجن استطاع أربعة وثلاثون من أعضاء الإخوان المسلمين الهرب، من بينهم اثنان من قيادى الجماعة هما: عصام العريان وسعد الكتاتنى، وصرح أحد زملائهم المعتقلين لقناة الجزيرة: «لحن لم نهرب، ولكن الشعب هو الذى فتح لنا أبواب السجن».

---

(١) عدد ٣٠ يناير ٢٠١١.

كان هذا السجن يأوى اثنين وعشرين شيعياً أعضاء فى أحد خلايا حزب الله اللبنانية، ومتهمون بالقيام بأعمال إرهابية داخل مصر، وقد شوهد رئيس هذه المجموعة: «محمد يوسف منصور» فى أحد التجمعات العامة فى بيروت فى الـ١٦ من شهر فبراير التالى.

وفى مساء يوم ٣٠ يناير عادت الشرطة للظهور فى الشوارع بعد ثمانية وأربعين ساعة من اختفائها. وقامت الشرطة بالتنسيق مع الجيش وذلك لأن عددا كبيراً من أفراد الشرطة قد اختفوا تمامًا. فالخوف قد سكن المعسكر الآخر، فعدد كبير من أفراد الشرطة لم يعودوا إلى مواقعهم خوفاً من تعرضهم للانتقام، والبعض الآخر الذى أضطر إلى الفرار تحت أنظار الحشود التى كانت تقوم بمحاصرة مركز الشرطة، رأوا أنهم لا يستطيعون العودة إلى نفس المكان وطلبوا أن يتم نقلهم.

٨

جمال... أخرج

كان مما يبعث الرضا على الأقل فى نفس حسنى مبارك، الواقع تحت وطأة ضغوط غربية تطالبه بسرعة التحرك، هو أن يتلقى فى يوم السبت ٢٨ يناير دعماً غير مشروطاً من أحد «الأوزان الثقيلة» فى العالم العربى، الملك عبد الله عاهل المملكة العربية السعودية، الذى أكد - على الرغم من ارتباطه الشديد بالولايات المتحدة: «إنه لا يمكن لأى عربى مسلم أن يقبل أقل تدخل فى مصر». كان هناك دعماً آخر ملحوظاً من قبل رئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس الذى اتصل بالريس فى نفس اليوم مؤكداً على تضامنه مع مصر، ثم جاء الدور على العقيد القذافى الذى أعرب عن رغبته فى «الاطمئنان على مصر»، أو الملك عبد الله ملك الأردن الذى كان يبغى «معرفة الوضع». يجب أن نقول أن كل قادة المنطقة كانوا يشعرون بأنهم مهددون بشكل أو بآخر. بل إنه فى اليمن كانت المظاهرات قد تزايدت ضد النظام، منذ منتصف شهر يناير، وعلى الرغم من إعلان الحكومة زيادة المرتبات فقد أخذ آلاف المتظاهرين فى المطالبة برحيل الرئيس على عبد الله صالح، الموجود فى السلطة منذ ١٩٧٨.وبدأت المواجهات بينهم وبين أنصار النظام فى شوارع صنعاء منذ ١٤ يناير، وكانت السياسة الاقتصادية محل اتهام من قبل المتظاهرين الذين طالبوا بعمل إصلاحات وبتغيير الحكومة، وفى السودان

بينما يحتفل الجنوب بالفوز الكاسح لـ «نعم للانفصال»، قام مئات الطلبة بتحدى الشرطة فى الخرطوم يوم الأحد ٣٠ يناير. فقد أرادوا على غرار ما يحدث فى مصر التعبير عن غضبهم عن الطريقة التى يدار بها السودان! والتى أدت إلى تقسيم البلاد، حتى فى عمان قامت مظاهرات ضد غلاء الحياة.

ويبدو أن سوريا التى أحكم إغلاقها هى الوحيدة التى نجت مما يطلق عليه بعض الخبثاء «العدوى». وقد صرح بشار الأسد أن ما يحدث فى مصر لا يعنيه، قائلاً: «إن حزب البعث الذى يحكم البلاد منذ ما يربو على نصف قرن، يشعر تماماً بنبض الشعب ويواكبه».

ويأتى الدليل على حالة القلق التى تسود المنطقة من مصنع بانهارد Panhard أحد أقدم مصانع السيارات والذى تحول إلى صناعة المدرعات العسكرية، فقد أكد كريستيان مونس رئيس مجلس الإدارة «لقد انهالت علينا طلبات عروض الأسعار»، وقد قدر عدد ما تلقاه من طلبات خلال عدة أيام من بلاد الخليج[1] بمئات من الوحدات.

ويدأ إطلاق التكهنات: بعد مصر وتونس من التالي؟ هل ستتساقط الأنظمة السلطوية واحداً تلو الآخر.

الوضع يختلف تماماً فى العالم العربى. فكل من دول هذا العالم مستقلة ولا يوجد كما فى زمن ناصر رمزاً كبيراً يمكن أن يقود حركة جماعية.

قيل منذ بضع سنوات إن مصر إذا ما انزلقت إلى الإسلام السياسى فقد تتبعها كل المنطقة، إلا أن أحد لم يطرأ بباله أنها يمكن أن تنزلق إلى... الديمقراطية. وبنهاية شهر يناير ٢٠١١ لا نستطيع أن نقول أن المنطقة قد وصلت بعد إلى هذه المرحلة، ولكن يبدو أن الرياح تهب فى هذا الاتجاه، فقد بدأ بالفعل الحديث عن «الربيع العربى».

(١) الإيكو Les Echos - ٢فبراير ٢٠١١.

نائب للرئيس

كما أعلن حسنى مبارك بالأمس فإنه سيقوم بتغيير الحكومة ليحل محل أحمد نظيف - أحد التكنوقراط المجددين المقربين من جمال الابن الأصغر للريس، - أحمد شفيق (٦٩عاماً) والذى كان يشغل حتى هذا الوقت منصب وزير الطيران المدنى - وكان يدير من قبل فرقة لسلاح الطيران، قبل أن يصبح قائدا لهذا السلاح (١٩٩٦ - ٢٠٠٢) وهو المنصب الذى كان يشغله مبارك فى أحد الأيام. عندما انتقل شفيق للقطاع المدنى ترأس وقام بنجاح بتحديث شركة مصر للطيران. وعندما تولى الوزارة لجح فى تحديث مطارات القاهرة وشرم الشيخ. ويشهد لهذا الرجل الباسم خريج المدارس الفرنسية بالنزاهة وتفتح الذهن، ويحظى بإعجاب كل من الجيش والحرس القديم للحزب الحكومى، وأيضاً سوزان... زوجة الرئيس صاحبة النفوذ. وقد وصف أحياناً بـ «مرشح الأمريكان» فى حالة خلو السلطة.

ولكن المفاجأة جاءت من جانب آخر: فقد قام مبارك بتعيين نائباً له وهو ما كان دائماً يرفضه. ولكن «الريس» لم يبحث بعيداً، فقد اختار رجله محل الثقة، اللواء عمر سليمان، الذى يدير منذ ١٩٩٣ المخابرات العامة، أحد أقوى أجهزة المخابرات الرسمية.وقد أدى رجل الظل هذا - البالغ من العمر ٧٥عاماً - اليمين أمام كاميرات التليفزيون الرسمى وأعقب ذلك بأداء التحية العسكرية، وهو «يصلح» رئيساً حتى لو كان يبدو محركاً للعرائس أكثر منه وجهاً شعبياً. وبعكس مظهر عمر سليمان بجسمه النحيف وأناقته ووجهه الذى يعلوه شارباً رفيعاً، ونظرته الحادة بروداً إنجليزياً. وهو ينتمى لعائلة ميسورة الحال من قنا - بمصر الوسطى - وقد التحق فى سن ١٩ عاماً بالأكاديمية العسكرية بالقاهرة وقد حظى بدورة تدريبية فى الإتحاد السوفيتى (فى الوقت الذى كانت فيه مصر موالية للإتحاد السوفيتى) ثم دورة أخرى فى فورت براج بكارولينا الشمالية (بعد أن تقاربت مصر مع الولايات المتحدة)، ويعرف الإسرائيليون والأمريكيون عمر سليمان جيداً، فقد كان لسنوات عديدة حاضراً فى كل المفاوضات، فقد كان هو

من يدير هذا الملف الملتهب وليس الخارجية. وهى مهمة لم يكن ناجحاً فيها دائماً فهو لم يستطع أن يمنع حماس من الوصول إلى السلطة فى غزة، فى يونيو٢٠٠٧. كما إنه محل كراهية شديدة من قبل الإسلاميين الراديكاليين الذين يرونه أحد المسئولين الرئيسين عن القمع الشديد الذى عانوا منه. ولكنه مع ذلك له نظرة واقعية، فقد كان، على عكس «الريس» مقتنعاً منذ فترة طويلة بضرورة إدماج الإخوان المسلمين فى اللعبة السياسية.

وقد قام عمر سليمان بعدة زيارات لإسرائيل، وله ممثلاً شخصياً فى سفارة مصر فى تل أبيب. وتعتبره الجريدة اليومية الإسرائيلية «رجل الاستقرار»[1] وتراه خير خلف ممكن لحسنى مبارك. وقد كان حسنى مبارك يعتبره دائماً أخلص المعاونين، بل إنه يدين له بحياته، إذ إن سليمان كان قد أصر فى يونيه ١٩٩٥ على إحضار سيارة رئاسية مصفحة خصيصاً من القاهرة، بمناسبة انعقاد قمة الإتحاد الإفريقى فى إثيوبيا. وكان الرجلان يجلسان جنباً إلى جنب فى السيارة فى أحد شوارع أديس أبابا الكبرى، عندما استهدف الموكب فى محاولة اعتداء فاشلة من قبل أحد القناصة الإسلاميين.

هل يكون عمر سليمان هو مرشح العسكريين لخلافة مبارك؟! .. يبدو سنه كبير للغاية كما أن الجيش لا يجد نفسه بالضرورة فى الاستخبارات العسكرية. ولا يمكننا القول أن الرجل محبوب، ويعقب على ذلك حاتم حنيش أحد أعضاء حركة عدالة وحرية المعارضة التى شكلت مؤخراً قائلاً: «عمر سليمان رئيس جهاز المخابرات هو روح الديكتاتورية المتفانية! حتى الأميون يعرفون اسمه، إنه الرجل الذى أنقذ مبارك من محاولة اغتيال فى أديس أبابا، لا يعد ذراعه اليمنى فحسب بل هو ذراعه المسلح ودرعه الواقى»[2].

---

(١) يديعوت احرنوت - ٢٩يناير ٢٠١١.

(٢) حوار مع سيسيل هيميون - لوموند ١فبراير ٢٠١١.

ومع ذلك يمكن تفسير تعيين عمر سليمان كنهاية لطموحات جمال مبارك الرئاسية، فإذا ما توفى «الريس» أو استقال يكون نائبه هو المرشح الأمثل لرئاسته كما حدث عند وفاة ناصر والسادات. ولم يكن الابن الأصغر للرئيس مبعثاً كبيراً للثقة بالنسبة للجيش. ليس فقط لأنه لا ينتمى إلى صفوفه ولكن أيضاً لأن عمليات الخصخصة التى قام بها «رجال جمال» من شأنها أن تهدد المصالح الاقتصادية للجيش.

فى خريف ٢٠١٠ بدأ ظهور بعض اللافتات الغريبة التى تدعو للتصويت لـ «جمال، هو الحل للفقراء» وهو تحوير آخر لشعار الإخوان المسلمين: «الإسلام هو الحل». ولكن سرعان ما تم وضع لافتات أخرى فوق هذه اللافتات تحمل صورة عمر سليمان، وشعاراً شديد الخبث: «لا الابن ولا الإخوان».. هل هذه كانت رسالة من الجيش؟ .. هل تم الحصول على موافقة «الريس». على أية حال فقد كان تعيين الرئيس لنائب له وهو القرار الذى اتخذه تحت ضغط الشارع، قد أغلق الطريق تماماً أمام الوريث المحتمل جمال.

٩

الجيش معنا

مُدد حظر التجول لمدة ساعة أخرى فى هذا اليوم الأحد ٣٠ يناير، ولكن كما فى الليلة السابقة، لم يتم الالتزام به فقد ظل عدد كبير من المعارضين فى ميدان التحرير. ولم تؤثر فى نفوسهم على الإطلاق الطائرات الهليكوبتر التى كانت تحلق فوقهم فى المساء. حتى الطائرات اف ١٦ التى كانت تحلق على ارتفاع منخفض فوق العاصمة، وتحدث اهتزازاً فى النوافذ الزجاجية مخلفة ضجة شديدة لم تلق إلا الابتسامات وأيد مرفوعة. فهل يمكن تصور أن يقوم الطيران المصرى بقصف القاهرة؟.

فوق مقدمة دبابته وقف نقيباً شاباً يقوم بتحركات بدبابته محاولاً الاقتراب من وسط الميدان، وكان رد الفعل هو صيحات ابتهاج: «الجيش معنا!»، كانت مدافع الدبابات لا تزال مصوبة نحو وسط الميدان، وكان بإمكان هذه المدافع إخلاء الميدان خلال ثوان من المعتصمين، إلا أن المقابل كان سيكون حمامات من الدم، ولكن ملقمات الرشاشات كانت فارغة والمدافع مغطاة . وتم تقديم البونبون لرجال الجيش. ووقف الكثيرون إلى جوارهم، وكانت هناك علامة نصر ترفع أحياناً على استحياء للجماهير التى كانت بدورها تهتف «الجيش والشعب أيد واحدة». وبدا واضحاً أن عساكر الجيش لا يعرفون جيداً الموقف الواجب عليهم اتخاذه، فقد

ظهرت على الدبابات بعض الشعارات المكتوبة والمعادية لمبارك، بل إن الدبابات ذاتها تم استخدامها كمنصة يقف فوقها متحدثين معهم ميكروفونات. هل يحب المعارضون الجيش لكراهيتهم للشرطة؟.. هم يشعرون على أية حال بضرورة استمالة الجيش، حتى لو كان يبحث فى نفوسهم بعض الخوف. ولا تشعر ناريمان مضيفة الطيران - التى تتظاهر منذ اليوم الأول - بالاطمئنان وتقول: «لدى اثنان من أقربائى فى الجيش وأنا واثقة أنهما سيطلقان النار على إذا ما صدرت لهم الأوامر بذلك[1]».

الجيش هو المؤسسة المحترمة التى قامت بثورة ١٩٥٢، فى ذلك الوقت كان الضباط هم الذين يسعون للحصول على تأييد الشعب. أما اليوم فنحن نشهد عكس ذلك. هذا الجيش المصرى الذى تعرض للهزيمة مرتان أمام إسرائيل فى ١٩٤٨ و١٩٦٧ ونجح فى ١٩٧٣ فى عبور قناة السويس أثناء حرب أكتوبر الشهيرة (المعروفة فى إسرائيل باسم حرب الكيبور).يقع على طريق المطار نصباً تذكارياً يذكر بهذا الحدث المجيد الذى يتم الاحتفال به فى أكتوبر من كل عام.

يعد الجيش أحد أقل المؤسسات فساداً، وجدير بالذكر أنه بمثابة إمبراطورية يحظى أفرادها بالعديد من المزايا، فهى تمتلك مزارع ومصانع وشركات للأعمال العامة وشركات فندقية. بل إنها متذرعة بالأمن القومى تتحكم فى مساحات شاسعة على الساحل وفى الصحراء، ويمكنها وفقاً لما تضعه بنفسها من قوانين أن تتنازل عنها مقابل أموالاً طائلة. ويقيم ضباط الجيش داخل تقسيمات أراضى خاصة، ويتمتعون بنوادى رياضية وأماكن اصطياف. أما اللواءات فيحظون بتقاعد شديد الربحية من خلال تواجدهم على رأس المؤسسات العامة.

---

(١) نقلاً عن ادريان جولمز - الفيجارو - ٣١ يناير ٢٠١١.

لأنه لا يحارب

استحقت هذه المؤسسات الصامتة هذا اللقب عن جدارة، فهى تحرص على الابتعاد عن الحياة السياسية، وذلك على الرغم من أنه منذ سقوط الملكية، خرج رؤساء الجمهورية جميعاً - نجيب وناصر والسادات ومبارك - من بين صفوفها. ولا يعرف عدد أفرادها بدقة، قد يكون أقل من ٥٠٠,٠٠٠ فرد، ويشكل المجندون النسبة الأكبر منها (لا يعفى من الخدمة العسكرية سوى الابن الوحيد لأسرته). حتى مرتبات الضباط لا يتم الإعلان عنها، ويرى أحد المطلعين جيداً على هذه المؤسسة «إنه مثل كل الرواتب فى مصر تخضع ميزانية العسكريين لأهواء القائد، فيمكن لأحد اللواءات أن يحصل على ٥٠٠٠ جنيه [٦٣٠ يورو] أو خمسين ضعف هذا المبلغ[1]». وميزانية الجيش توازى ميزانية التعليم القومى. فالجيش مدللاً... لأنه لم يقم بالحرب... فالواقع أنه لم يطلق طلقة نارية واحدة منذ توقيع معاهدة السلام مع إسرائيل. وهذا الأمر الذى يفقده الكثير من هيبته فى أعين عدد كبير من المواطنين إلا إن الجيش مع ذلك على عكس الشرطة، لا يلاحق المواطنين أو يشيع الخوف فى نفوسهم، كما يحمد له أيضاً أنه لعب دوراً فى الصعود الاجتماعى: فمنذ ١٩٣٠ لم تغلق الأكاديمية أبوابها أمام الفقراء، ولكن يصعب دخولها فقط على أبناء المناطق التى تعد مناهضة للسلطة مثل سيناء. أما الأقباط فهم يعرفون أن أعلى الدرجات العسكرية محظورة عليهم.

ولا يبدو أن هناك تغلغلاً للإسلاميين داخل الجيش - على العكس من الشرطة - على الأقل فى أعلى التدرج الهرمى له. فأقل سلوك مريب يسترعى انتباه السلطات يؤدى إلى الاستبعاد، ولكن فى مجتمع تغلب عليه الصبغة الدينية، كيف يمكن التمييز بين المتطرف والمتدين العادي؟. فعلى العكس من نظيره التركى لا يشعر الجيش المصرى بأنه مكلف بمهمة حماية العلمانية.

---

(١) توفيق اقليماندوس عن سيسل هينيون - لوموند ١٦فبراير ٢٠١١.

والمؤسسة العسكرية ترتبط بشدة بالولايات المتحدة التى تزودها بالأموال والعتاد والمدربين. وبينما كانت البلاد مشتعلة بالثورة كان رئيس الأركان اللواء [الفريق] سامى عنان موجوداً فى واشنطن، على رأس وفد عسكرى، وقام بقطع زيارته وعاد مسرعاً إلى القاهرة يوم الجمعة ٢٨يناير. هذا الرجل العسكرى ذى ال٦٢ عاماً، قد تلقى تعليمه فى الإتحاد السوفيتى، ثم فى المدرسة الحربية بفرنسا، ويتمتع بسمعة ممتازة، ويذكره الجميع بالخير بدءاً من السفارة الأمريكية إلى الإخوان المسلمين. وهو يتميز عن وزير الدفاع المشير محمد طنطاوى - الشخص غير القابل للعزل الذى يحتفظ بمنصبه منذ عشرين عاماً -، فهذا الأخير «يبدو موظفاً إدارياً، ويصفه بعض الضباط الساخطين بالتابع لمبارك[1]»، وكان طنطاوى قد خلف عبد الحليم أبو غزاله الذى كان من أنصار تحديث المؤسسة العسكرية فجرى إبعاده فى ١٩٩١ جزاءاً له على شعبيته.

والاضطراب الملحوظ فى الشارع يدفعنا إلى التساؤل، إلى أى حد يتوافق شباب الضباط مع قادتهم. ما هى بالضبط التعليمات التى تلقوها؟ وفى ميدان التحرير وجه المتظاهرون الدعوة للعسكريين «الاختيار بين مصر ومبارك».

قامت الحشود المبتهجة بحمل ضابطاً مشرق الوجه يضع ثلاث نجمات على الأكتاف، كان يرفع بين يديه زهرة أهديت إليه. اسمه الأول فتحى ولا نعلم جيداً السبب الذى جعله يحظى بهذا الاحتفاء الحماسى، ولكن صورته تصدرت الصفحة الأولى بالفاينتشيال تايمز.

ومنذ بدأ الجيش فى نشر مدرعاته فى شوارع القاهرة، تمكن من إلقاء القبض على ٣٠٠٠ شخص، من بينهم عدد كبير من المساجين الهاربين، والجيش مع ذلك غير مؤهل للحفاظ على النظام فى المدينة، فهل يا ترى سينجح فى القيام بهذه

---

(١) مذكرة للسفارة الأمريكية بالقاهرة - بتاريخ ٢٣اغسطس ٢٠٠٨، وكشف عنها موقع ويكيليكس.

المهمة دون اللجوء إلى استخدام أسلحته؟ .. إلى أى مدى سيتسامح فى عدم احترام حظر التجول؟ .. وقد يتمادى الجيش - إذا ما استمرت الاضطرابات - ويستولى على السلطة. ولكن السياسيين يتشككون فى هذا الأمر. ويعقب السكرتير العام لحزب الوفد منير عبد النور على هذا الأمر برؤية فلسفية: «لم يعد الانقلاب العسكرى متوافقاً مع روح العصر[1]».

(١) محادثة تليفونية مع منير عبد النور ٣٠ يناير ٢٠١١.

١٠

اهرب-

كان ليوم ٢٨ يناير المؤثر الذى حفل بالكثير من الضحايا والتدمير أثر مباشر على السياحة، فقد قام العديد من المسافرين الأجانب بتعليق سفرهم إلى مصر، ولم يكن هناك سوى عدد محدود للغاية من الشركات السياحية، مثل توماس كوك، وتوى ترافيل، التى قامت بتقديم عروض مخفضة مغرية فى مناطق بعيدة عن الأحداث. على سبيل المثال فى البحر الأحمر، حيث يستمر الروس فى التوافد، حيث إنهم يهتمون بالشواطئ أكثر من اهتمامهم بالمعابد الفرعونية والمساجد (لم تدع موسكو رعاياها إلى العودة إلى البلاد إلا فى ٥ فبراير)، أما عشرات الآلاف من السياح الذين كانوا يتواجدون أصلاً فى مصر، فقد ظلوا حبيسى فنادقهم. حتى فى الأقصر تم منعهم من الخروج، لأن مواجهات وقعت فى وسط المدينة وتم نهب بعض المحلات.

فهؤلاء السياح سيئو الحظ،الذين أصيبوا بالذعر عدة مرات لم يكن يشغلهم سوى أمر واحد هو العودة سريعاً إلى ديارهم.

كانت إعادة السياح من صعيد مصر أو البحر الأحمر إلى ديارهم أمراً سهلاً. ولكن لم يكن الأمر كذلك بالنسبة للمغادرين من القاهرة، حيث كان المطار محاصراً بالمقيمين من الأجانب، أو حتى من المصريين الذين يرغبون فى مغادرة

البلاد لشعورهم بالقلق الشديد.. بعد أن نجح هؤلاء المسافرون المحتملون فى التغلب على الاختناقات المرورية، كان عليهم أن يشقوا طريقهم فى الزحام والهجوم على شبابيك الحجز. وحدثت بعض المشادات مع موظفى شركات الطيران على مرأى من شرطيين لا يحركون ساكناً فقد فاقت الأحداث قدرتهم على التحمل. كما لم يعد البقشيش «كافياً للحصول على أماكن» كان هناك تأخراً فى جميع الرحلات. كانت النساء والأطفال والرجال يعسكرون فى المكان لساعات طويلة. وعند اقتراب موعد حظر التجول يوم الأحد ٣٠ يناير بعد الظهر تم إطلاق نداء بمختلف اللغات لعدة مرات: «عليكم جميعاً العودة إلى منازلكم، غادروا المطار سيحل الليل سريعاً ولا يجب أن تكونوا فى الخارج مع حلول الظلام، هذا فى غاية الخطر!». فى هذا الأحد اجتمع سفير فرنسا، جان فليكس باجانون بالجالية الفرنسية، فى ليسية المعادى، ليقدم لهم المعلومات والنصائح حول الحذر الواجب. عدد الفرنسيين المقيمين فى مصر والمسجلين نحو ٩٣٠٠ منهم ٦٠٠٠ فى القاهرة، ولكن يقدر عدد السياح الفرنسيين المتواجدين حالياً فى البلاد بنحو عشرات الآلاف. وقد قررت مجموعة لافارج وكريدى اجريكول، إجلاء موظفيهما من غير المصريين، وهو ما سوف تسارع شركات أخرى بالقيام به.

كانت الحراسة حول سفارة إسرائيل بالقاهرة أكثر من أى وقت مضى، كانت كالقلعة المحصنة. تم إجلاء عائلات الدبلوماسيين سراً يوم ٢٩ يناير على متن طائرة خاصة، كانت تقل ٤٠ رجل أعمال مارين بالمنطقة.

أما قمة السخرية فكانت أن آلاف العراقيين المتواجدين بالقاهرة فراراً من حالة الفوضى التى تسود بلادهم، قد تشجعوا على الرحيل حيث أرسلت حكومة بغداد ثلاث طائرات لإعادة من يرغب فى العودة إلى العراق مجاناً. وتشكل الجالية الأمريكية وقوامها ٥٠٠٠ مواطن مقيم ومسجل، أكبر جالية غربية فى مصر، وقد قامت سفارة الولايات المتحدة يوم ٣ فبراير باستئجار نصف الصالة ٤ بمطار القاهرة الدولى، وذلك لإتاحة تنظيم عملية المغادرة، إذ أن السفارة قد أعطت

أوامرها بإجلاء العاملين بها غير (الأساسيين)، وكان هناك موظفون يرتدون تى شيرتات حمراء، يقومون بإنهاء الإجراءات وتوجيه أبناء وطنهم إلى صالات السفر.

كما تلقت وزارة الخارجية الأمريكية طلباً خاصاً بعض الشيء، أن تم أيضاً إجلاء «القطط» و «الكلاب» التى يمتلكها المواطنون المقيمون، الذين يتم إجلاءهم. وهنا توضح رابطة The People for the Ethical Treatment of) PETA Animals)[1]. إن حماية الحيوانات هى إحدى القيم الراسخة فى المجتمع الأمريكى، وهذه الحيوانات التى تعد كل منها رفيقاً عزيزاً للأشخاص الذين يتم إجلاءهم، سيشكلون دون شك مصدر عزاء لهم فى هذا الوقت الرهيب «إلا أن هيلارى كلينتون التى كان لديها بلا شك بواعث قلق أخرى كثيرة، لم تعقب على هذا الأمر».

مصر بدون سائحين

فى ميدان التحرير قام شاب صغير السن برفع لافتة باللغة الإنجليزية « Dear Tourists don't leave, we protect you»[2] هو التزام يبعث على التعاطف، ولكن لم يكن له أثراً، فخلال عدة أيام تم تفريغ مصر من السائحين، وهو ما حدث من قبل عدة مرات: بعد حرب الخليج ١٩٩٠ - ١٩٩١، بعد حادث الأقصر الإرهابى فى نوفمبر١٩٩٧[3]، بعد تفجير برجى التجارة العالمية فى سبتمبر ٢٠٠١، وبعد غزو العراق من قبل الولايات المتحدة وحلفائها فى مارس ٢٠٠٣، ومع ذلك فقد كان تدفق أفواج السائحين يعود سريعاً، فللفراعنة جاذبية لا تقاوم:

---

(١) أى رابطة «مواطنون من أجل معاملة أخلاقية للحيوان» - المترجمة.

(٢) «أيها السياح الأعزاء لا تغادروا - سنقوم بحمايتكم».

(٣) اغتيال ٦٢ شخص بينهم ٣٦ سائح سويسرى بواسطة مجموعة من الإسلاميين أمام معبد حتشبسوت.

فلا توجد أية حضارة فى العالم، أياً ما كانت عراقتها قد تركت للإنسانية مثل هذا العدد من الروائع، هذا الانبهار بالحضارة المصرية، بات يثير فى نهاية الأمر المصريين الذين يشعرون بأن ما يلاقونه من اهتمام أقل بكثير مما يحظى به أجدادهم. ودولة الفراعنة هى أيضاً أحد منارات الشرق الإسلامى، فالمساجد بها تضاف إلى ما تحويه من مومياوات. هذان البعدان الجاذبان يشكلان معاً خافية مبهرة تغذى مخيلة الإنسان، مما يجعل مصر القبلة السياحية الأولى.

ما كان للأحداث السابق ذكرها - اعتداءات أو حروب - أن تشكل تهديداً لصورة «مصر الأبدية» الرمال والمياه والديكور الثابت فى عالم يتحرك كل يوم أسرع مما قبله، ولا يمكن عقد مقارنة مع بعض المواجهات أو الاضطرابات فى قلب المدينة، لابد أن نعود بالتاريخ إلى حريق القاهرة فى ١٩٥٢ الذى كان موجهاً ضد المنشآت الغربية، كى نجد وجهاً للمقارنة. على أية حال، فى هذا الفترة لم يكن السائحين فى البلاد يوازى ١٠٪ مما هو اليوم، ولم يكن التليفزيون يقدم بثاً مباشراً لحركة تمرد تقع على بعد خطوات من المتحف المصرى. وفى عام ٢٠١٠ حطمت السياحة فى مصر، والتى كانت تسجل نمواً مطرداً،كل الأرقام القياسية فقد وصل عدد الزائرين إلى ١٤,٧ مليون، مما جلب للبلاد نحو ١٣ مليار دولار أى ٦٪ من إجمالى الناتج القومى. ومن بين كل عشرة وظائف فهناك وظيفة تعتمد بشكل مباشر أو غير مباشر على السياحة، وهو ما يوضح سبب قلق المصريين من الاختفاء شبه الكامل للأجانب من الأماكن السياحية منذ ٢٨ فبراير.

تشكل قناة السويس أحد مصادر الدخل الأخرى الهامة للبلاد، ولكن إلا يمكن لها أن تتأثر بالأحداث؟. تؤكد وسائل الإعلام الرسمية أن مجرى المياه الذى يربط البحر المتوسط بالبحر الأبيض يعمل بكامل طاقته، ولكن الأمين العام لمنظمة الأوبك عبد الله البدرى ألمح بخطر «نقص» البترول، فقد تجاوز سعر البرميل ١٠٠ دولار للمرة الأولى منذ أكتوبر ٢٠٠٨.كما قامت مجموعة شل بإجلاء موظفيها الأجانب، بينما قامت بعض الشركات الأخرى، مثل الشركة الدانمركية العملاقة

للأعمال البحرية والبترولية أ.ب موللر - مارسك بتعليق أنشطتها، وهذا ما حدث أيضاً مع الشركة اليابانية لتصنيع السيارات «نيسان».

فى القاهرة تمتد الطوابير أمام محطات الوقود، التى تفتح أبوابها، ولكن جزءاً منهم يطلب الدفع نقداً، كما هو الحال أيضاً فى بعض محال السوبر ماركت. ولكن كثيراً ما تكون ماكينات الصرف الآلى فارغة والبنوك قد أغلق أبوابها منذ يوم الأحد ٣٠ يناير. بناءاً على قرار من السلطات، التى تخشى فى واقع الأمر أن تتم عمليات سحب ضخمة بعد أن وصلت رؤوس الأموال التى تم خروجها من مصر منذ بداية المظاهرات نصف مليار دولار فى اليوم.

التوابع الاقتصادية

فى يوم الاثنين ٣١ يناير قامت وكالة موديز للتقييم المالى بخصم نقطة من رصيد مصر، مما أثار القلق فى الأسواق المالية، بينما تعد مصر الوجهة الأولى للمستثمرين الأجانب فى منطقة الشرق الأوسط. إن عملية تحديث الاقتصاد التى قادها رئيس الوزراء السابق احمد نظيف مع مجموعة من خبراء الاقتصاد الحر، القريبين من جمال مبارك «مجموعة جمال»، قد ساهمت فى تحسين مناخ الاستثمار، وإن كان ذلك على حساب معاناة الطبقة الوسطى. فقد صمدت مصر أكثر من دول أخرى فى مواجهة الأزمة الاقتصادية العالمية. فإذا كان معدل نموها قد انخفض عن نسبة الـ ٧٪ التى سجلها خلال الثلاث سنوات الأخيرة، فإنه لا يزال محل غبطة الكثيرين (٤,٧٪)، ولم يفقد الجنيه المصرى الكثير من قيمته فى مواجهة الدولار منذ بداية الأحداث، ولكن ما تم من عمليات تدخل للمحافظة على سعر الصرف، من شأنه أن يؤثر بشكل قوى على احتياطى العملات الأجنبية. ولا يمكن للسلطة أن تترك الجنيه ينخفض دون أن تثير المزيد من الذعر والاضطرابات، ففى خلال عدة أيام ارتفعت أسعار السلع الغذائية مرة أخرى بعد أن كان ارتفاعها من قبل أحد أسباب الاحتجاجات فى الأحياء الشعبية، فأسعار الطماطم على سبيل المثال قد تضاعفت، وبدأ يحدث نقصاً فى منتجين هامين، وهما

السجائر وكروت التليفون المحمول، ومع ذلك فلم يمنع أى شيء من ذلك رجال الأعمال من مساندة الاحتجاجات. هذا على سبيل المثال هو حال رجل الأعمال مصطفى الجنيدى أحد أعضاء حزب الوفد والعضو البرلمانى السابق، وهو يناضل على طريقته، فقد بدأ بتمويل مشروعات تنموية بقريته بالدلتا، وكون فى ١٩٩٨ الحركة الدولية «السياحة من أجل التنمية» فقد تمت دعوة العاملين فى الفنادق ووكالات السفر إلى التبرع بجزء بسيط للغاية من أرباحهم - ما يوازى ٢ دولار - لصندوق مخصص لتجهيز القرى، هكذا لن تكون السياحة المصدر الأول للعملات الأجنبية لمصر، ولكنها ستكون أيضاً وسيلة ملموسة لمساعدة الأفراد الأكثر فقراً. إلا أن هذه المبادرة قد أثارت استياء وزير السياحة آنذاك إلى أبعد حد، فقال لمصطفى الجندى «إن مصر ليست بحاجة للاستجداء» وعندما لم يتراجع هذا الأخير عن مشروعه، تم استدعاؤه واستجوابه بشكل فظ، واتهامه بأنه عميل للخارج... إلا أنه صمد. وفى عام ٢٠٠٥ استطاع أن ينجح فى الانتخابات كنائب مستقل فى منطقته، مسجلاً عدد أصوات قياسى. بعد خمس سنوات من ذلك التاريخ، كان قد انضم لحزب الوفد، ورشح نفسه مرة أخرى، إلا إنه كان ضحية لعملية التزوير التى نظمتها السلطة. «حتى الواحدة صباحاً - يذكر مصطفى الجندى - كنت فائزاً، ولكن فى الساعة الثالثة صباحاً لحق بى مرشح الحزب الوطنى، فى اليوم التالى ظهراً، عرض على منصباً مغرياً إذا ما انضممت للحزب الحكومى. أما فى الساعة الواحدة ظهرا فقد أعلنت هزيمتى»[(١)].

هنا انسحبت المعارضة من الانتخابات وشكلت «برلماناً موازياً» له بعد رمزى، وقد أدى هذا البرلمان اليمين «أمام الشعب» فى الشارع. وعندما كان حسنى مبارك يلقى فى نفس الوقت الخطاب الافتتاحى لمجلس الشعب، قال لنوابه بلهجة عامية «خليهم يتسلوا» والواقع (مصطفى الجندى يتسلى كثيراً) منذ الخامس والعشرين

---

(١) حديث مع مصطفى الجندى - القاهرة - مارس٢٠١١.

من يناير، حتى إذا ما كانت مراكبه لا يوجد على ظهرها سائحين، وحتى إذا ما أضطر إلى رفع مرتبات العاملين بفندقه بالمعادى، بعد أن فقدوا جزءاً من دخلهم نظراً لعدم وجود إكراميات.

قد يستطيع رجل أعمال أن يتحمل التوقف المؤقت لأنشطته، ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لصغار رجال الأعمال الذين يتهددهم الإفلاس. ولكن هذه المرة مع ذلك تجاهل الكثير منهم الحسابات، فيؤكد أيمن إبراهيم الذى يدير فرعاً لـ تويوتا بأبو رواش - المنطقة الصناعية الواقعة خلف منطقة الأهرامات - قائلاً: «إننى أفقد ١٠٠٠ جنيهاً كل أسبوع من مرتبى ولكننى خلال الثلاثة أيام الأخيرة أذهب أنا وأولادى يومياً إلى ميدان التحرير للتظاهر، إن مبارك يكلفنى أموالاً ولكنه جعل مصر منذ ثلاثين عاماً تدفع ثمناً غالياً»[١].

---

(١) نقلاً عن بيتر بومان - الجارديان - ١فبراير ٢٠١١.

١١

قرية التحرير

يوم الأحد هو بداية الأسبوع هو اليوم الذى تعيد فيه البنوك فتح أبوبها، والذى يعاود فيه الأولاد السير فى طريق المدرسة، ويقوم سائقو السيارات بإعادة اعتياد الصبر المصرى خلال زحام المرور. ولكن المشهد فى وسط القاهرة لهذا الأحد ٣٠ يناير هو مشهد حرب أهلية، حيث هياكل سيارات الشرطة محترقة أو مقلوبة، تتناثر هنا وهناك على الطريق، وواجهات المحلات محطمة، كما اختفى كل الباعة الجائلين من فوق الأرصفة، غالبية سكان المدينة قد لزموا منازلهم أو يتولون الحراسة أمام منازلهم.

على بعد مئات الأمتار من ميدان التحرير يوجد مستشفى قصر العينى الجامعى، الذى تلقى الكثير من الجرحى وأغلبهم مصابين فى الوجه بالرصاص المطاطى، ناهيك عن الكسور والجروح المفتوحة والاضطرابات المرتبطة بالغاز المسيل للدموع. فى فناء المستشفى تم إقامة بنك للدم، سرعان ما توافد عليه أهالى الشهداء وعدد كبير من الأشخاص غير المعروفين. وكان عدد المتبرعين بالدم الذين اصطفوا فى طوابير ثلاثة أضعاف الأعداد المعتادة، وتم بعد قليل طولبوا بالانصراف وإنهاء التبرع بعد أن امتلأ البنك.

فى ميدان التحرير تم تحويل قاعة الصلاة بمسجد عبد الرحمن إلى مستشفى

ميدانى بمبادرة من أحمد طيب إمام المسجد، الذى دعا يوم الجمعة كل سكان المنطقة «مسلمين ومسيحيين» لإحضار معدات إسعاف وأدوية. وتمت الاستجابة إلى ندائه، ولكن ظل هناك نقصاً فى طاولات الكشف الملائمة، مما اضطر الأطباء المتطوعين الذين يضع كل منهم شارة على ساعده توضح تخصصه إلى معالجة الجرحى فوق سجاجيد الصلاة.

بدأ ميدان التحرير - الذى أحاطته الدبابات - فى تنظيم نفسه، أما لصوص الأيام السابقة فقد تمت ملاحقتهم ثم تسليمهم إلى الجيش «هكذا حاول ثلاثة من المجرمين الاختفاء داخل أحد الشوارع الضيقة، حيث أحاط بهم رجال من الجيش انهالوا عليهم بالهراوات والعصى، كما خرج بعض الرجال من حوانيتهم، لكى يركلوا هؤلاء المجرمين بأقدامهم»[1]. ومازال المتظاهرون لا يلتزمون بحظر التجول، إذ قاموا بنصب الخيام فى منتصف الميدان للمبيت بها وتم توزيع الغطاء والطعام.

يقول رمضان اليمنى وهو مدرس يبلغ من العمر ٤٩ عاماً ويبيت فى الميدان منذ يوم الجمعة، أقيم على مسافة ٨٠ كم من القاهرة وقد قلت لأولادى أننى لن أعود إلى المنزل طالما لم يسقط هذا النظام الفاسد. لقد عشنا الخوف لمدة ثلاثين عاما... كفى، إلى جواره كانت هناك حقيبة مفتوحة بها قطن وضمادات ومياه لغسل أعين المتظاهرين، وقد وضع فوق بطنه لافتة كتب عليها «غير منتهى الصلاحية على عكس نظام الصحة الفاسد للبلد»[2].. سامر محمد، موظف بوزارة التعليم، يلازم الميدان هو وزوجته وابنته وابنه، الذين تتراوح أعمارهم بين ٦ و١٤ عاماً، وهم يقولون «سنظل بالميدان إلى أن يرحل مبارك»[3]. بالقرب منهم نجد لافتة كتب عليها أحدهم بحروف كبيرة «ارحل يا جبان يا عميل الأمريكان».

---

(١) سيسيل هيمون، لوموند، ١ فبراير ٢٠١١.

(٢) ميشيل موتو - وكالة الأنباء الفرنسية - ٣١ يناير ٢٠١١.

(٣) مارتن فليتشر - التايمز - ١ فبراير ٢٠١١.

فى التحرير هناك بعض الشابات الآتى يقضين الليل فى التحرير قريباً من الرجال، وهذا ليس بالأمر الهين، ففى مجتمع بات اليوم أكثر محافظة من ٣٠ أو ٤٠ سنة مضت، وحيث انتشر الحجاب، فمثل هذا التجاوز قد يعد أمراً غير مقبول. كان هناك بالفعل جدلاً بهذا الشأن فى الميدان، ولكنه لم يتطور، فنحن فى حالة ثورة... لا يمثل متظاهرو التحرير بالفعل عينة تمثل المجتمع المصرى، حتى لو زاد التنوع بينهم على مر الأيام، فعلى سبيل المثال نسبة السيدات غير المحجبات أعلى بكثير منها فى الطبقة المتوسطة.

البرادعى فى الميكروفون

فى مساء يوم الأحد توجه محمد البرادعى إلى الميدان. وقد قامت المعارضة باختياره «التفاوض مع النظام» ولكن هذا الاختيار لم يكن فى واقع الأمر محل إجماع. ويطلق نور ابن أيمن نور مؤسس حزب الغد (وسط) بعض الكلمات الغامضة «هناك مشكلة مع أولئك الذين قفزوا فى القطار أثناء سيره»[١].

فى الوفد على سبيل المثال يتم التساؤل عما إذا كان البرادعى يتعامل مع الإخوان: فالجماعة ترى من مصلحتها أن يتم تمثيلها من خلال هذا العلمانى، رغبة منها فى عدم إثارة قلق أحد. ولكن هل أعضاء الجماعة يوافقون على ذلك؟.

«إنها ثورة شباب ولسنا بحاجة إلى قادة لكى يقولوا لنا ما علينا فعله» كما يقول متعجباً محمد القزاز الذى يعمل فى مجال الإنتاج الإعلامى ولا يشارك فى الصورة بوصفه من الإخوان المسلمين ولكن كمصرى[٢].

---

(١) مارتن فليتشر – التايمز – ١ فبراير ٢٠١١.
(٢) نقلاً عن جاك شنكر – الجارديان – ١فبراير ٢٠١١.

وُضع ميكروفون أمام المدير السابق لوكالة الطاقة الذرية، الذى لم يعتاد التواجد وسط الجماهير، وهو ليس خطيباً مفوهاً، وهو أمر يعرفه الجميع. وقد توجه إلى آلاف الأشخاص المتواجدين على الرغم من حظر التجول قائلاً: «أطالبكم بالصبر، فالتغيير آت»، وهنا هتف المتظاهرون «الشعب يريد إسقاط النظام»، أما الممثل خالد أبو النجا المتواجد إلى جوار البرادعى، فقد صاح مع الجماهير «يسقط حسنى مبارك» وقد استطرد البرادعى: «نحن على الطريق الصحيح وقوتنا فى عددنا... لقد استعددنا حقنا فى الحياة الكريمة... ».

وقد قضى البرادعى الحاصل على جائزة نوبل ٢٠٠٥ جزءاً من يومه فى لقاءات تليفزيونية، حيث أنه يشعر بمزيد من الراحة فى الأحاديث الخاصة، هكذا صرح لقناة ABC الأمريكية قائلاً: «إن الإخوان المسلمين ليسوا متطرفين على الإطلاق وهم لا يلجأون أبداً إلى العنف»، كما صرح للشبكة المنافسة CBS بقوله: «إن ديكتاتوراً ظل فى السلطة مدة ثلاثين عاماً لا يمكن أن يقيم الديمقراطية، هذا محض هزل، لن تهدأ الأمور إلا برحيل مبارك، بكرامة» وقد أضاف أمام صحفى بريطانى: «إذا ما أراد مبارك أن ينجو بحياته فمن الأحسن له أن يرحل»[1].

وقد أعلن البرادعى من جانبه أنه مفوضاً من المعارضة المصرية للتفاوض حول تشكيل حكومة وحدة وطنية. ويبدو أن ليس كل المتواجدين بالميدان بالضرورة من المعارضين للنظام، فقد ثارت الشكوك حول بعض الأفراد المبتسمين الذين يسترقون السمع . «أى رجل شرطة فى لباس مدنى يعرف من حذائه».

كما تناثرت بعض الشائعات غير المعروفة المصدر، التى أثارت القلق بينما كانت هناك شائعات تحمل آمالاً سابقة لأوانها، مثل أن عائلة الرئيس هربت إلى

---

(١) جريدة الإندبندنت ٣١ يناير ٢٠١١.

لندن، وأن جمال وزوجته وابنته شوهدوا فى مطار القاهرة، يستعدون للسفر إلى العاصمة البريطانية على متن طائرة خاصة، وبصحبتهم ٩٧ حقيبة، وأن سوزان زوجة الرئيس وابنها الأكبر علاء قد غادروا معهم، وأنهم سيقيمون فى القصر الخاص الكائن فى ٢٨ ويلتون بلاس الذى أقام فيه جمال فيما بين ١٩٩٦ - ٢٠٠٤ عندما كان يعمل فى لندن. وأن خديجة زوجة جمال قد شوهدت بالفعل تقوم بعمل شوبنج فى محلات هارودز. وهى معلومات من نسج الخيال تم تداولها عبر الانترنت: فنوافذ القصر فى ٢٨ ويلتون بلاس مغلقة ولم يغادر أى من آل مبارك مصر.

ولقطع الطريق أمام الشائعات والحصول على معلومات بشكل أفضل تم وضع شاشتى تليفزيون كبيرتين فى ميدان التحرير يوم الاثنين ٣١ يناير.

وفى آخر الليل يشعل المعتصمون النيران للتدفئة، كما يلعبون الكرة، فقد تم تشكيل فريقى كرة قدم، ليسا الأهلى والزمالك (وهما الفريقان اللذان يقتسمان منذ عشرات السنين جماهير العاصمة، بل ومصر كلها) ولكن فريقى «العيش» و «الحرية»، وفى مساء هذا الأحد فاز فريق «العيش».

مرة أخرى تدافعت الحشود على الميدان فى يوم الاثنين بعد الظهر، متجاهلة حظر التجول: رجال ونساء، أطفال وكبار سن، مسلمين ومسيحيين، أغنياء وفقراء، طالبات بالجامعة الأمريكية يرتدين الجينز وتطايرت شعورهن فى الهواء، ومحجبات يرتدين أغطية للرأس، وأخريات محجبات من الرأس إلى القدمين، وقد قامت شابتان ترتدى إحداهن النقاب والأخرى يعلو الصليب صدرها، بالتقاط صورة معاً، وهو ما يذكرنا بثورة ١٩١٩، عندما نزلت مصر كلها إلى الشارع مطالبة المحتل الإنجليزى باستقلال البلاد.

ولن يتوارد على الذهن أيضاً بعض الذكريات الأحدث. فقد ترددت على الميدان عدة مرات خلال هذه «الأيام الاستثنائية» المخرجة السينمائية تهانى راشد، ٦٣عاماً التى خصصت عدداً من الأفلام الوثائقية الصادمة عن السيدات

المصريات، وكانت تصطحب كاميراتها فى بعض الأحيان، كانت تتردد على الميدان بصفتها من جيران المنطقة، حيث تسكن فى جاردن سيتى - غير بعيد عن الميدان -، وتقول عن ذلك: «فى ميدان التحرير استعدت مصر التى عرفتها فى طفولتى، مصر متعددة الثقافات، حيث كان يشعر كل فرد بأنه جزء منها، بصرف النظر عن أصله أو دينه أو لهجته أو تسريحة شعره»[1].

(١) حوار مع تهانى راشد - القاهرة - ٢٢مارس ٢٠١١

١٢

العودة للبلاد

تابع المصريون المقيمون فى الخارج ما يجرى فى مصر بذهول وهم بالملايين، متفرقون عبر العالم، وتشكل تحويلاتهم إلى مصر أحد موارد الدخل الهامة للبلاد. وهم يشكلون طائفة جديدة من المواطنين. لآلاف السنين ظل هذا الشعب من الحضر المقيمين ملتحمين بوادى النيل، ولعل نجيب محفوظ كان أفضل مثال، فعلى الرغم من أفقه المتفتح واهتمامه بالثقافات الأخرى، فإنه لم يغادر وطنه إلا مرتان كان فيهما شبه مضطراً أو مجبراً، حتى أن هذا الكاتب الأشهر فى العالم العربى لم يذهب لتسلم جائزة نوبل، مفضلاً تفويض أحد تلامذته لهذه المهمة.

ولكن مصر أصبحت مثل العديد من الدول الأخرى، دولة هجرة، وقد فقدت منذ بداية سنوات الخمسينات والستينات العدد الأكبر من سكانها الغربيين، ذوى الأصول الأجنبية، الذين شعروا بأنهم مبعدون من قبل حكم ناصر، كما فقدت أيضاً اليهود، ضحايا الصراع العربى الإسرائيلى. ثم شاهدت مصر على مر العقود التالية رحيل طائفة تعد هى الأكثر عدداً، وهم الباحثون عن عمل، الذين استقر عدد كبير منهم بشكل مؤقت فى المملكة العربية السعودية والإمارات.. ثم عادوا إلى مصر بجيوب ممتلئة بالدولارات، وبتوجه دينى شديد المحافظة، هؤلاء «الأثرياء الجدد» ساهموا فى «إعادة أسلمة» البلد بأسوأ طريقة ممكنة، هذا البلد الذى هو ابن العروبة اليتيم.

هناك طائفة ثالثة من المهاجرين تحتفظ بعلاقات وثيقة مع الوطن الأم، على الرغم من أنهم غادروه بطريقة مؤلمة، من بينهم الإسلاميون الذين فروا من القمع، والأقباط الذين كثيراً ما يكونون شديدى المعارضة للنظام الذى يتهمونه بممارسة التفرقة تجاه المسيحيين، هناك أيضاً عدداً من الحاصلين على الشهادات العليا، الذين لم يجدوا فى بلادهم ما يرضى طموحاتهم المهنية أو تعطشهم للحرية.

فى يوم السبت ٢٩ يناير حاول مئات الأشخاص فى لندن الاقتراب من سفارة مصر وهم يهتفون «Go, Mubark, Go»[1]، كان هناك مظاهرتان مختلفتان: الأولى تجمع المدافعين عن الديمقراطية الذين يندوون بالدولة البوليسية، بينما الثانية نظمها المتطرفون الذين يبتهلون إلى الله وينادون بإقامة ... الخلافة.

فى نفس الوقت كان هناك ٧٠٠ شخصاً يقفون بعد أن أبعدتهم الشرطة على مسافة قريبة من السفارة المصرية، يلوحون بالأعلام ويهتفون «ديمقراطية» أو «أرحل يا مبارك»، فى كل مكان، من بروكسل إلى مونتريال مروراً بواشنطن، كان المصريون يعبرون عن مشاعرهم، بالحماس بالغضب أو بدموع مكتومة..بعض منهم ترك عمله بشكل مؤقت، واستقل أول طائرة إلى القاهرة ليكون من بين صفوف المتظاهرين، والبعض الآخر تساءل فى حزن عما يجب عليه أن يفعله.

ويحكى لنا الدكتور طارق منير: وهو جراح مقيم فى جنيف مع زوجته وأولاده[2]: «كنت أغير رأى كل خمس دقائق».. وعندما أعلن حسنى مبارك نيته عدم الترشح فى سبتمبر، ووعد بعمل إصلاحات دستورية، قال الدكتور منير فى نفسه: «إنه قد يكون أمراً طيباً أن يمنح الفرصة لإنهاء مدة رئاسته»، ولكن اليوم التالى وبعد الاقتحام العنيف لميدان التحرير من قبل أنصار «الريس»، شعر أنه لم

(١) «ارحل، مبارك، ارحل» بالإنجليزية فى النص. (المترجمة)

(٢) سارة حسين، وكالة أنباء الشرق الأوسط، ٧فبراير ٢٠١١.

يعد من حقه أن يظل متفرجاً، «وطلب منه» ابنه ذى التسع سنوات، التوجه إلى مصر كما عرض عليه الزملاء أن يحلوا محله «كى يستطيع المشاركة فى الثورة».

أيمن موسى، دكتوراه فى الرياضيات، باحث ومحاضر بجامعة باريس - جبسيو - كان يتابع الأحداث لحظة بلحظة، من على بعد وبشعور متزايد بالإحباط، وقد توجه إلى القاهرة يوم ٨ فبراير «بناء على قرار مفاجئ»[١]. كان همه الوحيد خلال الرحلة أن تخمد الانتفاضة، وأن يغادر المتظاهرين الميدان قبل وصوله. ولكن الميدان كان فى انتظاره ثلاثة أيام شاقة قبل انفراج الأزمة!

أسامة كرار - ٤٢ سنة - ينظم معارض تجارية بالخارج، وكان عليه التوجه إلى أوكرانيا، لكنه يقول «لقد تخليت عن كل شيء، لقد سافرت كثيراً وشاهدت الحرية التى أحرص على رؤيتها فى بلدى، لقد خسرت أموالاً بالطبع ولكن هذا لا يعد شيئاً مقارنة بثمن الحرية»[٢].

أما خالد داوود فقد قرر العودة إلى القاهرة[٣] يوم ٣٠يناير، عندما رأى وقد أصابه الذعر على شاشة التليفزيون طائرات حربية مصرية - اف ١٦ - تحلق فوق سماء ميدان التحرير. حتى هذه اللحظة كان خالد يجلس متسمراً أمام شاشة التليفزيون فى مانهاتن، ويقول لنفسه «هم ليسوا بحاجة لى هناك. ماذا بوسع مصرى واحد أن يفعل أكثر من ذلك؟»، ولكن مجرد رؤيته للطائرات الحربية كانت حاسمة لقراره، وأسرع إلى المطار: «لم أكن أعلم كم من الوقت سأبقى فى القاهرة ولكننى كنت متأكداً من ضرورة وجودى هناك بين شعبى وأهلى». وعند وصوله إلى أرض الوطن استغرق الوصول إلى بيت أهله فى حى المهندسين ثلاث ساعات نظراً لنقاط التفتيش العديدة التى أعدها الجيش أو بعض المواطنين، وما إن وضع

---

(١) فى وثيقة لم تنشر بعد، روى أيمن عودته إلى بلده، موثقة بالصور والفيديو.

(٢) نقلاً عن جوناثان وايت - رويتر - ٦ فبراير ٢٠١١.

(٣) «العودة بكبرياء» - الأهرام ويكلى - ١٧ - ٢٣ فبراير ٢٠١١.

حقيبته حتى هرول سريعاً إلى الميدان. هو يعرف كل ركن فى الميدان، فقد كان طالباً فى الجامعة الأمريكية القريبة منه، ولمدة عدة أشهر كان يتردد بانتظام كل يوم سبت على المتحف، من أجل محاضراته حول علم المصريات. كان كثيراً ما يلتقى مع أصدقائه فى أحد مقاهى التحرير لتدخين الشيشة، أو يتوجهون إلى فندق هيلتون رمسيس لتناول سندوتشات الفول والفلافل - الأفضل فى المدينة - . بعد ذلك عمل خالد داوود لمدة خمسة عشرة عاماً كمراسلاً لصحف ووكالات أنباء أجنبية تقع فى المبانى المجاورة. ولكى يحصل على جواز سفر كان عليه أن يقف فى الطابور لمحو ٣٦ مرة فى أروقة المجمع... ولكن هنا فى الميدان كان كل شىء مختلفاً «هولاء الآلاف من المصريين من مختلف الأوساط يحتلون الميدان للمطالبة بحقوقهم الأساسية، هذا ما لم يكن من الممكن أن اتخيله، وقد فهمت أننى اتخذت القرار الصائب عندما رأيت نهى التى عادت من كاليفورنيا، وداليا التى عادت من مانشيستر، وعماد الذى عاد من لندن، وقد اتفقنا جميعاً على أنه لم يكن من الممكن أن نتغيب عن حضور هذه اللحظة التاريخية».

أما رجل الأعمال مصطفى الجندى فقد اختار الطريق العكسى: فقد توجه إلى واشنطن للدفاع عن قضية المتظاهرين. وقد التقى ببعض أعضاء الإدارة الأمريكية، وتحدث قدر الإمكان فى وسائل الإعلام «فى كل مرة كان المحدثون يعربون عن قلقهم من الأحداث ويرون فيها صعوداً للمتطرفين، كنت أجيبهم بأن ابنتاى متواجدتان فى ميدان التحرير»[1] .. فى باريس، يوم ١٠ فبراير كان أيضاً يجرى أحاديث، ولكن حقائبه الموضوعة فى مدخل شقته الباريسية، لم يكن حتى قد فتحها، إذ كان يتحرق شوقاً للعودة إلى القاهرة. وقد عاد يوم ١١ فبراير «فى المطار وأثناء وقوفى فى الطابور أمام رجال الجمارك قلت لنفسى: إذا ما تم توقيفى فهذا يعنى أن الثورة قد فشلت، ولكن جواز سفرى قد تم ختمه دون أى كلمة، وقد خرجت وسارعت مباشرة بالتوجه إلى ميدان التحرير».

---

(١) حوار مع مصطفى الجندى - القاهرة - ٢٣مارس ٢٠١١.

١٣

الشرطة تجمل وجهها

يوم ٣٠ يناير أعلن فتحى سرور رئيس مجلس الشعب أن نتائج الانتخابات التشريعية سيتم «تصحيحها» وفقاً لما ستصدره العدالة من قرارات. ويقول الوجه العتيد للنظام «هناك أصوات ارتفعت مطالبة بحل مجلس الشعب، وهذا الموضوع هو الآن منظور من قبل محكمة النقض»، وقد أثار هذا التصريح ضحك المعارضين فلم يكن من عادة البرلمان أن يخضع لمثل هذه الضغوط...

أما الحكومة الجديدة التى شكلها أحمد شفيق فلا يوجد بين صفوفها وزيراً واحداً منتمياً لعالم الأعمال. وحل محمود وجدى الرئيس السابق للشرطة القضائية وإدارة السجون بالقاهرة محل وزير الداخلية المكروه حبيب العادلى، كما خرج أيضاً من الوزارة فاروق حسنى (وزارة الثقافة) الوزير غير القابل للعزل، والذى يشغل منصبه منذ ثلاثة وعشرين عاماً، وكان يعد من رجال سوزان مبارك. ولكن فى المقابل تم الإبقاء على وزير الدفاع - المشير حسين طنطاوى الذى تمت ترقيته إلى نائب رئيس الوزراء، ووزير الخارجية أحمد أبو الغيط ووزير الإعلام أنس الفقى.

وكان من شأن إبعاد حبيب العادلى إرضاء ميدان التحرير، الذى يتهمه بإعطاء أوامر إطلاق النار على المتظاهرين، وخلق حالة الفوضى. وتذكر صحف المعارضة أن خلافاً وقع بينه وبين الرئيس مبارك فى نهاية يوم الجمعة ٢٨يناير، عندما قرر

الأخير الاستعانة بالجيش لمساعدة الشرطة، وهنا قال الوزير باستياء: «حسناً فلنترك كل شيء للجيش»، وأصدر الأوامر لرجال الشرطة بالانسحاب[1].. هل هذا أمر يمكن تصديقه، وهل يمكن تصور أن يصدر مثل هذا القرار دون الحصول على الضوء الأخضر من الفرعون.

فى مصر يميل أصغر موظف للاحتماء برئيسه كغطاء، فماذا عن قمة الهرم عندما يحدث هذا الزلزال؟!

أوضحت وكالة أنباء رسمية - وكالة أنباء الشرق الأوسط - أن وزير الداخلية الجديد قد قرر تغيير شعار الشرطة - الذى لن يعود - «الشرطة والشعب فى خدمة الوطن» ليصبح «الشرطة فى خدمة الشعب»، ولم يبق سوى تطبيق هذا المبدأ الجميل!

وقد استقبل ميدان التحرير هذه التصرفات المختلفة بعدم اكتراث «مطلبنا واضح: نريد رحيل مبارك وجماعته ولن نقبل بشيء آخر»، هذا ما صرح به الباحث عمر الدمرداش (٢٤ سنة)[2] من فوق شجرة عالية. كانت هتافات الحشود الجماعية تتواصل عبر أحد الميكروفونات: «لا نريد تغييراً فى الوجوه بل تغيير النظام» «دم الشهدا مش هيضيع».

أما الإخوان المسلمون فقد رفضوا الحكومة الجديدة، وعلّق سعد الكتاتنى - أحد قادة الجماعة - «... بأن الحوار لا يمكن أن يتم سوى مع الجيش فهذا هو الحوار الوحيد المقبول، من الآن فصاعداً فإن القيادة هى الجيش فهى المؤسسة الوحيدة التى يقبلها الشباب»[3]، وأعلنت الجماعة أنها ستشكل لجنة سياسية

---

(١) المصرى اليوم - الإثنين ١٣يناير ٢٠١١.

(٢) رويترز - الاثنين ٣١يناير ٢٠١١.

(٣) هبة صالح - فاينتشيال تايمز - ١فبراير ٢٠١١.

واسعة مع محمد البرادعى بهدف بدء حوار مع الجيش، وهى تدعو إلى «مظاهرات حاشدة فى كل أنحاء مصر حتى يسقط النظام بأكمله، الرئيس، الحزب، الوزراء، والبرلمان».

هل يعتبر نائب رئيس الجمهورية اللواء عمر سليمان جزءاً من الجيش فى ذهن الإخوان المسلمين؟، أم هل هو ممثلاً للنظام؟ .. وقد أعلن هذا اليوم الاثنين - وقد تلقى تكليفاً من الرئيس - ببدء الاتصالات الفوريّة مع كل القوى السياسية لمناقشة الإصلاحات الدستورية والتشريعية، ويبدو أن الجماعة المقبولة على الرغم من عدم شرعيتها، تندرج داخل الـ «كل» هذه، وهى طريقة للاعتراف بها.

مهد الإسلام السياسى

أسس «حسن البنا» جماعة الإخوان المسلمين فى عام ١٩٢٨ فى الإسماعيلية «القرآن دستورنا»، هذا ما كان يؤكده دون مواربة هذا المعلم الذى كان يدعو المجتمع المصرى إلى إعادة تنظيم نفسه لإنشاء الدولة الإسلامية. وسرعان ما بدأت الجماعة التى كانت تكافح الاستعمار البريطانى فى تشكيل مجموعة شبه عسكرية، وبدأت فى القيام ببعض العمليات الإرهابية، فقد قام أحد أعضائها باغتيال رئيس الوزراء «فهمى النقراشى» فى ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨، وكان ذلك بعد عدة أيام من حل الجماعة.. وفى العام التالى تم اغتيال حسن البنا على يد البوليس السياسى، ولكن حركته - التى ترسخت أركانها تماماً فى البلاد - عاشت طويلاً بعده.

وإن كان الإخوان قد أيدوا الانقلاب العسكرى فى يوليو ١٩٥٢، إلا أنهم سرعان ما بدأوا فى معارضة «ناصر»، الذى اتهمهم بعد ذلك التاريخ بعامين بمحاولة اغتياله، وواجهوا أشد أنواع القمع، وتم إعدام بعض زعماء الجماعة، وكان هذا هو نفس المصير الذى لاقاه «سيد قطب» أحد مُنَظرى الجماعة بعد ذلك بأعوام. كان سيد قطب قد أعطى لفكر مؤسس الجماعة بعداً متشدداً للغاية، عندما أعتبر السلطة المصرية كافرة ولابد من محاربتها، كما فعل النبى الذى قضى على همجية الجاهلية.

خرج من عباءة الجماعة التى تعد مهد الإسلام السياسى المعاصر عدة مجموعات وحركات أثارت لغطاً شديداً، منها الجماعة الإسلامية التى كافحت لبعض الزمن من أجل تطبيق الشريعة فى الحياة اليومية، وجماعة حماس التى سيطرت على غزة، وجماعة الجهاد الإسلامى التى خرج منها قتلة السادات، وكذلك أيمن الظواهرى رقم ٢ فى تنظيم القاعدة. ولكن الجماعة نفسها نبذت العنف، وكان هناك نوع من التسـوية بينها وبين نظام مبارك، فعلى الرغم من عدم شرعية الجماعة بما يمنعها من خوض الانتخابات بوصفها جماعة دينية، والأحزاب الدينية محظورة، فقد أتيح لها ممارسة أنشطتها فى مجال الأعمال الخيرية. وقد نشطت الجماعة فى هذا المجال بشكل ملحوظ خاصة أن الدولة بعد توجهها للاقتصاد الحر، ابتعدت تماماً عن مجال العمل الاجتماعى.

وتكمن قوة الإخوان المسلمين فى عددهم (يصعب تحديده على وجه الدقة ما بين مناضلى الجماعة الذى يصل عددهم لحو عدة مئات الآلاف ومساهمين مالياً يصل عددهم إلى عدة ملايين) وكذلك فى تنظيمهم الجيد وتواجدهم القوى داخل النقابات وصلابة قناعاتهم.

فى يوم الأثنين ٣١ يناير بالتحديد كان أشد ما يستوقف الانتباه البيان الذى أصدرته القوات المسلحة حيث أكدت. فى رسالة موجهه «الشعب مصر العظيم» وتم بثها عبر تليفزيون الدولة، أن قواتكم المسلحة وإدراكا منها لشرعية مطالبكم فهى على استعداد لتحمل مسئوليتها فى حماية الوطن والمواطنين وتؤكد أن حرية التعبير بالوسائل السلمية مكفولة للجميع مع توضيح أن «القوات المسلحة لن تلجأ لاستخدام القوة ضد شعب مصر العظيم».

وقد شجع هذا الالتزام بعدم اللجوء للقوة المسلحة العديد من المصريين على المشاركة فى مظاهرة كبيرة كان من المقرر انطلاقها فى اليوم التالى تحت اسم «المسيرة المليونية».

١٤

المسيرة المليونية

لكى يتم منع المعارضين من تحقيق هدفهم - وهو جمع مليون شخص - تم إغلاق كل مداخل العاصمة، وقطع طريق السكك الحديدية، فلا سبيل أن تخرج مصر كلها إلى القاهرة.

بدأ تداول المعلومات شفهياً بحل محل الانترنت الذى كان لا يزال مغلقاً، وكان آخر مزودى خدمة الانترنت التى كانت تعمل «noov» قد تم إيقاف خدمته من قبل السلطات، ليس تماماً.... ففى نفس اليوم اشترك كل من جوجل وتويتر لمساعدة المصريين فى الالتفاف على هذا الحظر. وقد أشار الموقع الرسمى لـ جوجل إلى أن «يمكن للجميع التحدث عبر تويتر بمجرد ترك رسالة تليفونية إلى أحد الأرقام الدولية التالية: 16504194196+أو 390662207294+ أو 97316199855+ وسيقوم الموقع على الفور بوضع الرسالة على تويتر من خلال استخدام الكلمة الرئيسية egypt# لن يكون هناك احتياج إلى أى اتصال بالانترنت، فكل من يرغب فى سماع تلك الرسائل يمكنه ذلك من خلال الاتصال بنفس الأرقام التليفونية أو الدخول على تويتر ويمكن تحميل بعض الفيديوهات بما أن اليوتيوب التابع لـ جوجل قد وضع تحت تصرف المصريين شبكته للأخبار السياسية».

لاشك فى أن أى شركة ذات علامة تجارية شهيرة تبيع مشروبات أو سيارات، كانت لتتردد كثيراً قبل تحدى السلطة بهذه الطريقة حلا تتعرض لحظر دخول منتجاتها الى السوق المصرى. ولكن جوجل وتويتر وفيس بوك ليس لديهم ما يبيعونه أو يخسرونه، بل على العكس فإن مثل هذا الصراع يمنحهم الكثير من الدعاية. وفى نفس الوقت أعلنت صحيفة وول استريت عن اختفاء محير: فمنذ يوم ٢٨ يناير انقطعت أخبار «وائل غنيم» (٣٠ سنة) رئيس تسويق جوجل الشرق الأوسط وافريقيا، وقد عُرف عنه أنه قريب من الرئيس السابق لوكالة الطاقة الذرية محمد البرادعى. فى ٢٤ يناير أعلن هذا الشاب عن اعتزامه المشاركة فى المظاهرات، فقد قال: سأذهب «على الرغم من كل تحذيرات الأقارب والأصدقاء» ثم كتب بعد عدة أيام: «ادعوا لمصر فيبدو أن الحكومة وقد انتابها القلق الشديد تجهز غداً لجريمة ضد الشعب، نحن جميعاً على استعداد للموت».. «مصر لم تعد بحاجة إلى فرعون».

منذ الصباح الباكر بدأت مجموعة منظمة فى تفتيش الأشخاص الذين يتوافدون على ميدان التحرير، وتم تخصيص جانب للسيدات وآخر للرجال. وكان هؤلاء الشباب الذين اضطروا لعمل التفتيش يعتذرون عن ضرورة اتخاذ بعض الإحتياطات قائلين بابتسامة «أهلا بكم فى أشرف مكان فى مصر وأكثره أماناً».

«هالة هدرة» (٤٠عاما) أم لطفلين، خرجت للتظاهر للمرة الأولى فى حياتها تقول: «قيل أنها مظاهرة تضم مليون شخص، وأردت أن أكون واحدة من بين المليون».

«على إبراهيم الجافى» (٧١عاما) لواء بالمعاش جاء سيراً على الأقدام من منزله بالدقى على بعد ٢ كيلو متر مستنداً على عصا، وهو يشير بأصبعه إلى حنجرته فى إشارة إلى أنه فقد الصوت، ويكتب مشاعره على قطع ورق صغيرة: «يسقط مبارك الخائن». ويصرّح هذا الرجل العسكرى الذى فقد صوته أنه شارك فى عدة حروب مع إسرائيل. ولاشك أنه كان سعيداً لرؤية هيكلين من الورق

معلقان بأحد أعمدة الإنارة بمثلان الرئيس وعلى رابطة عنقه نجمة داود وكمية كبيرة من النقود تخرج من جيوبه.. وقد بدا أن غضب الجماهير ينصب على حسنى مبارك .. «من فضلك ارحل»، عبارة على لافتة من القماش بالخط العريض تثبتها سيدة شابة بالدور السادس بأحد البنايات، وأخرى فى الميدان تعبر عن ذات المعنى بتعبير موجز وبخط أكبر: «ارحـل».. وفى ميدان بالمعادى قام أحد المعلمين بالمدرسة الفرنسية برفع لافتة بالفرنسية تُذَكِرُ بنوبات الغضب ضد نيكولا ساركوزى «ارحل أيها المغفل المسكين».. هذا التجاوز أدى إلى استدعائه لـفرنسا بشكل مؤقت، ولا يعرف أحد إذا ما كان المتظاهرون قد قدروا مثل هذا الدعم أم لا .. وهنا يذكر جيمى مكروم - باحث فرنسى من أصل جزائرى - شهادة مثيرة، فقد استرعى انتباهه هتافاً كان يتكرر فى ميدان التحرير: «احنا مين؟! احنا مين؟! احنا كل المصريين» فحركة الاحتجاج هذه ملك للشعب، وللشعب فقط، وهنا يؤكد مكروم أنه «منذ يوم ٢٩ يناير لم يعد الأجانب يلقون أى ترحيب فى ميادين الثورة، فبينما كنت التقط بعض الصور لمنطقة وسط البلد غداة المرحلة الحاسمة التى فرت فيها الشرطة أمام المتظاهرين والحريق الذى قد اندلع فى مبنى الحزب الوطنى الديمقراطى (الحزب الحاكم) وفوجئت ببعض المصريين يطالبوننى بالتوقف، وحاولت أن أفهم، كان هناك مئات الأشخاص يطوفون حول الحطام كما لو كانوا فى الحج، ويلتقطون صوراً لكل شيء، ويقفون للتصوير أمام دبابات الجيش، وهنا قيل لى أننى لست مصرياً، فذكرت لهم أصولى الجزائرية والعربية إلا أن هذا لم يغير من الأمر شيء»، كما طُلب برفق من أحد الأمريكيين الذى كان يقوم بوضع ملصقات مناهضة لمبارك على الجدران أن يعود إلى منزله بينما أصاب الذهول بعض المصريين الآخرين حيال ما كان يقوم به».

وعلى أية حال فإن المتظاهرين قد وفقوا أوضاعهم من أجل شاشات التليفزيون الأجنبية، فقد كان فى ميدان التحرير لافتات باللغات الإنجليزية والأسبانية وحتى العبرية، وقد كتب على إحداها «Game over» (انتهت اللعبة) ولافتة أخرى تستعيد شعار حملة أوباما الرئاسية «نعم نحن أيضاً نستطيع»، كما قام

أحد الشباب برفع كف يده أمام الكاميرات وقد كتب عليه «go» (أى ارحل)، شاب آخر كتب «Egypt» على جبهته قام بتوزيع ملصق به عدة صور لا تحتاج أى تعليق، فعلى الملصق صور آخر خمسة رؤساء للولايات المتحدة مع تاريخ انتخاب كل منهم وعلى الجانب الآخر كان هناك دائماً نفس الرئيس! .. كان الجميع يرغب فى تخليد «المسيرة المليونية» وكان عدد المصورين الهواة الذين يحملون هواتفهم المحمولة لا يحصى. وكان النقاش الدائر فى ميدان التحرير محتدماً فى بعض الأحيان حول نهاية الأحداث: هل البرادعى هو رجل الساعة؟ .. وقد كُتب على إحدى اللافتات «مصر لم تعد بحاجة إلى فرعون».

فى زيارة للميدان جاء ابن رئيس آخر كان يجتذب الجماهير حوله فى الخمسينات والستينات «خالد عبد الناصر»(*)، كان البعض يرفعون صوراً لأبيه، كما لو كانت إشارة لغياب الزعماء لا أكثر، فلا أحد يطالب ببعث الناصرية.

ومن فوق أكتاف والدها كانت هناك طفلة صغيرة ترفع علم مصر وتهتف: «الجيش والشعب أيد واحدة»، وكان رجال الجيش يتبادلون النظرات والابتسامات والأحاديث والسجائر مع المتظاهرين الذين غالباً ما يقاربونهم فى السن، وهو ما جعل رؤسائهم يقومون دائماً باستبدالهم بآخرين خشية حدوث تقارب وتسامح زائدين . كان الأمر أقرب إلى العيد عند الأطفال بوجوههم الملونة بألوان علم مصر: أحمر وأبيض وأسود، وفى المساء تقوم فرقة موسيقية شهيرة «اسكندريلا» بتقديم عرض غنائى وستلعب أيضاً مباراة كرة قدم كما البارحة، هذه المرة الشعب ضد الجيش، (الفائز سيحصل على دبابة!) وقد فاز الشعب بينما احتفظ الجيش بالدبابة!.

(*) كان خالد عبد الناصر مريضاً مرض الموت ومن ذهب الى ميدان التحرير هو عبد الحكيم عبد الناصر. (المترجمة)

علا صوت رجل بالهتاف «الله أكبر» بينما بدأ صوت النشيد الوطنى - الذى ينشده من يحاورونه فى الميدان - يغطى جزئياً على صوته، لم يأت أحد هنا باسم الدين، حتى لو كانت هناك صفوف كاملة من الرجال ستسجد فوق سجاجيد الصلاة، وقد عقب على هذا الأمر بسخرية، رجل ذو لحية ترافقه زوجته المنقبة: «نحن جميعاً مصريون، أتعتقدون أنى ولدت بلحية؟!، عندما يرحل مبارك سيكون بوسعى شراء ماكينة حلاقة!»[1].. كان طارق عباسى مستلقياً على الأرض وهو يهتف: «الموت أو الحرية .. إننى على استعداد للبقاء هنا عشر، وعشرون بل وثلاثون عاماً، الموت لا يعنى بالنسبة لى شيء، فأنا بالفعل ميت منذ ثلاثين عاماً منذ أن وصل مبارك إلى الحكم!»[2].. بينما هتف بعض المعتصمين بشكل أبسط وبابتسامة: «هو يمشى .. مش هنمشى».. ظلت السخرية طابعاً وطنياً حتى للتعبير عن الغضب.. امشى بقى ايدى وجعتنى!» مكتوب على إحدى اللافتات التى يحملها أحد المتظاهرين، وشهد الميدان لافتات مختلفة: «امشى بقى أنا مستعجل .. مراتى هتولد!»، «امشى .. عاوز أحلق»، أما آخر النكت المروية: «طبيب مبارك يقول له وهو على فراش الموت: حسنى، أكتب خطاب وداع لشعبك، فيجيب مبارك بدهشة: لشعبي؟!! ليه هو الشعب سيرحل؟!» .. لا يقوى الجميع على الضحك فالمواطن عزام عبد اللطيف وزوجته يعرضان صورة ابنهما «الطفل» (٢٨ عام) وتقرير التشريح، «قتل يوم الجمعة فى إصابة بينما كان يحاول إنقاذ طفل صغير، أطلق الضابط رصاصتين على صدر ابنى فمات فى الحال وهو الابن الوحيد ولو كان عندى ابن تانى لطلبت منه الانضمام إليكم»[3].

عدد كبير من الناس عاد إلى منزله عن طريق كوبرى قصر النيل الذى غطته

---

(١) أهداف سويف - الجارديان - ٢ فبراير ٢٠١١.

(٢) فاتيما الباشا - وكالة انباء الشرق الأوسط ١ فبراير ٢٠١١.

(٣) بيتر بومان وجاك شنكر - الجارديان - ٢فبراير ٢٠١١.

الأعلام، وكان الجميع يرددون أغانى أم كلثوم وعبد الحليم حافظ على إيقاع الطبلة ..... ترى كم كان عدد المتظاهرين فى القاهرة فى هذا اليوم الثلاثاء ١ فبراير «يوم المسيرة المليونية» .. ليس من عادة مصر أن تحشد هذا العدد الكبير من المتظاهرين، وبنظرة سريعة يمكن أن نقول أنه كان هناك نحو مليون متظاهر.

الموت على أرض مصر

كانت هناك تجمعات حاشدة فى بعض مدن مصر الأخرى، من بينها الإسكندرية (العاصمة الثانية) والسويس أحد أهم معاقل حركة الاحتجاج كما كانت هناك تجمعات أخرى فى الإسماعيلية والمنصورة والمحلة الكبرى.

فى الإسكندرية حيث سبق للإسلاميين إظهار قوتهم، اجتمع المعارضون أمام مسجد القائد إبراهيم فى وسط المدينة قبل أن يسيروا فى اتجاه البحر. كان الموكب يمتد على مسافة ٥ كم ترتفع من خلاله الأعلام مرفرفة فى الهواء. كان الهتاف هو «لا أحزاب ولا جماعات، هذه ثورة شباب» أو «الشعب يريد إسقاط الرئيس». كانت بعض اللافتات تحمل شعاراً شديد اللهجة «ارحل أيها القذر لتلحق بـ زين العابدين» وعلى جانب آخر كان بعض الشباب يحمل نعشاً ويهتفون «مات مبارك دون أن يحصل على رحمة ربه».

فى نهاية بعد الظهر سرت شائعة بامتداد الموكب محدثة عاصفة من الفرحة «لقد تنحى .. لقد غادر البلاد»، قام البعض بالسجود شكراً لله، وكان على البعض أن ينبههم بالتربيت على أكتافهم، نعم فالريس لا يزال موجوداً وهو أمر ستبدده كل الشكوك فى العاشرة مساءً عندما يظهر على التلفزيون المصرى ملقياً خطابه الثانى منذ بداية الأحداث والذى كان خطاباً عاطفياً ومحكماً.

ذكر حسنى مبارك أن «مصر تجتاز محنة حقيقية»، وقال أن الشباب من حقه أن يعبر عن نفسه، ولكن تطلعاته «تم استغلالها من قبل أولئك الذين يرغبون فى نشر الفوضى واللجوء إلى العنف والإضرار بالشرعية الدستورية». وأضاف أن «هناك

قوى سياسية تزيد من اشتعال الموقف من خلال اللجوء إلى التصعيد والمواجهة والعنف وأعمال السلب والنهب». وطلب الرئيس من نواب البرلمان تعديل المادتين ٧٦، ٧٧ من الدستور (بمعنى أدق الحد من القيود المفروضة على شروط الترشيح للرئاسة وتحديد مدة الحكم) وعلى مجلس الشعب أن ينفذ دون إبطاء الأحكام القضائية الصادرة بخصوص الانتخابات البرلمانية الأخيرة. أما السلطات القضائية فهى مطالبة «بملاحقة الفاسدين» والتحقيق فى أسباب حالة عدم الأمن التى تشهدها البلاد.

كما أعلن مبارك أنه لن يترشح لفترة قادمة فى شهر سبتمبر: «... أقول بكل أمانة ودون أى اعتبار للوضع الحالى، أننى لم أكن أنوى الترشح لفترة رئاسية جديدة، لقد أمضيت فترة طويلة من حياتى فى خدمة مصر وشعبها». ولكنه استبعد فى نفس الوقت فكرة التنحى: «إننى عازم تماماً على أن أنهى واجبى تجاه بنى وطنى ... من خلال الحفاظ على الشرعية واحترام الدستور». كما أكد أن «مسئوليته الأولى هى إعادة الأمن والاستقرار إلى البلاد لضمان انتقال سلمى للسلطة». أما عن مغادرة مصر فهو أمر لا يمكن له تصوره: «لقد عشت فى هذا البلد وحاربت من أجله وسيحكم التاريخ علىّ. إن مصر هى وطنى الذى سوف أموت على أرضه».

ولم يتنظر المتظاهرون المتواجدون بالتحرير نهاية الخطاب وسارعوا بالتعبير عن خيبة أملهم وغضبهم. فسرعان ما صاح واحد ممن يتزعمون المظاهرات فى الميدان بمكبر صوت قائلاً: «إذا كان الرئيس عنيداً فنحن أشد منه عنداً ولن نغادر الميدان». وفى الليل توجه إليهم أحد الضباط قائلاً: «أننا لم نستخدم أسلحتنا على الرغم من أنه لدينا من الذخيرة ما يكفى للقضاء على كل الموجودين فى الميدان خلال خمسة عشرة دقيقة، ولكننى أؤكد لكم أننا لن نطلق رصاصة واحدة على جمع المتظاهرين ولا أريد أن أقتل أخوانى فألقى فى نار جهنم»، وقام المتظاهرون بتقبيله بعد أن نزل من فوق المنصة.

أمضى بعض المتظاهرين ليلتهم داخل مسجد عمر مكرم الذى يطل على الميدان، بينما نام آخرون داخل الخيام أو خارجها ملتفون داخل حقائب النوم، فليالى شهر يناير شديدة البرودة بالقاهرة.

١٥

عاش مبارك

ما أن انتهى خطاب حسنى مبارك حتى بدأت القناة الفضائية المصرية التابعة للدولة فى إذاعة أفلام تسجيلية قديمة تمجد فى «الريس» مذكرة بإنجازاته وكل ما قدمه للبلاد. وقد بدا أكثر شبابا يرتدى ثياباً غير رسمية ويتحدث مع المارة، كما قام العاملون فى الأرشيف بإعادة إذاعة حديث لزوجته تذكر فيه البدايات المتواضعة لهما فى بداية حياتهم الزوجية.

وهل يمكن أن يغفلوا ذكر المأساة التى حدثت فى مايو ٢٠٠٩ ؟ الموت الفجائى لـ محمد مبارك (١٢ عام) الابن الأكبر لـ علاء مبارك وهى المأساة التى أدمت قلب الرئيس إلى الحد الذى لم يتمكن معه من حضور الجنازة... وبعيدا عن حديث العواطف قامت «الفضائية المصرية» فى اليوم التالى بالكشف عن وثيقة لويكيليكس توضح أن المظاهرات الحالية كانت مقررة منذ عامين على الأقل وتم تنظيمها بالتعاون فيما بين إسرائيل والولايات المتحدة، أما قناة المحور فقد أذاعت شهادات لمصريين يؤكدون أنهم تلقوا تدريباً فى قطر حول كيفية زعزعة النظام، وعلى الشاشة ظهرت شابة تبدى ندمها وقد انفجرت فى البكاء طالبة الصفح من «والدنا حسنى مبارك»، ومع ذلك شعر كثير من المصريين بالتعاطف مع خطاب الريس فقد مس وتراً حساساً عندما تحدث عن رغبته فى الموت على أرض وطنه، وهو ما لاحظه سريعاً أحد متظاهرى التحرير لدى عودته إلى منزل أسرته بحى

المهندسين عند مروره بأحد حواجز «اللجان الشعبية» للدفاع عن الحى، وقد سئل إذا ما كان عائداً من التحرير؟، فيقول: «عندما أجبت بـ نعم هددنى رئيس المجموعة بكسر رأسى إذا ما عدت إلى ذلك»[1].

أما الصحفى الوفدى خليل العوامى فقد شعر سريعاً بالخطر القادم ويتذكر قائلاً: «كانت هناك سيدات يبكين بعد خطاب مبارك واعتقدت أن الأمر قد انتهى وأن لا أحد سيذهب للتظاهر» حتى داخل حركة ٦ ابريل كان المعارضون يتساءلون عما إذا كان من الأفضل تغيير الاستراتيجية؟[2].

يوم الأربعاء ٢ فبراير غداة الخطاب الرئاسى اجتمع آلاف المتظاهرين من أنصار مبارك فى ميدان مصطفى محمود بالمهندسين، من نفس المكان الذى انطلقت منه فى الجمعة السابقة حشود المتظاهرين المتوجهة إلى ميدان التحرير، هذا الحى المجهول بالنسبة للأجانب، تقطنه طبقة ميسورة الحال.. «أنا مصرية وأؤيد مبارك فقد منح البلاد سلاماً امتد لثلاثين عاماً.. المجرمون هم المتواجدون بميدان التحرير» هكذا كانت تصرخ «تفيدة وهيب» سيدة فى الستين من عمرها[3].. وكان المتواجدون يهتفون «مبارك أبونا هو اللى ربانا».

من الصعب أن نفرق بين المشاعر الحقيقية لهؤلاء الأشخاص، ورغبة السلطة فى تنظيم مظاهرات مضادة، وقد كان جيمى مكروم وهو باحث فرنسى من أصل جزائرى شاهداً على ذلك صباح هذا اليوم بالمهندسين، وقد وصف ما حدث قائلاً:

كانت الأيدى ترتفع بصور لمبارك وأعلام مصرية وصور فى أطر للأب الرئيس نزعت لتوها من بعض المكاتب الإدارية وارتفعت فى إيدى حشود محمومة كلافتات تمجد الريس. وعندما حاولت الاقتراب منهم لمعرفة المزيد حول دوافعهم

---

(١) «العودة بكبرياء» - الأهرام ويكلى - ١٧/ ٢٣فبراير ٢٠١١.

(٢) حديث مع خليل العوامى - القاهرة - ٢٧مارس ٢٠١١.

(٣) جيوم لافاليه - وكالة الأنباء الفرنسية - ٢فبراير ٢٠١١.

أحاطت بى مجموعة من الأفراد وأخذوا فى دفعى وفى الصياح بصوت مرتفع لكى يمنعوننى من سماع ما يقوله محدثينى، كانوا يهتفون: «مبارك، مبارك أبونا»، «نحن نحب مبارك»، «هذا كل ما هنالك!» .. «لماذا تطرح أسئلة؟»، «هل أنت أجنبى؟» «ألا تريد أن تحب رئيسنا؟» «هل هذا ما تريده؟».

كانت هناك عدائية ملحوظة، اتخذت مكاناً على هامش المظاهرة، كان البعض يعانق بعض رجال الشرطة - فى أول ظهور لهم منذ خمسة أيام - ثم تدافعت الجموع نحو اثنين من الصحفيين بقناة الجزيرة - المعروفة بمناهضة مبارك - اضطرا على أثرها إلى الفرار. (١)

ولكن على هامش هذه المظاهرة المنظمة نجح هذا الباحث وصحفى صديق له فى الحديث مع مهندس من حى المهندسين وسائق تاكسى من حى شبرا الشعبى وضابط بالجيش وقد أعرب الثلاثة كل على طريقته عن قلقه الحقيقى، معتقدين أن المعارضين قد تمادوا وأن البلاد توشك أن تغرق فى الفوضى.كما أعربوا عن غضبهم من عملية الإعدام المعنوى ذاكرين أنه قد بدأ فى إجراء إصلاحات ولابد من منحه الوقت لتنفيذها.

هذا السيناريو تكرر فى نفس اليوم فى السويس حيث تم تنظيم مظاهرات لتأييد مبارك فى مختلف أحياء المدينة من قبل أنصاره الذين ركبوا سيارات نقل صغيرة مزودة بميكروفونات. وبدأ التنديد بـ «البرادعى العميل الأمريكى». وقد نجح المبعوث الخاص لوكالة الأنباء الفرنسية فى جمع بعض الشهادات الهامة على هامش هذه المظاهرات(٢).

تقول نادية يوسف عبد الله، ٦٠ عاماً، وأم لستة أولاد: «لقد قرر عدم الترشح

(١) نص نشر عبر الإنترنت قبل نشره فى القاهرة من قبل مركز الدراسات والوثائق الإقتصادية والقانونية والإجتماعية (CEDEJ).

(٢) ميشيل مو توه، وكالة الأنباء الفرنسية، ٢ فبراير ٢٠١١.

فى الإنتخابات وهذا أمرٌ جيد، والآن عليهم أن يدعونه وشأنه حتى ينهى فترة رئاسته، كانت الحكومة السابقة تضم بعض اللصوص وقد رحلوا وهٰذا حسن وقد وعد مبارك بإجراء إصلاحات وأنا أصدقه».

أقوال مشابهه رددتها «بسمة حلمى ذكى» - أم فى الرابعة والعشرين من عمرها - تمسك بفتاة صغيرة فى يدها وطفل رضيع بين ذراعيها: «لقد وافق مبارك على الرحيل وهذا أمر طيب، لابد أن تتاح له الفرصة للحفاظ على ماء وجهه .. لا يجب أن يتم طرده، فليبقى حتى شهر سبتمبر وأنا أوافق على ذلك فنحن فى مصر لا نقتل قادتنا حتى لو ارتكبوا الأخطاء.. عندما حدث الانقلاب (يوليو ١٩٥٢) ضد الملك (فاروق) أقيمت له حفلة وداع رسمية ورحل ومعه كل مجوهرات زوجته».

وتؤكد منى سعيد - ٣٨ عاماً - هذا الكلام قائلة: «مبارك ليس صدام حسين ولا يجب عليه أن يشعر بالخجل».

لعل مدينة السويس تقدر بلا شك أكثر من غيرها ما ميز عقود السلام الثلاثة التى شهدها عهد مبارك فقد كانت دائماً محور كل الحروب ضد إسرائيل - ١٩٤٨، ١٩٦٧، ١٩٧٣ - ناهيك عن عمليات القتال التى أعقبت تأميم قناة السويس فى خريف ١٩٥٦.. فبعد ستة أيام من المواجهات والفوضى، عاد الهدوء إلى شوارع المدينة بفضل تواجد الجيش الذى قام بتوزيع طنين من الطماطم و٢٥ ألف رغيف خبز على مختلف أسواق المدينة بل إنه قام أيضاً بجمع القمامة. كان العقيد إسلام جعفر «رئيس الشؤون المعنوية للجيش الثالث مشاه» يجوب المدينة بسيارة دفع رفاعى قديمة مجهزة بميكروفون كان ينادى[1] من خلاله قائلاً: «التزموا الهدوء، لا تدمروا شيئاً، السويس هى مدينتنا».

وهنا على العكس من وسط القاهرة، يتم الالتزام بحظر التجوال ولكن الخوف من الفوضى والارتفاع المتزايد للأسعار يثير قلق المواطنين.

---

(١) بنجامين بارت، جريدة لومند،٤ فبراير ٢٠١١.

١٦

موقعة الجمل

فى صباح يوم الأربعاء ٢ فبراير، تجمع نحو ألف وخمسمائة متظاهر فى ميدان التحرير ضاربين عرض الحائط بالرسالة التى وجهت لهم عبر التلفزيون على لسان المتحدث الرسمى العسكرى مطالباً إياهم بالعودة إلى منازلهم. إن القوات المسلحة توجه إليكم نداء:

« ..... وصلت رسالتكم وتم الاستماع إلى مطالبكم ... لقد نزلتم إلى الشوارع لرفع مطالبكم وأنتم وحدكم القادرون على إتاحة العودة للحياة الطبيعية».

العودة للحياة الطبيعية أمر يهدد بالرجوع إلى ما قبل ٢٥ يناير وسداد ثمن باهظ يدفعه كل من واجه النظام وأهان رئيسه. وقد ظهر رد المتظاهرين على لافتتين كبيرتين علقتا بالميدان واحدة منهما باللغة الإنجليزية: «الشعب يريد إسقاط النظام». وأخرى بالعربية موجهه إلى شخص بعينه كتب عليها: «أرحل».

لم يقتصر الأمر على عدم العودة إلى المنزل بل قام المتظاهرون بتنظيم ما سوف يحدث فى الأيام التالية: «سوف ننزل إلى الشوارع اليوم وغداً ولكن يوم الجمعة سيكون يوم الحشد الأعظم»، هكذا صرحت رشا بدوى أحد أعضاء حركة ٦ إبريل. أما إيمان حسن، إحدى المقربات من محمد البرادعى، فقد أكدت: «سيكون

يوم الجمعة هو يوم الرحيل» (لمبارك). كما أوضح البرادعى نفسه فى حديث لقناة العربية الفضائية المنافسة للجزيرة أن المصريين «يريدون أن ينتهوا من هذا الأمر اليوم وإذا لم يكن فـ (الجمعة) على أقصى تقدير».

تم استخدام الإنترنت مرة أخرى بعد أن تمت إعادته بشكل جزئى بعد خمسة أيام من انقطاع الخدمة، وقد استفاد أنصار مبارك من هذا الأمر للدخول على صفحة كلنا خالد سعيد ونشر معلومات مغلوطة: «لقد تم إلغاء جمعة الرحيل».

كما أتاحت الشبكة أيضاً مناقشات حقيقية بين الفريقين. على الفيس بوك، دعت بعض المجموعات إلى حل توافقى، إحدى هذه المجموعات التى جمعت ١٨٠ ألف عضو اقترحت التفرغ «لإعادة البناء» بدلاً من التظاهر.

وكتبت نيفين مرسى[١]: «لدينا نائباً للرئيس وحصلنا على وعد بإصلاح دستورى، وأولئك المتسببون فى الاضطرابات التى وقعت فى الأيام الأخيرة ستتم ملاحقتهم من قبل العدالة، أرجوكم لا تدمروا مصر الغد».

صباح يوم الأربعاء توجه عدد كبير من الحافلات إلى الأحياء الواقعة على أطراف المدينة نحو منطقة وسط البلد. على أبواب هذه الحافلات وقف بعض الأفراد يحملون الأعلام ويهتفون: «نحن نحبك يا مبارك». وعند وصولهم إلى مداخل ميدان التحرير، بدأ أنصار مبارك فى الهتاف: «بالروح بالدم نفديك يا مبارك». وهو شعار كثيراً ما استخدمه منافسوه بمعنى عكسى. فما أن يشتعل الشارع العربى، حتى تفيض الروح والدم! ..عند نزولهم من الحافلات، أخذ أنصار مبارك يلوحون بلافتات كتب عليها «نعم لرئيس السلام والاستقرار» و «اللى يحب مصر مايخربش مصر».

يقول محمد حسين - ٣١ عاماً - موظف بالبريد: «إنه رمز بلدنا، عندما توجه

---

(١) نقلاً عن دينا زايد، رويترز، ٢ فبراير ٢٠١١.

إهانة إليه، أشعر إنها وجهت إلى»[1].

ثم أخذوا فى الاقتراب من دبابات الجيش وقاموا بلصق صوراً للرئيس. وسمعت هتافات: «نعم مبارك» و «أرحل يا برادعى». كانت هذه هى الثورة المضادة. وقد صاح أحد أنصار الرئيس فى وجه الموجودين فى ميدان التحرير قائلاً: «كم كان عددكم بالأمس، مليون، ٢ مليون، ٥ مليون، ١٠ مليون؟ .. ولكن أين باقى السبعين مليون من المصريين؟ إنهم مع مبارك». وسرعان ما تحولت هذه الملاسنات الشفهية إلى لكمات وركلات. حاول بعض جنود الجيش الفصل بين الفريقين ولكن التدافع كان شديداً للغاية ولم تصلهم على أيه حال أوامر بلعب دور الشرطة. بدأ بعد ذلك التراشق بالحجارة ثم بأسياخ الحديد والمطاوى. وفجأة ظهرت موكب نحو خمسين فرداً يمتطون الجياد والجمال مسلحون بعصى وسياط ظهروا من حيث لا يدرى أحد واخترقوا وسط الميدان لتفريق الحشود المعرضة لمبارك وساد الذعر. بدأ البعض فى الفرار وأصيب البعض الآخر فى وجهه. فتهاوت «ثورة الفيس بوك» فى أعماق العصور الوسطى السحيقة. وسارع ثوار الإنترنت السلميين وقد أصابهم الذعر بالبحث عن ملاذ. وفى مواجهة المعتدين، وقف بوجه خاص شباب الأحياء الشعبية والإخوان المسلمين ونجحوا فى إسقاط بعض راكبى الخيول وطرحوهم أرضاً وضربوهم حتى أدرجوا بالدماء، هكذا تحول ميدان التحرير إلى ساحة قتال، كما تحول «شباب الفيس بوك» إلى مقاتلين فقاموا بنزع بلاط الأرصفة وتكسيره ثم نقلة على لوحات من الكرتون أو أقمشة اللافتات . ولعبت الشابات أيضاً دوراً فى مساعدة المقاتلين، كانت بعضهن منقبات والبعض الآخر مثل «نهى طارق» - ٢٣ عاماً - عضو لجنة تنظيم ميدان التحرير، فقد «بكت لأكثر من نصف ساعة بعد أن رأت أحد النشطاء يلفظ أنفاسه أمامها» ثم انطلقت تحت سيل الحجارة فى اتجاه الحواجز التى كانت يتم

---

(١) بيتر بومون، جاك شنكر ومصطفى خليل، جريدة الجارديان، ٣ فبراير ٢٠١١.

تشـيـدها وهي تعرج من جراء إصابتها في قدمها[1]. وقد تركت أحد الأمهات أولادها في رعاية صديقة لها لكي تقوم بحمل الحجارة إلى «الجبهة». وسقط فجأة أحد الأولاد البالغ من العمر ١٠ سنوات بعد إصابته في رأسه وتم إجلائه وقد فقد الوعي[2].

عصر البلطجية

أظهر الإخوان المسلمون شجاعة وفعالية كما لو كانوا مدربين على حرب الشوارع، فهناك صف أول يواجه المعتدين ثم يبتعد عند الجوانب ليفسح الطريق لصف ثان وهكذا. وقد أخذ القتال بعداً آخر عندما بدأ المقاتلون من الجانبين وقد اعتلوا أسطح المباني في إلقاء أواني الزهور والحجارة وكافة المقذوفات الأخرى. وبدأ المقاتلون في صناعة خوذات مما تيسر: طاسات للطهي، صناديق من الكرتون.. تم تحطيم سقالات المباني لاستخدامها كحواجز، وقام بعض الرجال الذين يرتدون الملابس المدنية ويبدو عليهم تماماً بأنهم من الشرطة بإطلاق رصاص في الهواء وانفجرت زجاجات الملوتوف محدثة ألسنة حرائق.

كان أنصار مبارك يراقبون العديد من مداخل ميدان التحرير لمنع باقي المتظاهرين من مساعدة أصدقائهم أو لسحق الأشخاص الذين يحاولون الفرار من هذا الجحيم.

قام بعض متظاهري التحرير برفع بطاقة الهوية التي كانت يحملها أحد المعتدين في مواجهة الصحفيين والمصورين الموجودين بالميدان حيث يظهر في خانة المهنة: «شرطي».. أليس هذا دليلاً على أن السلطة هي من قامت بتنظيم هذه المجموعة الدموية. وإذا لم يكن الخيالة الذين اجتاحوا ميدان التحرير من الشرطة فلا يمكن

---

(١) جون فيليب رامي، جريدة لوموند، ١٢ فبراير ٢٠١١.

(٢) جييوم لافالية، وكالة الأنباء الفرنسية، ٢ فبراير ٢٠١١.

إلا أن يكونوا بلطجية (هؤلاء الأفراد سيئ السلوك الذين تستأجرهم السلطة للأعمال القذرة،هم يعملون فى الفترات الانتخابية حيث لا يكتفون فقط بنزع ملصقات المعارضين). ويعود أصل الكلمة إلى «بلطة». وكان الجنود الذين يحملون هذا السلاح فى العصر العثمانى مختصين بفتح الطريق أمام الفرق الحربية من خلال قطع الأشجار أو عمل فتحات فى حصون الأعداء. ثم أصبحت الكلمة فيما بعد تعنى مثيرى الشغب ثم أخيراً المجرمين. وهناك قانون يعاقب بشكل صريح أعمال البلطجة.

ماذا يفعل الجيش الموجود فى الميدان مزوداً برشاشات ومدافع؟ ..لا شيء! هو يراقب أو ينسحب داخل قوات الدبابات التى يصعد فوقها أشخاص لقذف الحجارة.

فقط فى المساء بدأ الجيش فى إطلاق مدافع فى الهواء لمنع المعتدين من الاقتراب من المتحف. ثم بدأت الدبابات الأصطفاف لعمل منطقة عازلة بين الجانبين. فى المساء، أعلنت وزارة الصحة عن المحصلة الأولى للمواجهات: ٥ قتلى بينهم أحد المجندين وأكثر من ثمانمائة جريح أصيب أغلبهم بقذف الحجارة. وقد أدان محمد البرادعى «هذا العمل الإجرامى الذى ارتكبه نظام إجرامى».

استمر القتال حتى ساعة متأخرة من الليل وألقيت زجاجات مولوتوف فى ساحة المتحف وسارع رجال الجيش لإطفائها. وفى الثالثة والنصف فجراً، بدأ معارضى مبارك الذين – وصلت إليهم تعزيزات - بدفع أعدائهم خلف هذا المبنى وتحت كوبرى ٦ أكتوبر.

من هم أولائك الخيالة الذين هووا بميدان التحرير إلى عصر سحيق؟!.. جاءوا من نزلة السمان – قرية تقع خلف الأهرامات – وفقاً لأقوال عاطف أبو العلا ابن أحد مُلاك هذه الإسطبلات[1] فإن هؤلاء يتكسبون من السياحة وعندما بدأوا

---

(١) رامى أوردون، جريدة لوموند، ٢٤ فبراير ٢٠١١.

يفقدون زبائنهم يوماً بعد يوم فقد قرر بعضهم من تلقاء نفسه «مهاجمة ميدان التحرير». فتوجه أكثر من مائة – من بين ستمائة – من الجياد والإبل الموجودين بمنطقة نزلة السمان باتجاه القاهرة. بعضهم للمشاركة فى مسيرات سلمية والبعض الآخر لمواجهة متظاهرى التحرير بقولهم: «إذا كنتم تريدون تنحى مبارك، فنحن نريد لقمة العيش».. ويضيف عاطف أبو العلا: «لقد توجهت إلى الميدان ومعى ثلاث جياد وأبنى وأحد العاملين لدى، كنا نحمل عصى وسيوف ولكننا لم نكن نريد الحرب. كنا نريد أن نتناقش معهم لكى يكفوا عن التظاهر، كنا نريد فقط إرهابهم ولكنهم لم يشعروا بأى خوف. لقد أخذت أعدادهم تتزايد فى مواجهتنا وقد تفاجأت تماماً بمدى إصرارهم».

سقط سبعة جرحى من بين الخيالة تم تحويلهم للعلاج فى مستشفيات عسكرية، قال[1] أحدهم «خالد أمين» – ٢٠ عاماً – والذى فقد جواده فى المعركة: «لقد كنت أقاتل من أجل لقمة العيش، والآن أصبح على أن أوفر لقمة عيشى ونفقات أدويتى».

لم يصدق المتظاهرون أن مهمة هؤلاء الخيالة لم تكن ممولة أو على الأقل حظيت بتشجيع قوى من قبل السلطة. وقد أطلقوا عليها من باب السخرية معركة الجمل فى إشارة إلى الموقعة الشهيرة بين على، الخليفة المتنازع فى امره ومعارضيه ومن بينهم السيدة عائشة زوجة الرسول التى كانت تمتطى جملاً.

قد كتب المفكر صفوت قابيل فى اليوم التالى: «إن موقعة الجمل قد أحدثت قطيعة نهائية وحاسمة فى ضمير المتظاهرين، بين الشعب والنظام، فقد أظهرت هذه اللحظة الوجه الحقيقى للنظام وهو البلطجة». ولكن النظام «لا يضم بين صفوفه فقط أشخاصاً وقحين وضيقى الأفق»، فقد أصاب بعض المسؤولين الحكوميين حالة من الذهول عند رؤيتهم الصور المؤسفة لما حدث فى ميدان

---

(١) مارتن فلاتشر، التايمز، ٨ فبراير ٢٠١١.

التحرير. فلم يكن من الممكن تعزيز موقف المتظاهرين بأفضل من ذلك ناهيك عن صورة مصر فى الخارج وما أصابها من ضرر شديد.

وجاءت ردود الأفعال العالمية شديدة الحزم. ففى الليلة السابقة لموقعة الجمل وبعد خطاب الرئيس، تحدث باراك أوباما بحسم شديد، قائلاً: «إن المرحلة الانتقالية السياسية لابد أن تكون عميقة وسلمية وأن تبدأ الآن» . وقد دعا الرئيس الأمريكى الجيش المصرى لمواصلة الجهود كى تمضى هذه المرحلة الانتقالية دون عنف. وتوجه بعد ذلك إلى «شعب مصر» وخاصة للشباب قائلاً: «لقد استمعنا إلى صوتكم، ولدى قناعة راسخة بأنكم ستحددون مصيركم بأنفسكم وتلتزمون بوعدكم لتحقيق مستقبل أفضل لأولادكم وأحفادكم». كما أضاف أن الولايات المتحدة على استعداد لتقديم كل مساعدة ضرورية للشعب المصرى.

بعد هذه الموقعة الدامية وما أعقبها من حرب شوارع، لم يخف باراك أوباما نفاذ صبره، فكرر عبر متحدثه الرسمى نداءه بإحداث تغيير فورى فى مصر. «الآن يعنى الآن» كما أوضح روبير جيتس المتحدث الرسمى للبيت الأبيض. ولكن ما المقصود بـ «تغيير»؟. لقد صرح المنافس الجمهورى السابق للرئيس الأمريكى، جون ماكين، بعد لقاء معه قائلاً: «لقد حان الوقت لكى يتنحى الرئيس مبارك». حتى لو لم تكن هذه الكلمات ملزمة إلا له فقد استوقفت الكثيرين، فدعت الحكومات الأوروبية بدورها إلى إجراء تغيرات سريعة حتى السلطنة العثمانية السابقة «تركيا» سمحت لنفسها بتوجيه نصائح إلى أحدى ولايتها السابقة.

وقد ندَّدت السلطات المصرية بهذه التدخلات غير المقبولة واتهمها السيد حسام ذكى، المتحدث الرسمى لوزارة الخارجية، بالرغبة فى «إشعال الموقف» مضيفاً: «إنه من المؤسف للغاية أن نرى بعض الدول الأجنبية مثل الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وحتى تركيا التى تبحث جميعاً عن دور لها فى كل الظروف، تدس أنفها فى أحداث مصر»، داعياً بلهجة خلت من الدبلوماسية هذه الحكومات إلى «الاهتمام بشؤونهم فقط».

وفى حديث للقناة الأمريكية ABCأكد حسنى مبارك أنه راغب فى التنحى ولكنه يخشى «أن تغرق البلاد فى الفوضى»، وهو ما كرره نائب الرئيس عمر سليمان فى التلفزيون الرسمى المصرى قائلاً: «إن الدعوة إلى رحيل (الريس) هى دعوة إلى الفوضى» منددا وفقاً لعبارة تقليدية بـ «بعض الأشخاص المشبوهين الذين يعملون لصالح جهات أجنبية».

١٧

ميدان الشهداء

طوال صبيحة يوم الخميس ٣ فبراير، كان ميدان التحرير يُضَمِّد جراحه ويُعيد وضع الحواجز. وجُهزت بعض المجانيق البدائية لقصف أكياس مملوءة بالحجارة على أي مُعتدين مُحتملين.

كان أنصار مبارك يتحكمون فى مداخل الميدان بفضل أكوام السيارات المحترقة وقِطَع الصاج وأعمدة الشوارع التى نُزعت. وتكونت من المعتصمين فرق استطلاع تبادر عند ظهور أقل بادرة خطر فى الطُّرُق بكل قواهم على الحواجز المعدنية. والجميع يحاولون أن يحموا رءوسهم بكل الوسائل المتاحة بعد الذى حدث بالأمس.

صنع أحد المتظاهرين خوذةً من بعض الزجاجات البلاستيكية ووضعها حول رأسه.

داخل جامع عمر مكرم، أُجريت الكثير من العمليات الجراحية منذ الليلة السابقة. كان الأطباء وطلبة الطب والممرضات، وجميعهم متطوعون، يجوبون المكان بشكل محموم. يقول الدكتور هشام إبراهيم (٤٩ عامًا): «لم أر فى حياتى

شيئًا مثل هذا، نحن فى حالة حرب»[1]. على بُعد أمتار عدةٌ من هذا المكان، فى وسط الأنقاض، كانت تقف سيدة شابة رائعة الجمال ذات شعر أسود طويل ترتدى بالطو أبيض قصيرا وقفازات جراحية تجرى اتصالات تليفونية وقد اكتست أساريرها بملامح الهدوء. كان الجرحى يعودون إلى الميدان والضمادات تغطى رءوسهم أو أذرعهم. «جميعنا جرحى ولكننا سنبقى، نحن على استعداد للموت هنا إذا لزم الأمر»، هذا ما أكده محمد عادل (٣٠ عامًا)[2]. أما محمود السلحدار، مهندس، (٢٥ عامًا)[3]، فيقول: «لن أعود إلى بيتى، هذا هو بيتى، سأظل هنا وسأموت هنا».

كانت أسماء محفوظ ـ وهى مُدَوِّنة مشهورة شاركت فى تأسيس حركة ٦ إبريل – فى ميدان التحرير منذ اليوم الأول. هذه الفتاة المحجبة القادمة من الحى الشعبى «عين شمس»، ترفض أن يُنظر إليها باعتبارها بطلة، وتقول: «الأبطال هم الشهداء الذين أصيبوا إصابات بالغة تحت نيران الشرطة أو البلطجية. لقد رأيت شابًا يهتف «تحيا مصر» حتى لفظ أنفاسه، وشخص آخر أكبر منه سنًا فقد إحدى عينيه، وظل يتقدم فى اتجاه عساكر الشرطة مُرَدِّدًا أنه سوف يُقدِّم عينه الأخرى فداءً لمصر، بينما كنت أجرى مذعورة أبحث عن مكان أختبئ فيه»[4].

فى ميدان التحرير، كان الناس وبدون سابق معرفة يأتون إلى أبطال الميدان ليعانقوهم ويلتقطوا معهم الصور؛ بل إن من بينهم من كان يُقَبِّل أيديهم. من بين هؤلاء الأبطال كان محمد سعيد (٢٩) عامًا، الذى بدا شاحبًا وقد أحاطت ضمادة برأسه وجبيرة من الجبس لاثنين من أصابع يده اليمنى، بينما صدره مُغطى بضمادة عريضة وهو يقص ما حدث قائلاً: «كانت الساعة الثالثة عندما وصل

---

(١) مارتن فلاتشر، جريدة التايمز، ٤ من فبراير ٢٠١١.

(٢) جوزيف بدوى، وكالة الأنباء الفرنسية، ٣ من فبراير ٢٠١١.

(٣) اندرو الجلد، فيننشال تايمز، ٤ من فبراير ٢٠١١.

(٤) بورتريه بقلم لمياء الساداتى، الأهرام ابدو بتاريخ ٩-١٥ من مارس ٢٠١١.

راكبو الجمال والخيَّالة إلى الميدان. حاولت أن أقوم بإسقاط بعضهم ولكن أحدهم نجح فى توجيه عدة طعنات إلى بسيفه، ولأننى كنت أنزف كثيرًا فقد ذهبت لتلقى العلاج، غير أن الرغبة فى الانتقام كانت تشتعل بداخلى، وعدت بعد أقل من ساعة إلى القتال. وهنا أصبت فى صدرى بطلقة مطاطية»[1]. وفى ميدان التحرير - الذى اقترح البعض إطلاق اسم ميدان الشهداء عليه - كانت معونات من الغذاء والمعدات تتدفق. وشوهدت سيدة غير معروفة تضع أربعمائة شطيرة وتغادر دون أن تترك اسمها. كان الأمر يتطلب القدرة على مغافلة أنصار مبارك الذين أحاطوا بجوانب الميدان وأخذوا يفتشون السيارات.

فى صبيحة يوم الخميس حدث تراشق جديد، ولكن الجيش تدخل فى هذه المرة وقام بعمل منطقة عازلة تفصل ما بين الجانبين بمسافة ٨٠ مترا تقريبًا. وقد قام اللواء حسن الروينى بتفقد المكان، وسرعان ما أحاط به معارضو مبارك وهم يهتفون «الجيش والشعب أيد واحدة». كان تواجد الإخوان المسلمين ملحوظًا للغاية، فقد كانوا هم الذين يتولون يوم الخميس هذا حماية مداخل الميدان وبشكل غاية فى التنظيم، حيث قاموا بوضع منضدة ومقاعد وكاميرا لتصوير استجواب المعتدين الذين قُبض عليهم الليلة السابقة، وتُحفظ عليهم داخل المحطات الأرضية لمترو الإنفاق قبل أن يُسلموا إلى الجيش. كانت صيحات «الله أكبر» التى يطلقونها بشكل منتظم فى مكبرات الصوت تتعاقب مع شعارات أقوى بكثير من الأيام الماضية، مثل «الشعب يريد إعدام السفاح». وفى محاولة للتخفيف من حدة التوتر كان عازف الجيتار رامى عصام يعزف - وقد أحاطت برأسه ضمادة - أغنية روك ساخرة تتناول الرئيس.

فى التحرير كان هناك أشخاص ذوو عزيمة صارمة يصرون أكثر من أى وقت

---

(١) سيرى لويس، جريدة لو فيجارو، ٧ من فبراير ٢٠١١.

مضى على عدم التراجع «هذه فرصتنا الأخيرة لتغيير مصيرنا»، هذا ما قالته ندى القصاص (٤٨ عامًا) صحفية تعرضت مرتين للسجن بسبب نشاطها السياسى[١].
وكان هناك أيضًا فى الميدان بعض المواطنين غير المسيسين الذين لم يدر بخلدهم أبدًا أن يتواجدوا هنا. تقول هنا محمد، سيدة قصيرة القامة، يحيط وجهها وشاح أحمر: «لقد اقتنعت بخطاب مبارك الأخير، وقلت فى نفسى إنه يمكننا على أى حال أن ننتظر ٦ أشهر حتى يرحل، فهذا ليس بالأمر الصعب بعد ثلاثين عامًا، ولكنه بإرساله بالأمس مصريين لمواجهة مصريين آخرين فقد اقترف أمرًا منكرًا، إن ما حدث يوم الأربعاء هو ما دفعنى للعودة لميدان التحرير وسوف أظل به»[٢].

(١) مارتن فلاتشر، التايمز، ٤ من فبراير ٢٠١١.
(٢) أدريان جون، الفيجارو، ٤ من فبراير ٢٠١١.

١٨

العصا والجزرة

«ثلاثة شهداء و١٥٠٠ جريح فى مذبحة بميدان التحرير» كان هذا هو عنوان جريدة الشروق اليومية المستقلة صباح يوم الخميس ٣ من فبراير. أما مانشيت جريدة الوفد فكان عبارة عن صيحة: «الحرب الأهلية». أما الصحافة الحكومية فلم يكن بها شيء من هذا على الإطلاق. فقد كان عنوان الأهرام الذى كان يلخص أحداث الليلة السابقة هو «ملايين من المصريين يتظاهرون تأييدًا لمبارك»،أما الأخبار فقد كشفت النقاب عن «مؤامرة مدبرة ضد مصر من قبل بعض الأطراف الأجنبية». ولكن عنوان جريدة الجمهورية كان يبعث على الاطمئنان «مصر ستتجاوز الفتنة».

التاريخ يعيد نفسه...

مع ذلك فقد كانت هناك نغمة جديدة تسمع لأول مرة من داخل الحكومة . ففى أثناء مؤتمر صحفى بُث عبر التلفزيون الرسمى، صرح رئيس الوزراء الجديد - فيما يتعلق بمواجهات ميدان التحرير - قائلاً: «أقدم شديد اعتذارى عما حدث بالأمس، وسيفتح تحقيق حول هذا الأمر».

لم يعتد المصريون على تلقى اعتذارات. إن الاعتراف بالمسئولية لا يعنى

الاعتراف بتنظيم موقعة التحرير. بعض الجهات فى الدولة قد أخذت مبادرات بعيدة عن رئيس الوزراء. الجيش نفسه لعب دورًا معقدًا، فقد اعترفت شركتان من مشغلى التليفون المحمول الفرنسية أورانج والبريطانية فودافون أن السلطات قد أجبرتهم يوم الخميس ٣ من فبراير على إرسال رسائل قصيرة إلى عملائهم فى مصر، وتؤكد فودافون أنها استجابت كى لا تتعرض للمنع أو تعرض موظفيها المحليين للخطر. فاضطرت على سبيل المثال لنشر الرسالة التالية: «تدعو القوات المسلحة مواطنى مصر المخلصين والشرفاء لمواجهة الخونة والمجرمين وحماية شعبنا وشرفنا ومصرنا الغالية». كانت هناك رسالة أخرى تحدد مكانا وموعدا لمظاهرة مؤيدة لمبارك.

فى سؤال أثناء المؤتمر الصحفى حول النقص فى أعداد قوات الأمن، قدم رئيس الحكومة تفسيرًا جزئيا مرجعيته مناخ عدم الأمن الذى يسود منذ بضعة أيام: «عندما بدأ الجيش فى النزول، انسحب عدد كبير من أفراد الأمن المركزى عائدين إلى قراهم. لقد غادروا ونحن لا نتمكن من إعادتهم».

كما صرح أحمد شفيق من ناحية أخرى بأنه سيُجرى تحقيق مع وزير الداخلية السابق حبيب العادلى، وأنه ممنوع من مغادرة مصر. كما جُمدت حساباته بناءً على أمر صادر من النائب العام. من الصعب أن نتخيل أن هذا قد حدث لذلك الرجل المخيف حبيب العادلى الذى كان على رأس مليون جاسوس يتحكمون منذ أيام قليلة فى مصائر الناس بالخير أو الشر. بل الأدهى من ذلك أنه قد قيل إن وزير الداخلية السابق سيُعتقل داخل مقر مباحث أمن الدولة بمدينة الشيخ زايد «غرب القاهرة» بل سيوجه إليه اتهام يوم ٧ من فبراير بالقتل العمد للمتظاهرين. وقد أشيع حينئذ من أحد المقربين من السلطة أنه قد أوقف بأمر من الرئيس مبارك، لأنه لم يمتثل لتوجيهاته، وقام بسحب الشرطة من الشارع[1]، بل إن النيابة العامة

(١) الشروق، ٨ من فبراير ٢٠١١.

قد قبلت شكوى تقدم بها محام قبطى متهمًا حبيب العادلى بتدبير حادثة القديسين بالإسكندرية[1].

اتُخِذت بعض الإجراءات المشابهة ضد وزير التجارة والصناعة السابق رشيد محمد رشيد، وكذلك ضد واحد من أكبر رموز النظام، أحد أقطاب صناعة الحديد، وهو أحمد عز أحد الأعضاء البارزين فى الحزب الوطنى الذى دفع الحزب الحاكم إلى إجراء حركة تزوير واسعة أثناء الانتخابات الأخيرة خاصة من خلال اللجوء لشراء الأصوات. هذا الشخص المقرب من جمال مبارك الابن الأصغر للرئيس كان يعتبر الموجه الخفى له، أو بالأحرى نفسه الأمرة بالسوء.

هذا الحديث مجددًا عن جمال «إنه لن يترشح لرئاسة الجمهورية» كما أكد عمر سليمان الذى اعتبر تعيينه فى منصب نائب الرئيس قبل عدة أيام بمنزلة نهاية لآمال التوريث لعائلة مبارك، كان هذا تأكيد رسمى. كما أن ولى العهد المفترض الذى لم يسمع عنه أى شيء منذ بداية الأحداث سيفقد بعد يومين من هذا التاريخ منصبه الكبير داخل الحزب الحاكم. فلقد أذاع التلفزيون المصرى يوم السبت ٥ من فبراير استقالة المكتب التنفيذى للحزب الوطنى المؤلف من ستة أعضاء، ويعد جمال مبارك ثانى أهم منصب بينهم. أما صفوت الشريف الأمين العام للحزب، أحد أباطرة النظام البارزين، فقد حل محله أستاذ الطب حسام بدراوى الذى يعد أحد أصحاب الفكر المتفتح، والذى انتقد تزوير الانتخابات فى شهر نوفمبر. كما فقد جمال مبارك أيضًا لجنة السياسات بالحزب الوطنى الديمقراطى. ولم يعد سوى مبارك الابن.

يد ممدودة للمعارضة

دعا نائب الرئيس عمر سليمان المعارضة للتفاوض. المعارضة بأكملها: «لقد

(١) الوفد، ٨ من فبراير ٢٠١١.

تواصلنا مع الإخوان المسلمين ولكنهم مترددون» الواقع أن الجماعة قد سبق لها أن قدمت ردها: «لقد أسقط الشعب النظام ولا نرى أية فائدة من التحاور مع نظام غير شرعي». كما رفض محمد البرادعي أيضًا هذه اليد الممدودة. الأمر نفسه بالنسبة لجماعات الشباب من النشطاء الذين أشعلوا الثورة: لا تفاوض قبل رحيل مبارك. لم يقبل ببدء الحوار سوى الوفد والناصريين وماركسيي حزب التجمع فقط.

يبرع حسني مبارك كثيرًا في سياسة العصا والجزرة. هكذا استطاع «السيطرة» على الإسلاميين منذ وصوله إلى السلطة، بل إن الأمر يمكن أن يصل إلى أبعد من ذلك. فإنه لم يتردد في ديسمبر عام ١٩٩٢ من «تطهير» حي إمبابة الشعبي الذي خرجت منه الدعوة لـ «جمهورية إسلامية». وهي العملية الواسعة التي حشد لها ١٤ ألف رجل شرطة وجيش، ثم أعقبها إعادة السيطرة الاجتماعية على المنطقة.

ظلت سياسة العصا والجزرة هي وسيلة السلطة حتى في أيام التمرد هذه. ففي فجر يوم الجمعة ٤ من فبراير، اقتحمت قوات الشرطة مقر موقع الإنترنت للإخوان المسلمين «إخوان أون لاين» وقامت بمصادرة بعض المعدات وإلقاء القبض على بعض الأشخاص الموجودين. وفي مساء الليلة السابقة ألقي القبض على سبعة من الشباب من زعماء حركة المعارضة في أحد مقاهي الجيزة، بعد أن خرجوا من لقاء مع محمد البرادعي في منزله القريب من المقهى. من بينهم عمرو صلاح (٢٥ عامًا) باحث بمعهد القاهرة لحقوق الإنسان وعضو حزب الجبهة الديمقراطي[1]. لم يكن هذا هو الاعتقال الأول بالنسبة له، فهو يحتفظ بذكريات سيئة عما تعرض له من ركلات ولكمات أثناء «اختطافه» لمدة ثلاثة أيام في عام ٢٠٠٨ بواسطة أمن الدولة. وهو يروي لصحفية فرنسية[2] هذه الحادثة الجديدة.

---

(١) أنشأه أسامة الغزالي حرب في ٢٠٠٧.

(٢) أنياس روديفيل، لا كروا، ٨ من فبراير ٢٠١١.

«كانت الساعة نحو الثامنة والنصف، فى هذه اللحظة دخل إلى المقهى مجموعة من ضباط الشرطة تابعين إلى وزارة الداخلية، وأمرونا بأن نقف، وأن نرفع أيدينا فى الهواء. فى الشارع اقترب منا بعض سكان الحى، فقال لهم ضباط الشرطة إننا «جواسيس» وإننا نحتفظ بأسلحة فى سياراتنا . فبدأ الناس فى التعدى علينا بالسباب، بل إن بعضهم وجَّه إلينا بعض اللكمات. وكانت الشرطة التى قامت بتفتيش سياراتنا قد وجدت بداخلها منشورات سياسية لحزب الجبهة الديموقراطى وبعض الملصقات التى قاموا بإظهارها للمحيطين بنا» . وقد اصطحبونا إلى نقطة شرطة كان يوجد بها أفراد من أمن الدولة وبعض رجال من الجيش. «توجهنا بالحديث إلى أحدهم لا أستطيع أن أعرف رتبته، وتوسلنا إليهم ألا يتركونا بين أيدى أمن الدولة، فقد كنا نعرف أنهم سوف يقومون بتعذيبنا أو بقتلنا. طرح علينا هذا الرجل العسكرى بعض الأسئلة وشرحنا لهم كل ما حدث». اقتيدوا بعد أن كُبلت أيديهم وغطت أعينهم إلى أحد مبانى جهاز المخابرات العسكرية.

فى اليوم التالى جرى حديث ودى مع أحد الضباط: «سألنا عن تحليلنا للموقف السياسى للبلاد وما هو الحل الذى نقترحه للخروج من الأزمة». يوم السبت أُطلق سراحهم بعد نحو ثمانية وأربعين ساعة من اعتقالهم.

ولكن فى المقابل لم تكن هناك أى أخبار عن وائل غنيم مدير تسويق جوجل لمنطقة الشرق الأوسط وإفريقيا الذى اختفى منذ يوم ٢٨ من يناير.

١٩

مطاردة الصحفيين

كانت الجزيرة تقوم بتغطية مستمرة للمظاهرات،ولكن فجأة فى صباح يوم الأحد ٣٠ من يناير، توجه رجال شرطة يرتدون الملابس المدنية إلى غرف ستة من صحفى الجزيرة بأحد الفنادق الواقعة على أطراف ميدان التحرير، واصطحبوهم لاستجوابهم ثم أفرج عنهم بعد مصادرة بطاقاتهم الصحفية ومعداتهم.

تعد قناة الجزيرة منذ إنشائها عام ١٩٩٦ فى إمارة قطر كابوسًا يجثم على أنفاس الحكومات العربية وقد أحدثت هذه القناة والتى تتمتع بموارد هائلة ثورة فى مجال الإعلام المرئى والمسموع فى المنطقة، فقد أصبحت منبرًا دائمًا للمعارضين من كل الجنسيات. فعندما تقع أحداثًا دامية كتلك التى تموج بها مصر، فإن قناة الجزيرة لا تتردد فى عرض الكثير من الصور شديدة القسوة. وهو ما شاهدناه لمرات لا تحصى على الشاشة منذ يوم الثامن والعشرين من يناير، كمشهد سيارة الشرطة التى تتقدم وتتراجع بشكل هيستيرى داهسة المتظاهرين وحاصدة أرواح العديد منهم . هذا التجسيد للمأساة من خلال تكرار الصور أصبح - إذا ما استطعنا القول - إحدى السمات الخاصة بقناة الجزيرة.

ويأخذ الكثيرون على هذه القناة أنها دائمًا ما تصب الزيت فوق النار. فعندما اندلعت الأحداث فى مصر، اهتمت قناة الجزيرة بكشف النقاب عن بعض الوثائق التى تعود إلى عام ٢٠٠٨. تتعلق بالتنازلات التى كان مفاوضو السلطة الفلسطينية

على استعداد لتقديمها لإسرائيل فيما يتعلق بوضع القدس وعودة اللاجئين. وقد استشاط خلفاء ياسر عرفات غضبًا من ذلك فدفعوا لتنظيم مظاهرة فى رام الله مناهضة لقناة الجزيرة، أحرق خلالها العلم القطرى.

كما اتهمت القناة بشكل عام بالانحياز للإسلاميين الأصوليين، أليست هى القناة التى يختصها أسامة بن لادن زعيم القاعدة عادة ببث رسائله؟ وهى من أذاعت فى يوم السبت - فى الليلة التى سبقت منع بث القناة - نداءً من الشيخ يوسف القرضاوى - وهو رجل دين من أصل مصرى مقيم فى قطر ومرتبط بفكر جماعة الإخوان المسلمين - يطالب من خلاله برحيل الرئيس مبارك.

هكذا أوقف القمر الصناعى نايل سات التابع للحكومة بث قناة الجزيرة. إلا أنه بعد بضع ساعات أمكن استقبال القناة من جديد بفضل أقمار جديدة.

لم تكن تغطية المعركة الدائرة فى ميدان التحرير بالأمر الهين بالنسبة لوسائل الإعلام العربية، حتى إن أحد الفنيين بقناة راديو كندا كاد يفقد حياته، فقد كان يخفى كاميرا صغيرة ولاحظه أحد الأشخاص فوجه إليه لكمة فى وجهه، ثم حدث بين الجموع نوع من «الهيستريا الجماعية»، هنا يروى المحرر جون فرانسو لابين الحدث قائلاً: «كان الأمر مخيفًا لا يمكن السيطرة عليه. تدافع عشرات الأشخاص لمهاجمة الرجل الكندى، ولولا تدخل بعض رجال الجيش لاستمر الضرب المبرح للفريق بأكمله حتى الموت». ولم يستطع أحد أن يحدد إلى أى جانب كان ينتمى المعتدون.

كان الثوار المناهضون لمبارك - وقد ازدادت عصبيتهم - يتشككون لدى رؤية أى غريب. «من أنتم؟ هل يمكن أن أطلع على أوراقكم؟» هذه هى نوعية الأسئلة التى وجهت لأحد محررى وكالة الأنباء الفرنسية فى ميدان عبد المنعم رياض الذى كان مسرحا لقتال دام. «ليس للصحفيين مكان هنا، فأنتم تكشفون معلومات استراتيجية من خلال الكشف عن عدد المعارضين المعتصمين فى الميدان»[1].

---

(١) جيوم لافالية، وكالة أنباء الشرق الأوسط، ٣ فبراير ٢٠١١.

لم تذهب الأمور أبعد من ذلك ولكن كثيرًا ما تعرض بعض الصحفيين للاعتداء من قبل أنصار مبارك أو رجال شرطة فى زى مدنى.

كان هناك فى قلب العاصمة مطاردة منظمة لوسائل الإعلام، بل إن بعض أنصار الرئيس ظهروا فى فنادق عديدة وهم يبحثون عن الصحفيين. أما مراسل قناة TV2 الدنماركية ستيفن جانسون فقد تعرض للاعتداء فى وسط الطريق، عندما أحاط به بعض من أنصار النظام الذين أرادوا انتزاع هاتفه المحمول وكاميراته وجواز سفره. وعندما لم ينجحوا أوسعوه ضربًا بركلات الأقدام وضربات العصى. أما زميله برت ساندستروم من قناة تلفزيون السويد الرسمية SVT، فقد كان أسوء حظًا حيث نقل إلى المستشفى وأجريت له عملية جراحية بعد أن أصيب إصابة بالغة جراء طعنات سكين.

أما سيرج دايمون - وهو مراسل صحفى بلجيكى الجنسية كان يغطى المظاهرات لكل من قناة Le soir فى بروكسل وقناة Le Temps فى جنيف وقناة La Voix du Nord فى ليل - فقد عاش ٤٨ ساعة عصيبة. كان قد توجه يوم الأربعاء ٣ من فبراير إلى حى شبرا الشعبى برفقة زميلة من راديو سويسرا، عندما هاجمهما مجهولون، استطاعت الصحفية أن تفر مسرعة فى سيارة أجرة بينما وجد سيرج دايمون نفسه بين يدى شرطى يرافقه اثنان من الجيش فى زى مدنى. سألوه إذا كانت بلجيكا تؤيد البرادعى. ثم بدأ الشرطى يهتف ويردد وراءه بعض الجموع: «البرادعى No، مبارك Si» ثم اصطُحِب سيرج دايمون إلى إحدى ثكنات المخابرات العامة حيث استجوب وهو جاثيًا على ركبتيه فى إحدى الردهات معصوب العينين ويداه مقيدتان وراء ظهره. ثم ألقى به فى زنزانة ضيقة، ثم فى اليوم التالى فى حافلة تجمع زملاء آخرون له من بينهم ثلاثة صحفيين لقناة فرانس ٢٤ قبل أن يطلق سراحهم[1].

---

(١) واقعة مذكورة فى جريدة le Temps ٥ فبراير ٢٠١١.

أما الصحفى البريطانى جاك شنكر من جريدة الجارديان فشبة اختطف من أحد شوارع القاهرة قبل أن يتعرض للضرب والسباب فى أحد مقار أمن الدولة. وقد انتهت محنته بأن وجد نفسه فى حافلة تقل بعض المعارضين المصريين الذين غطت الدماء وجوههم[1]. وقد قررت شبكتا تلفزيون بولنديتان هما قناة TVP وTVN ترحيل مجموعة العاملين بها. ومن جانبه كتب أندرسون كوبر الصحفى الشهير بقناة CNN على تويتر «لقد قررت أن أغادر وقلبى مفعم بالألم، فقد تعرض فريقى للحصار والضرب من قبل أنصار مبارك، أثناء إحدى المظاهرات مما اضطرهم هربًا من الحشود إلى الاختباء فوق أسطح إحدى البنايات».

وقد أكد قادة الدول الخمس الكبرى فى الاتحاد الأوربى «فرنسا، وألمانيا، وإنجلترا، وإيطاليا وإسبانيا» فى بيان مشترك صدر فى الثالث من فبراير أن هذه الاعتداءات «غير مقبولة بالمرة». أما الأمين العام للأمم المتحدة بان كى مون فقد أضاف وصفًا ما يحدث: «إنه لأمر مخز وغير مقبول بالمرة». أما جى بى كراولى المتحدث الرسمى لوزارة الخارجية الأمريكية فقد أدان المتهمين بشكل غير صريح قائلاً: «إنها حملة تخويف منظمة ضد الصحفيين الأجانب فى القاهرة وتدخل صريح فى عملهم». ووفقًا لمراسلين بلا حدود فإنه فى مصر فى الفترة ما بين ٢٥ من يناير و٥ من فبراير[2]، تعرض ٦٠ صحفيًا للاعتداء و٥٧ للاعتقال أو الاختطاف و١٧ صودرت معداتهم أو دمرت. وكان الأمريكيون والفرنسيون هم الأكثر استهدافًا، أما بالنسبة لوسائل الإعلام فقد تعرضت قناة الجزيرة لأشد ألوان المضايقات من خلال حظر البث والاعتقالات المتكررة للعاملين بها. وفى الرابع

---

(١) واقعة سردت فى جريدة الجارديان بتاريخ ٥ فبراير ٢٠١١

(٢) فى الحادى عشر من فبراير بينما كانت لارا لوجين بصحيفة CBS تجرى فى ميدان التحرير ريبورتاجًا لمجلة ستون دقيقة تعرضت لاعتداء جسدى وجنسى قبل أن تتمكن مجموعة من السيدات ومن رجال الجيش المصريين من إنقاذها.

من فبراير أعلنت المحطة القطرية أن مكاتبها بالقاهرة قد تعرضت للتخريب والحرق من قبل مجموعة من «البلطجية» كما توفى الصحفى المصرى أحمد محمد محمود ٣٦ عامًا الذى كان يعمل فى جريدة الأهرام الحكومية بعد أربعة أيام قضاها فى الغيبوبة إثر إصابته بطلقات نارية أثناء إحدى المظاهرات. وفى يوم ٥ من فبراير نظمت جنازة رمزية له فى ميدان التحرير.

فى منزل بيار سيوفى

استطاع بعض العاملين فى محطات التلفزيون أن يجدوا فى منزل بيار سيوفى الذى يسكن أعلى بناية تطل على الميدان ملاذًا وموقعًا رائعًا للمراقبة، والجميع فى هذا الحى يعرفون هذا الرجل الملتحى قوى البنية البالغ من العمر ٤٩ عامًا الذى قام بعدة أدوار فى بعض الأفلام من بينها فيلم عادل إمام (المنسي) (١٩٩٣). وقد ورث بيار سيوفى عن جده بناية من تسعة طوابق فى مدخل ميدان طلعت حرب. وهو الساكن الوحيد فى هذه البناية بينما الشقق الأخرى تحتلها مكاتب. ويقول بابتسامة صغيرة مشعلاً سيجارته «إذا كنت ثوريًا فذلك لأننى قد نظمت هنا فى عام ٢٠٠٠ معرضًا لرسوماتى وبعض المنتجات الأخرى المتنوعة التى كانت تشغل الطوابق التسعة»[١].

يبدو بيار سيوفى وهو يعيش محاطًا بتلال من الكتب والجرائد والصناديق كأحد رجال الغابات، إلا أنه استطاع أن يتواصل بشكل دائم مع العالم الخارجى بفضل جهاز الكمبيوتر الخاص به المفتوح طيلة اليوم وشرفة منزله التى كان يستطيع منها فى الماضى أن يرى الأهرامات قبل إنشاء فندق سميراميس.

منذ الخامس والعشرين من يناير قام هذا الرجل متعدد اللغات خريج مدرسة الجيزويت - وعلى حد تعبيره فإنه كان مثالاً للتلميذ السيء بالمدرسة - ثم درس

---

(١) حوار مع بيار سيوفى، القاهرة ٢٧ مارس ٢٠١١.

بالجامعة الأمريكية، قام بفتح أبواب منزله أمام المتظاهرين الباحثين عن مكان للنوم. كان العشرات من الأشخاص يبيتون داخل متاهات هذه الغرف التى تحوى القليل من الأثاث. كان يمكن أثناء النهار أن نلتقى بأشخاص مختلفين مثل والدة خالد سعيد المدون الذى لقى مصرعه ضربًا على أيدى شرطيين. أو بعض أبناء الفيس بوك كما يطلق هو عليهم ليتنقلون بين غرف هذه المتاهة. أما العاملون فى محطات التلفزيون فهم فى منزلهم. وكان بيار سيوفى بوصفه مدافعًا عن حرية الصحافة ولكونه يمارس هذه المهنة نوعًا ما عبر مدونته، يستقبل قناة الجزيرة بشكل خاص دون أن يتحرج من نقد القناة القطرية التى أحيانًا ما تذيع «بثاً مباشراً» بعد نحو اثنتى عشرة ساعة من وقوع الحدث... إلا أنه لم يتعرض لأية ملاحقة من السلطات وهو يقول: «لم تصل الشرطة أبدًا إلى هنا، أما الجيش فقد غض الطرف عنى».

٢٠

جمعة الرحيل

أعلن المتظاهرون أن يوم الجمعة ٤ من فبراير، الحادى عشر من بدء المظاهرات، سيكون «جمعة الرحيل». رحيل مبارك بالطبع.

فى صبيحة هذا اليوم توافد الآلاف من سكان القاهرة إلى ميدان التحرير وأقيمت مداخل تفتيش كالعادة عند المنافذ المختلفة. وبدا أن أنصار النظام غير موجودين. ولكن كان هناك تجمع لأنصار مبارك فى ميدان مصطفى محمود الواقع بحى المهندسين، حى البرجوازية الصغيرة.

قام «شباب ثوار مصر» بتعليق لافتة ضخمة فوق واجهة إحدى البنايات فى الميدان سجلوا بها اثنى عشر مطلبًا: «تنحى الرئيس - وحل البرلمان - والإنهاء الفورى لحالة الطوارئ - وإقامة حكومة وحدة وطنية انتقالية - وإجراء تعديلات بالدستور - ومحاكمة المسئولين عن قتل شهداء الثورة، وكذلك الفاسدين الذين نهبوا ثروات البلاد».

كان من شأن اليومين اللذين سبقا «جمعة الرحيل» وما صاحبهما من مواجهات دامية أن تثير قلق سكان القاهرة وتردعهم عن المشاركة ولكن على العكس من ذلك كان هذا الأمر للكثير منهم دافعًا للتظاهر. يروى فؤاد السماوى،

وهو موظف إدارى يبلغ من العمر ثلاثين عامًا إلى مراسلة جريدة Liberation قائلاً:

«كنت متواجدًا يوم الثلاثاء فى ميدان التحرير للمشاركة فى المسيرة المليونية مع زوجتى وطفلتى ذات الأعوام الخمسة . وكنت أرغب فى أن يروا صورة مصر الكرامة وكنت شديد الفخر. أنا لا أنتمى لأى حزب سياسى ولم يسبق لى أن سمعت عن حركة ٦ أبريل ولا أعتقد أن البرادعى من الممكن أن يكون منقذا فهو لا يمثل قيمة كبيرة. كما إننى أيضًا لا أحب الإسلاميين، ولكننى شعرت للمرة الأولى بأن ثمة شىء يوحدنا، وهو الرغبة فى أن نكون بلدًا مثل الدول الأخرى. فى أن نشعر بقدرتنا على قيادة أمورنا وأننا نستحق الديمقراطية. يوم الثلاثاء كان الجميع يتظاهر من خلال الاحترام الكامل للاختلافات بيننا، كنا جميعًا متوحدين دون أى عنف، شباب وكبار، أغنياء وفقراء. لم أكن أعتقد أبدًا أن إخوانى فى الوطن لديهم مثل هذا التحضر وهذا الالتزام. كان البعض كثيرًا ما يعيب على مصر طابعها الفوضوى، وها نحن نعطى صورة رائعة. لهذا تحديدًا حدثت المواجهات لتحطيم هذه الصورة السلمية التى تمثلها. (...) لقد استمعت لخطاب الرئيس وقد تأثرت أنا نفسى ببعض كلماته (...) ولكننى قد أصابتنى حالة غثيان عند رؤية المذبحة التى وقعت بميدان التحرير لهذا عدت إليه وحدى دون زوجتى أو ابنتى»[1].

كان هناك حوالى ست مستشفيات ميدانية صغيرة أقيمت فى أماكن متفرقة. كما كان هناك مكتب للمفقودات. أما الهواتف المحمولة فكان يعاد شحنها فى مقر شركة مصر للطيران.

خرجت للنور جريدة جديدة تحمل اسم ميدان التحرير. كانت عناوينها

---

(١) كلود جيل، liberation، ٤ من فبراير ٢٠١١.

الرئيسية اليومية عن «الشهداء الذين سقطوا من أجل الثورة» وقد وضعت صورًا لهم بالحجم الكبير فى أماكن مختلفة من الجريدة. حيث تستوقفنا وجوه مجهولة بعضها تعلوه الابتسامة والبعض الآخر تعلوه علامات الألم الشديد. ومن خلال الهواتف المحمولة صورت هذه الصور، هم فى الغالب من الشباب الذين تذكر الجريدة أسماءهم: كريم بنونة، ٢٩ عاما، مهندس قتل بطلق نارى بالرأس، محمد ياسين، ٢٦ عاما، ممرض، استشهد قتلاً بالرصاص. إسلام رأفت، ١٨ سنة، قتل بسيارة تحمل لوحات دبلوماسية قامت بدهس المتظاهرين ليلة ٢٨ من يناير فى ميدان التحرير[١].

أحمد بسيونى، ٣١ عامًا، أستاذ للفن المعاصر ووالد طفلين كان قد كتب على صفحته بالفيس بوك أنه سيذهب للتظاهر يوم ٢٨ من يناير: «سأذهب لاسترجاع بعضًا من كرامة بلدى»، وكان يوم دامياً، يقول صديقه مجدى مصطفى وهو أيضا فنان تشكيلى، فى نهاية فترة بعد الظهر فى ميدان التحرير، شوهدت سيارة جيب عسكرية ضخمة تسير بجنون شديد وتقتحم صفوف الشباب وقد رأيتها عن بعد تدهس عشرات الأشخاص ولم أكن أعرف أن أحمد بينهم[٢]. إسلام بكير، ٢٢ عامًا، كان من المعارضين يوم ٢٨ من يناير فى ميدان التحرير، قتل بخمس طلقات نارية فى الظهر. لم يكتف أصدقاؤه بعرض صورته بل قاموا بعمل موقع على شبكة الإنترنت باسم «كلنا إسلام بكير».

أفردت الصحافة المستقلة مساحة واسعة للحديث عن هؤلاء الثوار الراحلين. وإحياءً لذكراهم، قدمت الأفكار المتنوعةً وأحيانًا غير المتوقعة.هكذا دعا أحد كتاب المقالات الافتتاحية «رجلى أعمال شرفاء، نجيب ساويرس وأحمد بهجت،

---

(١) هى واحدة من ٢٤ سيارة تابعة للسفارة الأمريكية تمت سرقتها من جراج بشارع قصر النيل.

(٢) بنجامين برت، لومند، ٩ من فبراير ٢٠١١.

إلى تشييد فندق للشهداء يعرض فى بهوه الأمامى صور جميع هؤلاء الشهداء»[1]. حتى الصحافة الحكومية سارت فى نفس التوجه: وقد خصصت جريدة الجمهورية اليومية عنوانها الرئيسى يوم الخميس ١٠ من فبراير «القائمة شهداء مصر»، وهى الجريدة نفسها التى كان عنوانها الرئيسى السابق على هذا التاريخ: «مصر ستتخطى الفتنة».

زائران مرموقان

بعد الساعة التاسعة صباحًا بقليل، دخلت الميدان مركبة عسكرية تحيط بها عدة مركبات أخرى، إنه المشير محمد طنطاوى، وزير الدفاع، الذى يقوم «بزيارة تفقدية». الواقع أنه جاء ليخاطب الشباب المنظمين للمظاهرة، كانت هذه المرة الأولى التى يتوجه فيها أحد كبار قادة النظام إلى ميدان التحرير لمقابلة المعارضين. وقام هذا الرجل العسكرى البالغ من العمر ٧٥ عامًا الذى يبدو أصغر من ذلك بعشرة أعوام وقد ارتدى بزته العسكرية ووضع الكاب فوق رأسه بالحديث بأسلوب متبسط قائلاً: «الراجل قالكم إنه مش هيرشح نفسه»، أليس هذا كافيًا؟ أما عن الحوار مع المعارضة فقد بدأت الحكومة فى الإعداد له، ووافقت عليه بعض قوى المعارضة. ثم قال وزير الدفاع صراحةً إن جماعة الإخوان المسلمين ترفض المشاركة فى هذا الاجتماع: «قولوا للمرشد أن يجلس معهم».

عند آذان الظهر، سجد عشرات الآلاف من المتظاهرين لأداء صلاة الجمعة بينما كان آخرون - غالبيتهم من المسيحيين - متواجدين بالقرب منهم جالسين. وقد دعا الإمام خالد المراكبى الذى كان يؤدى صلاة الغائب على أرواح الشهداء قائلاً: لقد خلقنا أحرارًا وسنظل أحرارًا.(...) إننى أدعوكم أن تصبروا حتى يتحقق النصر وسرعان ما استؤنفت الهتافات «ارحل، ارحل».

---

(١) خالد منتصر، المصرى اليوم، ٨ من فبراير ٢٠١١.

ولكن ها هو زائر مرموق آخر يحل على الميدان، إنه عمرو موسى الأمين العام لجامعة الدول العربية. لا شك أنه قد جاء بوصفه من الجيران، فالبناية الضخمة البيضاء التى يقع بها مكتبه تطل على ميدان التحرير. فقد شعر عمرو موسى، ٧٤ عامًا، النشيط دائمًا، بأن اللحظة قد حانت بالنسبة له. قبل ذلك بثلاثة أيام، أعلن تأييده لشباب المتظاهرين ولمطالبهم. فى صباح يوم الجمعة هذا، أعلن بشكل غير صريح عن ترشحه للانتخابات الرئاسية فى سبتمبر، وحينما سئل عن هذا الأمر أجاب: «ولم لا؟... دون أن يستبعد أن يشارك فى هذه الأثناء فى حكومة انتقالية. «إننى تحت تصرف بلادى بالطبع وإننى على استعداد كمواطن له حق الترشح». [1]

لم يكن عمرو موسى فى أى من الأحوال ليسمح لنفسه أبدًا بالترشح لمنصب الرئاسة إلا أذا أعلن كل من مبارك الأب والابن تراجعهما عن الترشح. فقد عمل فى خدمة الرئيس كوزير للخارجية لمدة عشرة أعوام من ١٩٩٠ إلى ٢٠٠١ . وقد كان من الممكن أن يظل حتى الآن فى هذا المنصب لو لم تكن شعبيته الجارفة قد قضت عليه بالبقاء فى قفص الجامعة العربية الذهبى. كان المطرب المصرى شعبان عبد الرحيم هو الذى أدى إلى استبعاد عمرو موسى،فقد قام فى عام ٢٠٠٠ بعد عدة أشهر من اندلاع الانتفاضة الثانية بعمل أغنية بعنوان «بحب عمرو موسى وبكره إسرائيل» . لم تكن الأغنية رفيعة المستوى، ولكنها ألهبت حماس الجماهير التى كانت تقدر تشدد وزير الخارجية تجاه كل من الدولة العبرية والولايات المتحدة. ونظرًا لما يتمتع به عمرو موسى من صفات تؤهله للرئاسة فقد وجد هذا الرجل ذو الشعبية العريضة نفسه على رأس الجامعة العربية حتى لا تطغى شعبيته على مبارك.

---

(١) حديث لراديو أوروبا ١،٠٤ من فبراير ٢٠١١.

لم يمنعه هذا المنصب الحساس بما يفرض عليه من مراعاة ما يثير حساسية الملوك ورجال الحكم من أن يحتفظ بشعبيته. فقد أظهرته بعض استطلاعات الرأى غير الرسمية التى أجريت قبل الانتخابات الرئاسية فى سبتمبر ٢٠٠٥ كأفضل رئيس فى عيون المصريين على الرغم من عدم ترشحه. فى فبراير التالى، استُقبل عمرو موسى بهتافات مدوية عند وصوله إلى إستاد القاهرة، حيث كانت مصر تلعب فى نهائى كأس إفريقيا لكرة القدم. وحتى لا يكون استقبال حسنى مبارك أقل حرارة منه كان لا بد،كما يقول البعض، أن تتزامن لحظة دخوله إلى المنصة مع نزول الفريق القومى إلى أرض الملعب.

يتمتع عمرو موسى بكل صفات الجاذبية، فهو متحدث لبق متعدد اللغات ويبرز أصحاب الحنين إلى العروبة أن ابنته قد تزوجت بأحد أحفاد جمال عبد الناصر.....

كما لم ينس أحد تحذيره الواضح لرؤساء الدول العربية أثناء قمة شرم الشيخ فى ١٩ من يناير قبل أسبوع من انتفاضة مصر عندما قال «إن المواطنين العرب يشعرون بحالة من الغضب والإحباط لم يسبق لها مثيل».

عند وصوله إلى ميدان التحرير صباح يوم الجمعة، هتف المتظاهرون ببساطة شديدة «يالا يا موسى، تول الأمر». ولكن أمين الجامعة العربية، لم يأت إلا «للمساعدة فى التهدئة». فى مهمة أوكلت إليه كما يردد أولئك الذين لا يحبونه. فى كل الأحوال، ستنتهى فترة ولايته فى الجامعة العربية خلال شهرين. وهى مصادفة جيدة. وقد قام عمرو موسى بمصافحة الكثيرين وتوزيع الابتسامات ثم عاد إلى بنايته البيضاء الجميلة التى لم يفكر أحد فى غزوها أو إحراقها.

«جمعة الرحيل»... جاءت لحظة ارتج فيها الميدان وأخذت الصيحات تتعالى «لقد رحل مبارك». كان المتظاهرون يقبلون بعضهم البعض، آخرون يسجدون شكرًا، وقد ترك الذين يقومون بالحراسة فوق المتاريس الخشبية أماكنهم.... للأسف لم تكن إلا شائعة أخرى. وسرعان ما تسابق الشعراء والمغنون

والموسيقيون فى سعادة فوق المنصة الصغيرة لتحية الحشود. قام رامى عصام ومعه جيتاره وقد وضع كاب فوق رأسه وبمشاركة فريق الروك «مشاكل» بالغناء: «البغل الكبير وابنه أو أنا مواطن معنديش أى فكرة». وقد ظل يغنى فى الميدان منذ خمسة أيام مصرحًا «أشعر بالخوف لقد أصبت بحجر ولكن يجب أن أظل هنا، عندما أغنى فإن هذا يشعرهم بالسعادة ويجعلنى أنا أيضًا سعيدًا». انقضت «جمعة الرحيل» ولم يرحل مبارك. وكالعادة تجاهل الجميع حظر التجول، فى هذه الليلة أضيفت حول محيط الميدان الأسلاك الشائكة للمتاريس فلا أحد يعلم ما الذى يمكن أن يحدث.وقضى الآلاف الليل فى الميدان تحت الخيام أو فوق النجيل أو فى مداخل البنايات.

مع بزوغ الصباح، استيقظ الجميع فزعين على صوت محركات الدبابات وقد بدأت تدور. فتدافع عشرات المتظاهرين وقد استبد بهم القلق نحو العسكريين يرجونهم عدم الرحيل وعدم تفكيك المتاريس التى تحميهم ضد أى تعد جديد. فى الليلة السابقة، كانت أصوات بعض طلقات الإنذار التى أطلقها بعض العساكر فى أحد الأحياء المجاورة قد جعلتهم يخشون ما هو أسوء. وأحاط المتظاهرون بالسيارات المدرعة وهنا تحدث أحد اللواءات إليهم فى الميكروفون قائلا: أقسم بالله إننا لن نرفع المتاريس، تراجعوا رجاءً. ثم أبطلت المحركات فتعالت الصيحات مرحبة بهذا القرار حتى ولو كان مؤقتًا: الجيش والشعب إيد واحدة. ومن باب الحيطة بدأ المتظاهرون منذ اليوم التالى فى وضع أسرتهم البلاستيكية مرتكزة على الدبابات لمنعها من التحرك.

٢١

قلق إسرائيلي

إن مصر لا تقتصر فقط على القاهرة، حتى لو كانت اللغة الدارجة تخلط اسم العاصمة باسم الدولة (مصر)، فإلى جانب الإسكندرية والسويس شهدت عدة مدن مظاهرات ومواجهات خاصة بنى سويف الواقعة جنوب العاصمة، حيث أصابت الشرطة يوم التاسع والعشرين من يناير سبعة عشر شخصا.

أما شمال سيناء فهى منطقة شديدة الحساسية يصعب على الشرطة السيطرة عليها؛ وهناك تقيم قبائل من البدو فى خصومة مع الحكومة. كما لا تستطيع الشرطة إرسال قوات إضافية إلى هذه المنطقة؛ حيث إن معاهدة السلام الموقعة مع إسرائيل فى ١٩٧٩ قد نصت على أن سيناء منطقة منزوعة السلاح. فى السابع والعشرين من يناير أطلق بعض البدو صواريخ مضادة للدبابات ضد قوات النظام. وقد طلبت القاهرة من إسرائيل أن تسمح لها - بالمخالفة لما تنص عليه معاهدة السلام فى ١٩٧٩ من نزع السلاح من سيناء ووضعها تحت سيطرة قوة متعددة الجنسيات - بأن تسمح لنحو ثلاثة آلاف وخمسمائة جندى مصرى بالدخول إلى هذه المنطقة لمراقبة الحدود مع غزة، وحماية المنشآت الرسمية فى رفح، وكذلك حماية مقر إقامة حسنى مبارك فى شرم الشيخ. استجابت الحكومة الإسرائيلية بشكل جزئى لهذا الطلب، بأن سمحت لكتيبتين مصريتين أى لحو أقل

من سبعمائة جندى بالانتشار فى المنطقة[1].

فى الخامس من فبراير شهدت العريش حادثين كبيرتين، الأولى انفجار فى كنيسة مار جرجس، والثانية حريق المكتبة المركزية، ولكن هناك حادثا ثالثا هو الذى استرعى انتباه الجميع وهو انفجار خط الغاز الذى يمر بالقرب من هذه المدينة الحدودية. وتقول الشركة المصرية صاحبة حق استغلال هذا الخط إن الأمر ليس سوى حادثة ناتجة عن تسرب للغاز، إلا أن التحقيق سرعان ما أظهر أنها محاولة تفجير، حيث تسلل أربعة أفراد ملثمون إلى المعبر لتفجير خط الغاز. هكذا توقف ضخ الغاز إلى الأردن وسوريا، وتقرر من باب الحيطة وقف ضخ الغاز إلى إسرائيل والذى يؤمنه خط أنابيب ثان.

هذه الصفقة بين مصر وإسرائيل لم تمر دونما مشاكل. فمنذ توقيعها فى عام ٢٠٠٥، حدث الكثير من المشاكل. فقد التزمت مصر بتوريد ١,٧ مليون متر مكعب من الغاز الطبيعى سنويا لعدوها السابق لمدة خمسة عشر عاما وبسعر أقل بكثير من الأسعار العالمية. إلا أن مصر بدأت منذ بعض الوقت تجد صعوبة فى إمداد محطاتها الكهربائية بالغاز، حتى إن هناك تفكيرا يتجه إلى استيراد الغاز من العراق، أو إعادة شراء من إسرائيل.

فى الوقت الحالى سيكون من الصعب على الدولة العبرية عدم الاعتماد على الغاز المصرى الذى يمثل ٤٣٪ من استهلاكها ولن تتمكن من ذلك قبل عام ٢٠١٣ على أكثر تقدير حيث تكون الآبار التى اكتشفت فى البحر بامتداد حيفا قادرة على تأمين نوع من الاستقلال فى الطاقة . أما مصر من جانبها فسوف تتردد كثيرا فى أن تحرم نفسها من هذا السوق الذى يؤمن لها دخلا قدره مليارا دولار سنويا.

---

(١) هذه هى المخالفة الثانية لمعاهدة السلام التى تحظى بموافقة إسرائيل، ففى عام ٢٠٠٥ تواجدت كتيبة مصرية فى معبر رفح الحدودى.

أصبح الأمر يقتضى إذا إعادة تشغيل خط غاز العريش - اشكلون[1] فى أقرب وقت ممكن. لم يكن هذا العقد التجارى الشغل الشاغل لإسرائيل، بل كان أشد ما يشغلها هو هذا الزلزال الذى ضرب وادى النيل منذ أسبوعين.

لم تتوقع المخابرات الإسرائيلية أيا من الأحداث التى جرت، عندما وجه سؤال إلى رئيس المخابرات العسكرية الجنرال أفيف كوشافى يوم الخامس والعشرين من يناير من قبل اللجنة البرلمانية للشئون الخارجية والدفاع. أكد الجنرال أن استقرار نظام مبارك لا يمسه أى تهديد. بعد خمسة أيام من هذا التاريخ أكد رئيس هذه اللجنة شاؤول مفاز خطر وصول الإخوان المسلمين إلى السلطة قائلا:

«إن هذا قد يشكل تغييرا دراماتيكيا فى كل المنطقة، كما يخشى أن يمتد عدم الاستقرار إلى دول أخرى».

مصر هى الدولة العربية الأولى (ثم تبعتها بعد ذلك الأردن) التى توقع معاهدة سلام مع إسرائيل مقابل استرداد سيناء. ولدى عودته من زيارته الشهيرة إلى القدس فى نوفمبر من عام ١٩٧٧ استقبل السادات بترحيب كبير، وربما كانت هذه هى المرة الأولى التى لم يرتب التنظيم السياسى حينها لاستقباله بهتافات مجهزة، ولكن بمرور الأعوام أدت السياسة الإسرائيلية إلى غضب متزايد فى مصر. وأصبح السلام منذ ذلك الحين سلاما «باردا» أقرب إلى الجليد، سلام بين حكومتين وليس بين شعبين. كان لدى المصريين قناعة بأن إسرائيل ترغب فى احتلال الضفة الغربية بأكملها، ولن تتنازل عن شبر واحد من القدس، إلا أن هذا السلام استمر مع ذلك متخطيا اغتيال السادات فى ١٩٨١ والانتفاضتين الفلسطينيتين (١٩٨٧ و٢٠٠٠) وحربى العراق عامى ١٩٩٠ و٢٠٠٣ وحربى

(١) سيعاد ضخ الغاز فى منتصف شهر مارس بعد خمسة أسابيع من التوقف.

لبنان عامى ١٩٨٢ و٢٠٠٦ وحرب غزة عام ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩. ولكن كيف سيصبح الوضع إذا ما انهار نظام مبارك ووصل إلى الحكم الإخوان المسلمون (الذين يعارضون بعض وسائل تطبيق معاهدة السلام). تقول إسرائيل إننا قد نجد أنفسنا مضطرين إلى إعادة النظر تماما فى إستراتيجيتنا العسكرية وفى إعادة نشر قوات كبيرة الحجم على الجبهة الجنوبية، إلا أن تطور الأوضاع غير المؤكد فى مصر قد أضيف إلى بعض المصاعب الأخرى التى تواجه إسرائيل من تدهور علاقاتها مع الأردن وما أصاب تحالفها مع تركيا من ضعف متزايد.

هل نحن بصدد نظام يحتذى النموذج الإيرانى؟

فى خطاب له أمام الكنيست يوم الخميس ٣ من فبراير، صرح بنيامين نتنياهو قائلا: «هناك عالمان منقسمان إلى نصفين، ورؤيتنا هى أن إحداها تتعلق بالعالم الحر والأخرى بالعالم الراديكالى، أى منهما ستكون له الغلبة فى مصر؟ الإجابة ستكون حاسمة». كان رئيس الوزراء الإسرائيلى يخشى قيام نظام على غرار النموذج الإيرانى فى القاهرة وهو ما «سيعود بمصر إلى العصور الوسطى ويجعل منها غزة أخرى».

يشارك أغلبية المواطنين الإسرائيليين نتنياهو هذا القلق، فوفقا لاستطلاع رأى يرى ٥٩٪ من الإسرائيليين أن «نظاما إسلاميا» سيخلف نظام مبارك[1]. ومع ذلك فقد ارتفعت بعض الأصوات متهمة بنيامين نتنياهو باللجوء إلى فزاعة خادعة. فقد كتب رئيس التحرير اليسارى جيدون ليفي[2]: «حتى لو اتضح أن مصر لن تصبح إيران، وأن الثورة المصرية علمانية وشعبية ولا تلعب فيها كراهية إسرائيل أى دور رئيسى،فلسوف يستمر المسئولون لدينا فى إشاعة مشاعر الخوف».

أما طارق رمضان حفيد مؤسس الإخوان المسلمين والذى يدرس علم

---

(١) نشر فى جريدة يديعوت أهرانوت بتاريخ ٣ من فبراير ٢٠١١.

(٢) هارتس ٣ من فبراير ٢٠١١.

الدراسات الإسلامية المعاصرة بكلية سان أنطونى بجامعة أكسفورد، فقد زاد الموقف اشتعالا عندما أبدى دهشته قائلا: «إن اللجوء للغرب لدعم الديكتاتور مبارك لهو أمر مخز بالنسبة لدولة تدعى شرف كونها الديمقراطية الوحيدة فى المنطقة. كما لو كان أمنه يتوقف على أن يكون محاطا بديكتاتوريين يقمعون شعوبهم»[1].

لم تحاول سلطات طهران من جانبها إزالة بواعث القلق حيث لا توجد لديها حجج تسوقها. فقد توجه آية الله على خامنئى يوم الجمعة ٤ من فبراير بحديث إلى المتظاهرين المصريين باللغة الفارسية ثم باللغة العربية وذلك خلال خطاب رسمى قائلا: «اصمدوا جيدا حتى إقامة نظام شعبى يرتكز على الدين» متهما مبارك «بأنه خادم الصهاينة والأمريكيين»، ودعا رجال الدين المصريين إلى دعم الشعب، كما دعا الجيش إلى «الانضمام إلى الشعب» على غرار ما حدث فى إيران عام ١٩٧٩. وأضاف قائلا: «لقد نجحت ثورتنا فى أن تصبح نموذجا يحتذى».

كانت هذه هى المرة الأولى التى يدعو فيها زعيم إيرانى بشكل مباشر شعب دولة من دول منطقة الشرق الأوسط لإقامة نظام إسلامى. ولكنه بهذا قد أيقظ من جديد حركة المعارضة فى إيران، تلك المعارضة التى تعرضت للقمع العنيف فى أعقاب إعادة انتخاب الرئيس أحمدى نجاد فى يونيه من عام ٢٠٠٩ (أكثر من مائة قتيل وأربعة آلاف معتقل). هكذا عادت حركة «الخضر» للظهور. فقد دعا زعماء هذه الحركة إلى التظاهر لدعم حركات المعارضة فى مصر وتونس يوم ١٤ من فبراير. ولم تكن التظاهرة تهدف إلى تشجيع «النهضة الإسلامية» العربية بل كانت تهدف إلى دعم «مطالب شعب يصبو إلى الحرية والديمقراطية فى مواجهة الديكتاتورية». كانت هذه دعوة صريحة للتظاهر ضد السلطات الإيرانية. فالزلزال الذى ضرب مصر لم تنته بعد توابعه فى المنطقة.

---

(١) جريدة لوموند ١٢ من فبراير ٢٠١١

٢٢

الإخوان يخرجون من دائرة الظل

فى وقت الصلاة تتغير معالم ميدان التحرير، فتكف مكبرات الصوت عن ترديد الخطابات والشعارات والنداءات ولأغانى، ويسجد آلاف الأشخاص وقد انقسموا إلى عدة صفوف فى اتجاه مكة. ولكن بعيدا عن ذلك، فإن الدين الذى أصبح يحتل مكانة كبيرة فى مصر منذ عدة أعوام، لا يزال متواريا بشكل نسبى. وإذا ما تناسى البعض ذلك، فهناك دائما من يرده إلى الواقع.

يحدثنا عن ذلك رئيس شركة قائلا: «يوم الخميس ٣ من فبراير بعد الظهيرة اتصلت بصديق لى كان على مقربة من شارع محمود بسيونى بميدان عبد المنعم رياض، فتوجهت إلى هناك حيث كانت المعركة لا تزال دائرة. كان بلطجية الحكومة متواجدين بشارع رمسيس خلف الدوران. ولم يكن من الممكن تحديد عددهم. وقام المتظاهرون بعمل حواجز. وكانت أعداد الجرحى تتزايد. وكلما بدأ البلطجية فى الهجوم سارع المتظاهرون بالدق فوق الصاج المموج، ويسرع الجميع إلى المقدمة. هنا استبد الحماس بأحد الأفراد، فأخذ يصيح «حى على الجهاد». فالتف حوله خمسة من الشباب مطالبين إياه بالصمت قائلين «نحن جميعا مصريون هنا ولا يوجد جهاد»[1].

---

(١) فيليب معرى «رأيت مصر تنهض»، جريدة لوموند ١٧ من فبراير ٢٠١١.

ومع ذلك، فقد تزايد وجود الإخوان المسلمين بميدان التحرير بعد أن اكتسبوا الكثير من سمات الثوار خلال المعارك التى دارت فى الأيام السابقة. كما أنهم لم يعودوا يضعون شارة الأخوان ولكن يسهل التعرف على البعض منهم من النظرة الأولى بفضل لحيتهم وعلامة الصلاة على جباههم. تلك العلامة التى من المفترض أن يزداد حجمها بقدر ورعهم الدينى.كان الممثل الرئيسى للإخوان فى ميدان التحرير هو الدكتور محمد البلتاجى الذى كان ولداه يقومان بحماية المتاريس. كان يرتدى بدلة ورابطة عنق فى محاولة لإعطاء صورة عن الإخوان تقضى قدر الاستطاعة على بواعث القلق. وجد الصحفيون الأجانب فى الحديث معه عبارات شديدة الجاذبية، فقد كان يقول «إن نظام مبارك يحاول ابتزاز الغرب بأن يقدم نفسه على أنه الدرع الوحيد القادر على منع إقامة جمهورية إسلامية. ولكن الإخوان ليسوا هم من أطلق شرارة الثورة، نحن فقط نشارك فيها، نحن فى قلب الحركة ولكننا لسنا زعماءها، إن الرعب الذى يسيطر على الغرب غير مبرر فمصر ليست إيران، نحن نؤمن بالديمقراطية وبالحريات المدنية، وحق كل فرد فى ممارسة شعائر دينه»[(١)].

ولكن هذا ليس على وجه الدقة ما يتضح من برنامج الإخوان الذى أعلن عام ٢٠٠٧.فقد قرأنا فيه على سبيل المثال إنه يجب على مجلس علماء الدين مراجعة القوانين التى يعتمدها البرلمان، كما نقرأ فيه أيضا إنه لا يجوز تولى رئاسة الجمهورية أى من الأقباط أو المرأة. ثم أليس شعار «الإسلام هو الحل» الذى يرفعه الإخوان فى كل حملة انتخابية بمثابة أسلمة للمجتمع؟

الجماعة لم تعد «محظورة»

رفض الإخوان المسلمون أى نقاش مع السلطة طالما ظل حسنى مبارك على

---

(١) أدريان جول، الفيجارو،٧ من فبراير ٢٠١١.

رأسها، لكنهم وافقوا فى النهاية على «الحوار» الذى دعا إليه نائب الرئيس عمر سليمان مع كافة «القوى السياسية». وأوضحت الجماعة أن الأمر لا يتعلق بإجراء مفاوضات ولكن بـ «استطلاع نوايا المسئولين السياسيين الجدد» للتأكد من مدى صدقهم. هكذا توجه نواب الجماعة إلى قصر هليوبوليس يوم الخميس ٦ من فبراير برفقة عدد من ممثلى المعارضة[(١)]. كانت هذه المرة الأولى التى تجرى فيها مباحثات رسمية بين النظام والإخوان الذين حصلوا بهذه الطريقة على اعتراف رسمى. وهى أحد التفاصيل التى لم يكن من الممكن إغفالها. ففى البيان الرسمى الصادر عن الرئاسة لم تتبع كلمة جماعة الإخوان صفة «المحظورة».

لم تكن كل المعارضة ممثلة فى هذا الاجتماع فقد أعلن أيمن نور رئيس حزب الغد «وسط» أنه تلقى دعوة «غير مباشرة» وقام برفضها. وأضاف إن الإخوان المسلمين أكدوا له عدم ذهابهم إلى هذا الاجتماع، ولكنهم لم يفوا بعهدهم. أما محمد البرادعى، فقد أكد أنه لم يتلق أية دعوة إلى هذا الحوار الذى يشوبه، فى رأيه، «الغموض». «لا أحد يعلم من يتحدث إلى من، فالحوار يديره نائب الرئيس عمر سليمان والجيش، وهنا تكمن المشكلة، فالرئيس رجل عسكرى، ونائب الرئيس رجل عسكرى، وكذلك رئيس الوزراء. إننى أعتقد أننا إذا ما كنا بالفعل نرغب فى زرع الثقة فلا بد من إشراك المدنيين»[(٢)].

جرى الحوار وقد توسطت القاعة صورة ضخمة للرئيس حسنى مبارك، وقد رفض نائب الرئيس طلب محدثيه بتولى مسئولية الرئيس. عند خروجهم من الاجتماع عقد الإخوان المسلمون مؤتمرا صحفيا فى قصر هليوبوليس، بدأ بدقيقة

---

(١) حسام بدراوى، الأمين العام الجديد للحزب الوطنى الديمقراطى، السيد البدوى رئيس حزب الوفد، رفعت السعيد رئيس حزب التجمع وكذلك رؤساء أحزاب التكافل والجيل.

(٢) لقاء مع قناة إن بى سى الأمريكية ٦ من فبراير ٢٠١١.

صمت حدادا وتخليدا لذكرى «شهداء الحركة الشعبية المصرية». ثم صرحوا بأن الإصلاحات التى اقترحها ممثلو السلطة الجدد «غير كافية» وبدءوا فى إعلان مطالبهم. لا بد من الاعتراف بالطابع «الوطنى والشريف» لهذه الحركة (بمعنى أنها لا تحركها قوى أجنبية) لابد من «حماية» المتظاهرين و «السماح لهم بالتظاهر السلمى ما شاءوا فى أى وقت». وأخيرا لابد من إنهاء حالة الطوارئ «ما إن يعاد إقرار الأمن»، وعلى أقصى تقدير قبل إجراء الانتخابات الجديدة. وكررت الجماعة إنها لا تبحث عن سلطة وأوضحت أنها لن تقدم مرشحا لانتخابات الرئاسة.

كما تقرر أثناء الاجتماع فى القصر الرئاسى رفض أى تدخل أجنبى فى الشئون المصرية، تظل هذه كلمات براقة لا تلزم بشيء. الواقع أن الجميع بحاجة إلى الخارج، النظام الذى يرتبط ارتباطا شديدا بالولايات المتحدة ولا يستطيع الحياة دون المعونة الأمريكية، والمعارضة التى تشعر أن التغطية الإعلامية تحميها وتعتمد على ما تمارسه واشنطن والعواصم الغربية الأخرى من ضغوط.

أما ما اتخذ من قرارات ملموسة، فهو افتتاح مكتب لتلقى الشكاوى المتعلقة بالمساجين السياسيين، فقد انقطعت فى الواقع أخبار عدد كبير من المعارضين الذين ألقى القبض عليهم خلال المظاهرات كما أن على هذا المكتب أيضا التأكد من رفع كافة القيود المفروضة على الإعلام.

كما اتفق المشاركون فى اجتماع هليوبوليس من ناحية أخرى على إنشاء لجنة تكون مكلفة باقتراح تعديلات دستورية قبل بداية الأسبوع الأول من شهر مارس. الواقع أن رحى الجدل القانونى كانت قد بدأت فى الدوران. فقد التقيت بمجموعة من الحكماء فى الليلة السابقة بنائب الرئيس عمر سليمان ليشرحوا له إمكانية قيامه بتولى السلطات الرئاسية خلال المرحلة الانتقالية، حيث إن المادة ١٣٩ من الدستور تسمح للرئيس بأن يقوم بتفويض كافة صلاحياته إلى نائب الرئيس دون أن يقدم استقالته. سيكون دوره حتى نهاية فترته الرئاسية دورا شرفيا تماما كما هو الحال فى الملكيات الدستورية. ولكن تظل مشكلة المادة ٨٢ التى لا يجوز بمقتضاها

لنائب الرئيس الذى يفوض إليه كافة السلطات طلب عمل تعديلات دستورية أو حل البرلمان. ولكن هنا أيضا قد يمكن مع البحث الجيد أن يوجد حل ما...

لم تكن هذه المهاترات القانونية تعنى من قريب أو بعيد المتظاهرين فى ميدان التحرير. لم تكن هذه الحيل الدستورية هى ما يبحثون عنه، بل كانوا يطالبون بنظام جديد وقبل كل شيء برحيل حسنى مبارك. فى ميدان التحرير، أعلن فى مؤتمر صحفى عن إنشاء «جبهة إنقاذ وطنى» وأكد المتحدث الرسمى لهذه الجبهة زياد العليمى «إن الشباب لم يفوضوا أيا من الأحزاب السياسية للتحدث باسمهم». وقد التقى نائب الرئيس عمر سليمان يوم الأحد وبشكل منفصل بستة من ممثلى الشباب[1] ولكن الاجتماع لم يسفر عن شيء يذكر.

---

(١) عبد الرحمن يوسف، مدحت أبو السعود، كريم ضياء الدين، داليا متولى، مصطفى النجار، ياسر إبراهيم.

٢٣

هل هى ثورة فيسبوك ؟

قد يكون هؤلاء المدونون الذين فجروا هذه الحركة فى سن أحفاد مبارك فى مواجهتهم دولة عجوز: رئيس يبلغ من العمر ٨٢ عامًا، نائب رئيس ووزير للدفاع يبلغ ٧٥ عامًا...ومع ذلك فلا يبدو هناك إجماع على اعتبارها «ثورة شباب»، فالكاتب خالد الخميسى البالغ من العمر ٤٨ عامًا يجد أن هذا الوصف به نوع من «الامتهان» أو على الأقل لا يخلو من شبهة ما، ويقول: «لقد حاول النظام التهوين من هذه الحركة بوصفها من فعل الشباب. ولكن الشعب المصرى هو الذى ثار، إنه شعب شاب، هذا كل ما هنالك. فلم يرد بذهن أحد القول بأن الثورة الفرنسية قام بها شباب ومع ذلك فأولئك الذين اقتحموا الباستيل لم يكونوا دون شك من كبار السن»[١].

«ثورة» .... هذه الكلمة استخدمت من أول يوم بينما لم يكن الأمر يتعدى حينذاك حركة تمرد. وحتى بعد مرور أسبوعين فقد رأى بعض المراقبين أن استخدام هذه الكلمة به كثير من التجاوز فقد كتب بشير بن يحمد[٢] «إن

---

(١) حديث خالد الخميسى - القاهرة - ٢٢ من مارس ٢٠١١.

(٢) المقاله الافتتاحية، Jeune Afrique، ٦ من فبراير ٢٠١١.

الانتفاضة المصرية فى يناير وفبراير ٢٠١١ ليست بثورة هى مازالت بعيدة عن هذا، ولعل ما أوحى للبعض بذلك أنها استلهمت خطى الثورة التونسية وحذت حذوها. هذه الانتفاضة هى تعبير عن غضب شعب بأكمله، مما يعانيه من عدم تقدير سواء من جانب قادته أومن جانب الشعوب الأخرى. إن الجواد المصرى لا يتطلع سوى لتغيير سرجه وتغيير فارسه ليشعر ببعض التحسن ويستعيد احترامه لذاته واحترام الآخرين له ويبدو واضحا لى - يقول كاتب المقالة - أن الأمر ما زال بعيدًا عن التشكيك فى شرعية ودور المؤسسة العسكرية التى أطاحت بالملكية وحلت محلها. دوئما أى دفعة قوية فى هذا الاتجاه، وهو ما لا أرى أية بوادر له. لا توجد «ثورة مصرية» سيكون من غير الصحيح الحديث عن «الثورة» ليس بعد».

لكن بالنسبة لمتظاهرى القاهرة والإسكندرية والسويس وغيرهم من المدن هى «ثورة» بالفعل: هذه الكلمة التى تجمع فى معناها بالعربية بين التمرد والثورة بقى أن يطلق عليها اسمًا. فى البرتغال وقعت ثورة القرنفل، فى تونس أطلق عليها ثورة الياسمين (وهو اسم لا يعجب بالضرورة من أشعلوا هذه الثورة) بالنسبة لمصر، تحدثت وسائل الإعلام الأجنبية عن ثورة البردى أو اللوتس أو النيل....و لكن فى نهاية الأمر كان تاريخ هذه الثورة وهو ما احتفظ به المصريون أنفسهم: أنها ثورة ٢٥ من يناير. أما فى ميدان التحرير فقد تداول المتظاهرون فى سخرية اسم ثورة البصل الذى استخدم لمقاومة الغاز المسيل للدموع أو ثورة الكشرى هذه الوجبة الشعبية التى تباع فى الشوارع والمكونة من خليط من الأرز والمكرونة والعدس الأسود والبصل المحمر، وكان هذا ردًا على حملة التشويه التى قامت بها وسائل الإعلام الرسمية التى رددت أن المعارضين مولوا بواسطة مطعم كنتاكى فرايد تشيكن الموجود فى ميدان التحرير، فهم ليسوا فقط عملاء أمريكيين بل ومرتشون أيضًا.

هكذا بدأت السخرية من حملة التشويه هذه، وانطلقت نكات لا حصر لها عن الوجبات السريعة المجانية. فقد كتب على بعض اللافتات «لقد أعطونا الكنتاكى دون كاتشب» أو «ارحل يا مبارك، تعبت من أكل الفراخ» ومن بين النكات

المتداولة فى ميدان التحرير بوصفها تدور فى العالم الآخر. فى السماء يلتقى مبارك بناصر والسادات ويسألونه وقد سيطرت على ذهن كل منهما نهايته: أزمة قلبية أم اغتيال؟ فيجيب: «فيسبوك».

بدون أيدولوجية وبدون زعيم

هل هى ثورة فيسبوك ؟ قيل ذلك كثيرًا ولكن كما يلاحظ المحامى محمود أباظة لا يمكن الاستيلاء على السلطة عن طريق لوحة مفاتيح الكمبيوتر «إن شباب الإنترنت مثل السلاح الجوى يمكنه أن يدمر مدينة ولكن احتلالها يقتضى وجود المشاة»[1]. لقد نجحت هذه الحركة لأن أبطال الإنترنت نزلوا إلى الشارع ونجحوا فى اجتذاب كل أطياف المجتمع. وخلال بضعة أيام شعر بانتمائه لهذه الحركة كل مصرى له معاناة سواء بسبب البطالة أو عدم توفر مسكن لائق أو كونه شهد وفاة أحد أقاربه لسوء الرعاية الصحية، وكذلك كل مواطن عانى من ظلم الدولة البوليسية.

لم يعق النزول إلى الشارع المدونين ونشطاء الفيسبوك من استئناف عملهم كمراسلين وأصحاب رأى، فدونوا انطباعاتهم وصوروا انتهاكات الشرطة ونشروا مقاطع فيديو، وقد كانت صفحة «رصد» التى ولدت ليلة ٢٥ يناير على الفيسبوك ذات فاعلية شديدة. فقد كانت مخلصة للاسم الذى تحمله وهو الذى يعنى بالعربية المراقبة والمتابعة والتوثيق، فسعت أثناء الأحداث إلى إعطاء الحد الأقصى من المعلومات مع توضيح درجة دقة هذه المعلومات قدر الإمكان.

يرى أوليفيه روى المتخصص فى شئون العالم العربى والإسلامى أن هذه الثورة هى ثورة «ما بعد الإسلاميين» وهو يسجل ملاحظته قائلاً: «إن هذا الجيل الجديد لا يهتم بالأيدولوجيات، فكل الشعارات التى يرفعها تتميز بالبرجماتية والواقعية «ارحل»، فهم لا يجعلون الإسلام مرجعيتهم كما فعل من سبقوهم فى

---

(١) حديث مع محمود أباظة - القاهرة - ٢٥ مارس ٢٠١١.

الجزائر فى نهاية التسعينات. بل يعبرون فى المقام الأول عن رفضهم للديكتاتوريات الفاسدة ويطالبون بالديمقراطية. ولا يعنى ذلك على الإطلاق أن المتظاهرين علمانيون، ولكنهم ببساطة لا يرون أن الإسلام يحمل أيدولوجية سياسية تمكنه من خلق نظام أفضل (...) قد يكونون مؤمنين ولكنهم يفصلون ذلك الأمر عن مطالبهم السياسية، وبهذا المعنى تكون هذه الحركة «علمانية» لأنها تفصل الدين عن السياسة، فقد صارت الممارسة الدينية شأن فردى»[1].

لقد أظهر هذا الجيل نضجاً سياسيًا مذهلاً فى دولة رزحت عقودًا تحت وطأة الحكم الشمولى. فمنذ وصول ناصر للحكم فى عام ١٩٥٢ ومصر تعيش اما عصر الحزب الواحد أو التعددية الحزبية الشكلية. ولكن يجب ألا ننسى أن مصر شهدت فى مرحلة ما بين الحربين - على الرغم من الاحتلال البريطانى - تجربة برلمانية. وشباب التحرير قد ورثوا التجربة التى تمخضت عن سلسلة من الصراعات السياسية والنقابية التى قادها بعض الرواد الشجعان مثل مؤسسى حركة كفاية.

لم يتأخر الأب نبيل جابريال من الآباء الجزوييت ومدير كاريتاس مصر - وهى منظمة غير حكومية نشطة جدًا فى المجال الاجتماعى - عن النزول إلى التحرير لمشاهدة ما يحدث، ويقول «لقد سمعت تكرارا كثيرا لهتاف «ارحل» ولكن لم يكن هناك أى اسم آخر يرتفع به الهتاف، فالمتظاهرون لا يقترحون بديلاً لحسنى مبارك يحصل على إجماعهم. ليس هناك ممثل لهذه الحركة، وذلك مثلاً على عكس ما حدث فى فرنسا فى مايو ٦٨ مع دانيال كوندربنديت».[2] هى فى الواقع ثورة دون زعيم ولا تدعى أى من الحركات التى دعت إلى التظاهر يوم ٢٥ من يناير (٦ أبريل - خالد سعيد - الجمعية الوطنية للتغيير...) هذا الدور.

---

(١) وجهه نظر نشرت بجريدة لومند فبراير ٢٠١١.

(٢) حديث مع نبيل جابريال - القاهرة - ٢٣ من مارس ٢٠١١.

فى المقابل اندهش الجميع من التنظيم فى ميدان التحرير فيما وراء أجواء هذه الأحداث العظيمة.ولا يمكن أن نحمل الفضل فى ذلك للإخوان المسلمين، حتى لو كانت الحركة قد استفادت من خبرتهم. فأستعاضت ثورة ٢٥ يناير عن وجود زعيم بما تمتعت به من منظمين رائعين، كانوا يعتمدون على كرم المتبرعين، فما إن يذكر فى الميكروفون الحاجة إلى عشرة متطوعين لمهمة ما حتى يتقدم مائة.... إلى جانب الكثير من المبادرات الفردية. هذه المنصة مثلاً يعود الفضل فى بنائها إلى أحد موظفى البنوك ويدعى عبد الحكيم بشيرى، الذى جمع الأموال لأجهزة الصوت، فأطلقوا عليه على سبيل الدعابة «وزير الإعلام».

فى بلد يمكن فيه للفوضى أن تكون عارمة، أظهر المتظاهرون قدرة فائقة على الالتزام والتنظيم. فكانوا يقضون وقتا طويلا قد يصل إلى ساعة أو أكثر فى انتظار دورهم فى هدوء أمام دورات مياه مسجد عمر مكرم.

يقول الكاتب محمد سلماوى رئيس اتحاد الكتاب المصريين «شهدنا فى ميدان التحرير عكس كل ما كنا ننعيه كل يوم فى مصر، اختفت الفوضى وسوء الأخلاق والتسول والتحرش الجنسى. خيل إلى أننى وجدت مصر التى فقدتها»[1].

فمن عجائب الأمور أن المد الدينى قد صاحبه فى الأعوام الأخيرة انهيار فى السلوكيات: اعتداءات جنسية - انتشار المخدرات. فقد أظهر تحقيق جرى فى عام ٢٠١٠ أن ٧٪ من المصريات يؤكدن تعرضهن «لإيماءات وألفاظ خادشة للحياء» وهو تعبير مهذب للإشارة إلى تحرش فعلى قد يصل إلى حد الاغتصاب. وتقول هاجر حلمى - طالبة عمرها ١٩ عاما - «عندما ذهبت إلى ميدان التحرير كان أول شىء استوقفنى هو سلوك الرجال، كانوا يتدافعون ليفسحوا لى طريقًا للمرور»[2].

---

(١) حديث مع محمد سلماوى - القاهرة - ٢٣ من مارس ٢٠١١.

(٢) حديث مع هاجر حلمى - القاهرة ٢٢ من مارس ٢٠١١.

المعارضون الذين يقضون نهارهم وليلهم هنا لم يعودوا كما كانوا. فقد اندهش رجل القانون - رفائيل كمف - الذى كان متواجدًا بالقاهرة - من رؤية المحامية المحجبة بسمة زهران وهى تدخن علنًا فى الميدان. كانت هذه المناضلة المتخصصة فى الدفاع عن حقوق العاملين تمتنع حتى هذا الوقت عن إشعال سيجارة فى وجود من تستقبلهم من أشخاص، عندما أعرب لها الرجل الفرنسى عن دهشته قائلاً: «أنت تدخنين اليوم أمام الجميع؟» أجابته ببساطة «إنه التغيير»[1].

خلال هذه الأيام الرائعة التى تعايش فيها الجميع، تعرف بعض شباب الطبقة المتوسطة على بعض الشباب العاطلين من الأحياء الشعبية. واكتشفوا عوالمًا كانت مجهولة بالنسبة لهم. يقول عمر الزهيرى - وهو سينمائى شاب يبلغ من العمر ٢٢ عامًا، كان يعتزم الهجرة قبل أسابيع قليلة لعدم قدرته على تحمل الفساد والمناخ الذى كان سائدًا فى مصر -: «لقد تحولت علاقتى مع هذا البلد. لم يكن من عادتنا أن نتحدث سويًا، أما هنا فقد استطاع كل منا أن يتعرف على الآخر»[2].

---

(١) رافاييل كمن - لوموند ديبلوماتيك - مارس ٢٠١١

(٢) منى النجار - نيويورك تايمز - ١٩ من فبراير ٢٠١١.

٢٤

الهلال والصليب

فى ذاك الأحد الموافق السادس من فبراير وفى ميدان التحرير المكتظ بالبشر قام قس مسيحى بأداء صلاتين. أقيمت الصلاة الأولى فى الحادية عشرة صباحا والثانية فى الواحدة ظهراً. وقف المسيحيون والمسلمون وقد أمسكوا بأيدى بعضهم البعض، وسالت دموع الكثيرين عندما سمعوا ترتيلة «بارك بلادى اسمع صرخات قلوبنا». فى يوم الجمعة السابق كانت الصلاة قد أقيمت تحت حماية المسيحيين، هذه المرة حدث العكس بشكل رمزى «باسم المسيح ومحمد وحدنا صفوفنا» هكذا أعلن القس إيهاب الخراط من الكنيسة الإنجيلية القبطية.

أمام الكاميرات وقف رجلان يرفع أحدهما الإنجيل ويرفع الآخر القرآن ورفعت لافتة «مسلم + مسيحى = مصرى» وتعالت هتافات «أيد واحدة». كما رددت الهتافات الجيدة لثورة عام ١٩١٩ «الدين لله والوطن للجميع» أو بشكل عصرى أكثر «الإنجيل والقرآن يطالبان مبارك بالرحيل».

وأقل ما يمكن قوله إن الجماهير من مسلمين ومسيحيين لم تطع السلطات الدينية. حين أوصت هذه السلطات بعدم التظاهر يوم ٢٥ من يناير اليوم الأول لهذه الحركة ولكل أسبابه:

فبالنسبة للشيخين أحمد الطيب شيخ الأزهر وعلى جمعة مفتى الجمهورية فهما مرتبطان بالسلطة بشكل مؤسسى مما يجعل من غير الممكن عدم الدفاع عنها، أما البابا شنودة بطريرك الكنيسة القبطية فلا يحركه فقط فكره المحافظ بل يخشى كذلك أن ينقلب مثل هذا التمرد فى النهاية على مصالح طائفته. فهذا المحارب العجوز كان على غير وفاق مع السادات الذى حدد إقامته، أما حسنى مبارك فقد أجاد التعامل معه. فشنودة يظهر ولاءً يجعله أحيانا أكثر ملكية من الملك، ومثال ذلك موقفه فيما يتعلق بفلسطين فقد منع أقباط مصر من الحج إلى القدس. أما الشيخ أحمد الطيب فقد اتخذ موقفًا أكثر مرونة بعدما لاحظ حجم المتظاهرين. أما البابا فقد طلب مرة أخرى يوم الجمعة من رعيته عدم التظاهر بعدما قدمته السلطة من «تنازلات» مما أثار غضب العديد من أفراد طائفته أما الحركات العلمانية داخل الكنيسة فلم تستطع أن تجعل صوتها مسموعا.

الكيل بمكيالين

اما كنيسة الأقباط الكاثوليك المرتبطة بروما فقد شهدت جدلا كبيراً، فقد ارتأى البابا ضرورة طمأنة مبارك من خلال دعمه وصلواته. أما القساوسة البروتستانت فقد أظهروا جرأة أكثر. ويشكل ملايين الأقباط المصريين فى مصر أكبر كنيسة فى العالم العربي[1]. وهم لا يعدون على الإطلاق قطعة من الغرب بل إن الأقباط يميلون إلى اعتبار أنفسهم أكثر مصرية من غيرهم، فكنيستهم موجودة من قبل الفتح الإسلامى. ألم تكن كلمة أقباط بالعربية تعنى فى الأصل «مصريون»؟ بعض الأقباط خاصة فى الريف مازالوا يقومون بعمل وشم أزرق بصليب صغير حول الرسغ. أما الباقون ممن ينتمون لكافة الطبقات الاجتماعية من الأكثر فقرا إلى الأكثر ثراء فلا يختلفون فى شيء عن إخوانهم المسلمين، وهنا لابد من الإشارة أن هناك اختلافا فى الذى قد حدث، بعدما أرتدت غالبية المسلمات

---

(١) ٦٪ وفقا للتقديرات الحكومية و١٠ ٪ أو أكثر وفقا لمصادر مختلفة.

الحجاب. كما يعانى الأقباط من التمييز فهم لا يرتقون المناصب العليا فى الجيش كما يمنعون - فيما عدا استثناءات نادرة - من مناصب المحافظين أو رؤساء الجامعات.

فى المقابل، يوجد دائمًا داخل الحكومة وزيران أو ثلاثة من الأقباط. وحتى الأيام الأخيرة، قبل إقالة حكومة نظيف كانت وزارة المالية يشغلها يوسف بطرس غالى ابن شقيق الأمين العام الأسبق للأمم المتحدة. كما يلاقى الأقباط فى مصر صعوبات شديدة للحصول على تصاريح بناء كنائس جديدة، بينما أماكن الصلاة للمسلمين فى ازدياد مستمر. فهناك تعارض صارخ فى الدستور المصرى، فبينما تنص المادة ٤٠ على أن كل المواطنين متساوون أمام القانون دون تمييز بسبب الدين أو المعتقدات،فأن المادة الثانية (التى تمت مراجعتها فى ١٩٨٠ فى عهد السادات) قد أشارت إلى أن الإسلام هو دين الدولة وأن مبادئ الشريعة هى «المصدر الرئيسى للتشريع». وحتى هذا التاريخ لم تكن إلا «أحد» المصادر الرئيسية.

بدأت الأحداث الطائفية مؤخراً تأخذ أبعادا دموية، وهى تعود فى الغالب إلى تغيير بالإكراه للدين أو إلى قصص حب. والقانون المدنى والقانون الدينى يؤججان هذه المشكلات. فمن ناحية لا يجوز لمسيحى أن يتزوج من مسلمة بينما يحق للمسلم الزواج من مسيحية. من ناحية أخرى لا تبيح الكنيسة الطلاق مما قد يدفع بعض المسيحيين لتغيير دينهم لإبطال الزواج، ولإخفاء هذه المشكلات تلجأ السلطة إلى «الوحدة الوطنية» وهو ما سارعت إلى القيام به بعد اعتداء أول يناير عام ٢٠١١ أمام كنيسة القديسين بالإسكندرية.

فى نفس اليوم نشر هانى شكر الله أحد كبار الصحفيين المصريين مقالا تاريخيا بعنوان «إننى أهتم !» يعبر فيه بوصفه مصريا وليس قبطيا عن رأيه ويدعو أبناء وطنه إلى طرح النفاق جانبًا: «مرة أخرى سنقوم جميعا مسلمين ومسيحيين، أعضاء حكومة ومعارضة، كنائس ومساجد، رجال دين وعلمانيين، وبكل صدق وبصوت واحد بإدانة القاعدة والمجاهدين الإسلاميين والمتعصبين من كل الحركات بشدة

(...) ليس مجرمو القاعدة المتعطشون للدماء أو عصابات البلطجية المتورطة فى مذبحة الإسكندرية هى ما يثير قلقى، إننى أتهم حكومتنا التى يبدو أنها تعتقد أنه يمكنها من خلال المزايدة الإسلامية القضاء على التعصب (...) أتهم هذه الإدارات السياسية التى هى على قناعة بأنها من خلال دعمها للتيار السلفى تكافح بفاعلية الإخوان المسلمين المصريين، ولا يتورعون فى الوقت ذاته من تأجيج مشاعر الكراهية تجاه الأقباط من أجل صرف الرأى العام عن مشكلات سياسية مقلقة أكثر. ولكننى أهتم بوجه خاص بملايين المسلمين الذين رغم أنهم يقولون عن أنفسهم معتدلين ويعيشون بيننا ولكنهم يبدون أكثر تشككا وأكثر انغلاقا على أنفسهم وأكثر ضعفا».

المرأة التى تصب الماء

لم يسجل منذ الخامس والعشرين أى حادث طائفى على الرغم من أن الشرطة لم تكن تؤمن الكنائس والأديرة. اختفت كل المظاهر الطائفية تماما كما يذكر أحد كتاب المقالات الافتتاحية[1] وهى لا تظهر على أيه حال فى ميدان التحرير، حيث يسود جو رائع من الأخوة والتسامح المتبادل. وهو المناخ العام الذى سيصوره منشور لا يحمل توقيعا وزع يوم ٢٣ من فبراير خلال إحدى المظاهرات. لا شك من أنه على الرغم من تجميله الواقع إلا أنه يعد شهادة على الطريقة التى رأى بها المتظاهرون أو أرادوا رؤية المجتمع المصرى، يقول الكاتب المجهول للمنشور: «إننى جزء من أولئك المتظاهرين الذين عاشوا فى ميدان التحرير(...) رأيت بلد الأحلام الذى أتمنى أن تكونه مصر جمهورية ميدان التحرير. رأيت سيدة ينسدل شعرها الطويل وتدخن سيجارة تقف إلى جوار رجل ملتح يصلى. لم يكن ينظر إليها على أنها فاسقة ولم تكن هى تراه متطرفا أو متخلفًا. فى الميدان رأيت يوم موقعة الجمل امرأة منقبة تقوم بعمل ضمادة على ركبة رجل جريح لم يكن مرتديا

(١) فهمى هويدى - الشروق - ٨ فبراير ٢٠١١.

سرواله. لم تقل إنه عار، فهى لم تنظر إليه بعيون الأنثى ولم يكن مشهدًا بين رجل وامرأة. فى الميدان رأيت رجلا يتوضأ وتصب له المياه امرأة مسيحية . لم تكن هذه المرأة ترى أنها تساهم فى أمر يتعارض مع دينها كما لم يرى هذا الرجل أن هذا من شأنه إبطال وضوئه. رأيت مسيحيين ينزلون الشارع على الرغم من منع الكنيسة، ورأيت سلفيين يأتون على الرغم من أن شيوخهم وشيوخ الأزهر نهوهم عن ذلك، رأيت بهائيين يخرقون ما يحظره دينهم ويتدخلون فى السياسة. ورأيت أيضًا ملحدين بلا دين، كانوا جميعا مصريين».

ولكن مصر لم تكن كلها ميدان التحرير. حتى فى مدينة مثل الإسكندرية ذات الماضى الكوزموبوليتانى العريق كانت هناك بعض التوترات. فقد التقى صحفى فرنسى ببعض المسيحيين الذين أثارت الأحداث قلقهم «بالأمس قرر إبراهيم فوزى أخيرا والألم يعتصر قلبه ألا يشارك فى مظاهرات الإسكندرية، هذا الشاب القبطى الذى يعمل فى مجال العقارات كان قد انتابه فى نهاية الأسبوع الماضى شعور بالعزلة وسط هذه المجموعات الكبيرة من المواطنين ذوى الأغلبية المسلمة «كنت أشعر أحيانا أنهم يوجهون لى نظرات غريبة» قال إبراهيم وهو يظهر وشم الصليب على رسغه. وأول أمس عندما اشتبك معه مجموعة من الشباب المتحمسين من جامع القائد إبراهيم انسحب الرجل وعاد إلى منزله، وأطرق غاضبًا «لقد اخترت التظاهر لحماية بلادى لا لكى تقع فى أيدى الإخوان المسلمين»[1].

---

(١) سيريل لويس – الفيجارو – ٢ من فبراير ٢٠١١.

٢٥

مليارات ومليارات

يرى بعض المصريين أن السباب واللوم اللذين ينصبان على «الرئيس» منذ الخامس والعشرين من يناير ظالمان، «فهو ليس صدام حسين أو ابن على» هكذا يقول البعض. الأكبر سنًا يتذكرون أنه بعد انتخابه فى بداية الثمانينيات أعطى خليفة السادات لنفسه صورة الفارس المغوار عندما قام بهدم الفيلات الفخمة التى بنيت بشكل غير قانونى بجوار بعض المواقع التاريخية. وحتى لو كانت كثير من الشائعات قد سرت فى السنوات الأخيرة فإن عائلة مبارك لم يُعرف عنها نهب البلاد، على العكس من الرئيس التونسى السابق، وأطلقت نكات عديدة من نوعية سيدى الرئيس، «ابنكم علاء يريد أن يوصل ما بين شقتين بردهة» - «حسنًا» - «المشكلة أن إحدى الشقتين فى الإسكندرية والأخرى فى أسوان».

ومع ذلك فليس بوسع أحد إنكار أن الفساد قد وصل إلى أعلى مستويات الدولة، واستشرى فى كافة طبقات المجتمع. كيف لهذا الموظف البائس الذى يضطر لإيجاد وظيفة ثانية فى اليوم حتى يتمكن من إطعام أسرته أن يقاوم البقشيش الذى يقدم لتسريع الإجراءات؟

فى عام ١٩٩٧، كان بعض الصحفيين على وشك الإفصاح عن حصول أبناء مبارك على عمولات، عندما قامت شركة مصر للطيران بشراء عدة طائرات

إيرباص. ولكن لم ينشر مقالهم، وألقى بهم فى السجن ولكن حسنى مبارك نفسه لم يعرف عنه تعطشه للمال.

نشرت جريدة الجارديان اللندنية يوم السبت ٥ من فبراير مقالا أثار ضجة، فوفقًا لهذا المقال فإن ثروة مبارك قيمت من قبل بعض الخبراء فيما بين ٤٠ و٧٠ مليار دولار. وهى تتكون أساسًا من عقارات موجودة فى لندن ونيويورك ولوس انجلوس كما أن الرئيس وزوجته وأبناءه قد وضعوا مبالغ ضخمة فى بنك سويسرى (UBS) وبنك (Bank of Scotland) كما أن الرئيس قد استفاد - أيما استفادة - من القانون الذى يجبر كل مستثمر أجنبى على أن يكون له شريك مصرى، وهكذا لم يكن بحاجة إلى أن يستثمر هو نفسه لكى يحصل على نصيبه من الكعكة.

ودعمت الجارديان مقالها بتعليقات بعض المتخصصين فى شئون الشرق الأوسط مثل كريستوفر دافيدسون من جامعة درهام أو أمانى جمال أستاذ العلوم السياسية بجامعة بريستون، ولكن الأمر يتعلق بتحليلات منطقية أكثر منها معلومات. فالأرقام المعلنة يبدو أنها محض تقديرات تمت بناء على بعض الممارسات المشابهة التى حدثت فى بلاد أخرى.

لكن هذا فى حد ذاته كان كافيًا لصدم الناس فى مصر، فهذا الرقم الفلكى غذى شعور الظلم الذى تعانيه أسر لا حصر لها فى مصر، تعانى من سياط البطالة وارتفاع الأسعار، وهنا تتجسد هذه النكتة التى أطلقها البعض: «نبه أحدهم مبارك قائلاً: سيدى الرئيس الشعب جائع حتى إنه سياكل الحجارة. فأجاب الرئيس: قول لعلاء أن يشترى كل الحجارة فى البلد».

فى ميدان التحرير، خرج المحامون (en toge) فى زى المحاماة) يهتفون: «حسنى مبارك يا غدار جبت منين ٧٠ مليار؟».

أحد المتظاهرين قام بتحويل العملة ورفع لافتة عليها: «٧٠ مليار دولار =٤٠٠ مليار جنيه».

فوق أحد المنصات وقف أحد الفلاحين وقد بدا ضائعًا وسط هذه الأرقام وقد أثار رغمًا عنه ضحك الجميع عندما أعرب فى الميكروفون عن دهشته قائلاً بلهجة صعيدية «مليار دولا ! هل تتخيلون! هذا يعنى ١٠٠,٠٠٠ دولار!».

فى أعقاب مقال الجارديان طلبت ٣٧ شخصية من بينها ١٤ أستاذا جامعيا و٦ نواب سابقين من النائب العام إجراء تحقيق عن ثروة عائلة الرئيس[(١)].

كما كتب أحد كتاب الأعمدة بجريدة خاصة: «الرئيس مبارك كان راعى الفساد فى البلاد، ولا مناص من رحيله حتى يمكن محاربة الفاسدين»[(٢)].

وقد حرصت العدالة على ذلك بجرأة وسرعة غير معهودين لديها، حتى أصبح كل يوم يحمل طائفة جديدة من الأخبار. بعض وزراء الحكومة المقالة الذين جمدت أرصدتهم سيمثلون أمام المحكمة الجنائية فى القاهرة يوم ١٠ من فبراير وهم: أحمد محمد المغربى (الإسكان) زهير جرانة (السياحة) رشيد محمد رشيد (التجارة والصناعة). من ناحية أخرى، طالب النائب العام برفع الحصانة البرلمانية عن ملك الحديد الرجل ذى النفوذ الواسع «أحمد عز» لاتهامه بإهدار المال العام. كما يواجه الاتهامات أيضا اثنان من رؤساء الوزراء السابقين: عاطف عبيد الذى رأس الحكومة من عام ١٩٩٩ إلى عام ٢٠٠٤ وخلفه أحمد نظيف الذى ظل فى منصبه حتى ٢٩ من يناير. واتهم نائب سابق بالبرلمان أحمد نظيف بتكوين ثروة قدرها ٥ مليارات دولار[(٣)].

وبدأت الأرقام تتزايد وكل فرد يقوم بوضع تقديراته الخاصة. وفى نهاية عملية حسابات جريئة - لن يكون بمقدور أحد تحرى مدى دقتها - أكدت إحدى

---

(١) الشروق ١٠ من فبراير.

(٢) أحمد الصاوى - المصرى اليوم - ١٠ من فبراير ٢٠١١.

(٣) اتهامات مصطفى بكرى نقلاً عن جريدة الشروق ١٠ من فبراير ٢٠١١.

جرائد المعارضة أن إجمالى أموال الدولة التى هربت وصل إلى ٢ تريليون جنيه مصرى أى ٣٠٠ مليون مليار يورو[1].

«لا تدخل أو لا مبالاة»

هذا الطوفان من أرقام الثروات مع نجاح المظاهرات ضد النظام كان لابد أن يشجعا المطالب الفئوية التى تعددت فى كل أنحاء البلاد سواء داخل قطاع الدولة أو القطاع الخاص.

يوم الإثنين ٧ من فبراير تجمع مئات الأشخاص - ممن قدمت لهم وعود بالحصول على مساكن شعبية - أمام محافظة القاهرة لعدة ساعات وقد أمسكوا بملفهم فى أيديهم مطالبين بمنحهم ما وُعدوا به، وصاحوا مهددين «إذا لم تدعونا ندخل سنذهب إلى ميدان التحرير» وانتهى الأمر بأن فتحوا لهم الأبواب.

صرح رئيس الوزراء الجديد أحمد شفيق قائلا «إن الحكومة مهمومة بالمواطن المصرى، وترغب فى تحسين مستوى معيشته» ولكن حسنى مبارك الذى لا يزال فى منصبه رغبة منه فى إظهار ذلك هو الذى يصدر فى نفس اليوم قرارًا بزيادة المرتبات بنسبة ١٥٪ للعاملين بالدولة والمعاشات اعتبارا من أول أبريل. من ناحية أخرى سيخصص مبلغ ٥ مليار جنيه (٨٤٠ مليون دولار) لمنح تعويضات للتجار ورجال الصناعة وأصحاب السيارات التى تعرضت للسرقة أو للسلب والنهب.

ولم يغفل الفلاحون، فوزير الزراعة قام بعمل إعادة جدولة لديونهم، وكل من سجنوا لعدم قدرتهم على السداد أطلق سراحهم.

فى ميدان التحرير، أصابت هذه الإجراءات المتظاهرين بصدمة. ويقول محمد نزار، ٣٦ عامًا «لم ينفذ أى شيء من طلباتنا، لقد أعلنوا عن زيادة فى المرتبات،

(١) الدستور، ١٠ من فبراير ٢٠١١.

إنهم يحاولون خداعنا، هذه رشوة سياسية لشراء صمت الشعب»[1].

ترى الولايات المتحدة أنه «من الضرورى» أن تعبر مصر إلى مرحلة انتقالية ديمقراطية «منظمة» هذا ما أكده وزير الدفاع الأمريكى روبرت جيتس. ومن أجل ذلك قام البيت الأبيض بإرسال مبعوث خاص إلى مصر هوفرنك ويزنر السفير الأسبق فى القاهرة والمعروف عنه أنه محل ثقة حسنى مبارك. وهى ثقة فى محلها على ما يبدو، إذ أعلن المبعوث الأمريكى أنه من الحكمة أن يقود «الرئيس نفسه هذا الانتقال المنظم». والواقع أن الدستور المصرى ينص على أنه فى حال خلو منصب الرئاسة فإن رئيس مجلس الشعب يتولى المنصب بالإنابة، وتجرى انتخابات خلال ستين يومًا. هذا الاقتراح سيجرى بالضرورة وفقًا للقوانين الحالية، وهو ما يرفضه المتظاهرون. فمن الأفضل إذًا أن يظل الرئيس مبارك فى منصبه حتى نهاية فترته الرئاسية فى سبتمبر، ويقوم بتنظيم انتقال السلطة. وكان رد فعل المعارضين شديد القوة مما حدا الإدارة الأمريكية على الإسراع بفصل نفسها عن المبعوث، مؤكدة أن هذا التصريح لا يلزم أحدا سواه.

طالبت الدول الغربية أيضا بـ «انتقال منظم للسلطة»، ولكنهم كانوا كمن يسير فوق البيض، فهم لا يعرفون إلى ما ستؤول الأمور، ويخشون أن يتهموا بالتدخل فى الشئون الداخلية للبلاد.

واجهت الحكومة الفرنسية انتقادات شديدة فيما يتعلق بتونس، وأُخذ عليها أنها كانت على علاقة وثيقة بالنظام السابق، ولم تستمع إلى أصوات المجتمع المدنى، ولا يود نيكولا ساركوزى تكرار نفس الخطأ مع مصر، على الرغم من كون حسنى مبارك شريكًا له فى المبادرة التى كان يدافع عنها قلبا وقالبًا وهى «الاتحاد من أجل المتوسط» . كيف يمكن مسايرة رياح التاريخ دون التعرض للاتهام

(١) جيوم لا فالية - الفيجارو - ٨ من فبراير ٢٠١١.

بالتدخل؟ هذا الانطباع الذى حرصت فرنسا على إعطائه هو ما عبر عنه وزير الصناعة الفرنسى إريك بيسون عندما قال: «لا للتدخل ولا للمبالاة ؟؟» من جانبه دعا وزير الدفاع ألان جوبيه إلى «نشوء قوى ديمقراطية» فى خلال مرحلة ديمقراطية تجرى «دون عنف وبأسرع ما يمكن».

نفـى طبـى إلى ألمانيا

خلال اجتماعهم فى ميونيخ يومى ٥ و٦ من فبراير بالمؤتمر الـ٤٧ للأمن تساءلت الدول الغربية عن أفضل وسيلة لمصاحبة هذا «الانتقال المنظم».

ولم تتردد المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل فى الحديث عن تجربة بلادها لتقديم بعض النصائح للمصريين فقالت: «نحن أيضا كنا متعجلين للغاية عندما قررنا منذ ٢٠ عامًا التخلص من ألمانيا الاتحادية، كنا نرغب على الفور فى deutschmark ولا نرغب فى انتظار الاتحاد».

وحرصت مدام ميركل تمامًا على عدم تأكيد الإشاعات التى تسرى فى بلدها، والتى تؤكد أن حسنى مبارك قد يتوجه إلى ألمانيا لرحلة علاج مطولة، وهذه تكون بالنسبة له وسيلة أنيقة لترك السلطة. ألا يقال إنه مريض؟ وقد سبق له مرتين السفر للعلاج فى ألمانيا عام ٢٠٠٤ لتعرضه لانزلاق غضروفى وكذلك فى مارس عام ٢٠١٠ وكانت حسب الرواية الرسمية - لاستئصال المرارة (ويعتقد أنه كان يعانى من سرطان البنكرياس أو القولون) وقد أجريت اتصالات ببعض المستشفيات الفخمة فى مناطق الغابة السوداء بالقرب من بادن - بادن - ولى ماتس - جروندنج - كلينيك من اجل هذة الرحلة العلاجية الثالثة والتى كان من المتوقع لها أن تمتد[1].

---

(١) جريدة دير شبيجل - ٧ من فبراير ٢٠١١.

كان العديد من النواب الألمان من اتجاهات مختلفة يشجعون هذا الحل. ولكن أعضاء حزب الخضر رفضوا أن تصبح بلادهم ملاذًا «للمستبدين». وهددت بالفعل بعض منظمات حقوق الإنسان بملاحقة حسنى مبارك جنائيًا إذا ما خطرت له هذه الفكرة السيئة فكرة أن يتخذ من ألمانيا منفى له. ويتردد أيضا - وفقًا للقول المأثور لا تمنح حصانة إلا للأثرياء - أن مبارك قد وضع بعض ملايين الدولارات فى أحد بنوك ألمانيا مما قد يزيد من تعقيد الأمور.

ووفقًا لإحدى الجرائد اليومية المصرية فإن بعض الشخصيات المصرية رفيعة المستوى قد قامت بزيارة لبضع ساعات إلى برلين دون حتى إخطار السفارة المصرية هناك[1]. ولكن لم يحدث أى تأييد رسمى أو غير رسمى لهذه الشائعات، وإذا كانت هناك عدة سيناريوهات مطروحة فلا يوجد ما يؤكد أن الرئيس نفسه على استعداد لقبول هذا الإبعاد الصحى حتى لو كان داخل مستشفى خمس نجوم مشهور بطعامه الطيب.

يوم الثلاثاء ٨ من فبراير شكل حسنى مبارك - بمقتضى مرسوم - لجنة مكلفة بوضع مقترحات للتعديلات الدستورية. ولكن كانت هذه وسيلة للتذكير بأنه لا زال يقبض على زمام الحكم، لكنها قد تكون وسيلة أيضًا لوضع حد لهذه المشكلة الدستورية. ألن يكون بذلك يرفع أحد العوائق أمام نقل السلطات إلى نائب الرئيس الذى لم يكن من ضمن صلاحياته تعديل المواد التى تغلق أبواب النظام؟ فإذا ما استقال مبارك وظل الدستور على حاله سيكون بالإمكان عمل انتخابات رئاسية خلال شهرين، وستكون كما هو الحال اليوم متاحة فقط أمام المرشحين المتقدمين عن طريق حزب فى البرلمان وذلك لفترات رئاسية غير محدودة. باختصار مرشح الحزب الوطنى الديمقراطى يمكنه أن يظل فى موقعه حتى آخر أيامه.

---

(١) المصرى اليوم - ١٠ من فبراير ٢٠١١.

كان الفقهاء الدستوريون يفكرون فى هذه المعطيات الجديدة، بينما ظل المتظاهرون يرددون «ارحل» أو «امشى» أيضا باللغة الدارجة. وظهرت لافتة جديدة فى ميدان التحرير رُسم عليها الرئيس المتشبث بكرسى الرئاسة، وعلقت نقابة التجاريين متسائلة عن «نوع الصمغ الذى يستخدمونه».

٢٦

نجوم فى الميدان

يوم الأحد ٣٠ من يناير - خمسة أيام بعد بداية المظاهرات - كان عمر الشريف يراقب الميدان من شرفة أحد الفنادق الكبرى المجاورة. وقد أجاب فى حوار تليفونى أجرته «فرانس إنتر» قائلاً: «إننى أراقب كل ما يجرى من شرفتى فى الدور الـ١٧، وإننى متضامن تمامًا مع الشعب الذى أرى أنه أجاد التصرف أكثر بكثير من الحكومة. كان يجب على حسنى مبارك أن يستقيل، فقد ظل رئيسًا طوال ثلاثين عامًا، هذا يكفى، ولم يحسن من مستوى حياة المصريين». على الرغم من ذلك، أكد النجم العربى الوحيد المعروف على مستوى العالم أن الرئيس «قد اختار - لحسن الحظ - نائبًا جيدًا له هو عمر سليمان الذى يتمتع بعلاقات طيبة مع إسرائيل، وهذا هام للغاية». وأعرب الممثل ذو الأصل المسيحى البالغ من العمر ٧٨ عامًا الذى مثل فى فيلم «لورانس العرب» عن تخوفه من الإخوان المسلمين: «إننى أخشى منهم، فقد ظلوا منغلقين، وبدءوا الآن فى الظهور وهم يمثلون ٢٠٪ من السكان وهو ما يثير قلقى إلى حد ما».

بعض الممثلين المصريين الأقل شهرة فى الغرب وذوو الشهرة الواسعة فى مصر تباينت مواقفهم خلال هذه الأيام المضطربة. على سبيل المثال منى زكى وزوجها أحمد حلمى، فقد توجها للتحرير لمساندة الثوار، وبالطبع قوبلا بالهتاف.

نفس الوضع بالنسبة لبسمة أحد السيد التى تأتى من عائلة سياسية، فجدها يوسف درويش - يهودى - هو أحد مؤسسى الحزب الشيوعى المصرى، ووالدها صحفى يسارى، أما والدتها فهى مناضلة فى الحركة النسائية. ولكن الفنانة البالغة من العمر ٣٤ عامًا كانت حتى هذا الوقت تصرح أنها ليست منحازة سياسيًا، فى محاولة منها - على ما يبدو - أن تتخذ مسارًا منفصلاً عن عائلتها.

كان عالم السينما أيضًا ممثلاً فى الميدان من خلال جيهان فاضل وخالد الصاوى «الذى أدى دور ناصر فى مسلسل تلفزيونى ناجح» وعمرو واكد الذى نام فى الميدان بعد اعتقال أخيه الذى نزل الميدان معه فى ٢٥ من يناير. وفى يوم ٤ من فبراير شوهد الممثل والمنتج خالد عبد الله وهو يجمع القمامة من الميدان. وفى صبيحة اليوم التالى تحدثت الفنانة محسنة توفيق أمام هذا الجمع الغفير قائلة: «هذه الثورة الشعبية المصرية الأولى إنها رمز ضد الفساد والقمع وليس فقط فى بلدنا لكن فى العالم العربى أجمع»[1].

أما الممثل الكبير عادل إمام الذى لعب أحد الأدوار الرئيسية فى عمارة يعقوبيان فقد تجنب الظهور فى الميدان بعد أن وجه النصح للمتظاهرين عبر حديث تلفزيونى بالعودة لمنازلهم، كما لم يتوقع أحد أيضًا رؤية ليلى علوى وهى قريبة بالنسب لحسنى مبارك.

أما الجيل الأقدم من الفنانين مثل يسرا وسهير رمزى فيؤيدون «الزئيس» على الأغلب، ولكن الجدل يتحول إلى مجرد صراع أجيال. أما الممثلة الشابة غادة عبد الرازق فقد أعلنت بوضوح عن تأييدها لمبارك، مما أدى إلى خلاف حاد بينها وبين المخرج والسيناريست خالد يوسف المساعد الأسبق ليوسف شاهين، فهو الذى أعرب عن انحيازه الكامل للمتظاهرين تمامًا مثل زميله يسرى نصر الله. أما بالنسبة للممثل طلعت زكريا فكان من الأفضل له عدم الظهور فى ميدان التحرير،

---

(١) جاك جكر ومصطفى خليل - الجارديان - ٥ فبراير ٢٠١١.

بعد أن وصف ما يجرى فى الميدان بحفلات جنس ومخدرات، ويبدو أن إحدى اللافتات رفعت للرد عليه: «فى الأول سيتجاهلونك ثم يسخرون منك ثم يحاربونك وفى النهاية ستنتصر».

بعض المبدعين والفنانين لم ينتظروا الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١ للتعبير عن انتقادهم للنظام، ولكن أغلب الفنانين قد كبروا فى ظل نظام مبارك، وحظوا بالتدليل من قبل النظام، وأيا ما كانت مشاعرهم فلم يكن من السهل عليهم الوقوف ضد النظام بين ليلة وضحاها.

أما المطرب عمرو دياب - وهو نجم كبير - فقد اختار السفر إلى لبنان وتعرض للوم لالتزامه الصمت، وقد حاول أن يعوض ذلك بإذاعة أغنية عبر الإنترنت مخصصة للثورة، ولكنه لم يتلق مساعدة ملحنه «عمرو مصطفى» الذى يشك فى أن هناك أجانب يحركون حركة التمرد هذه: فقد أكد أنه اكتشف وجود سويسريين إسلاميين، وقام بمصادرة جوازات سفرهم لتسليمها إلى الشرطة.

أغنية

كان هناك نجم أغنية آخر هو تامر حسنى الذى كان فى بادئ الأمر مناهضًا للحركة ثم حاول تصحيح موقفه إلا أنه طرد من الميدان. فى المقابل حظى الملحن عمار الشريعى بمسامحة الجميع بل إنه قوبل بتصفيق حاد فى يوم «جمعة الرحيل» (٤ من فبراير). فقد اشتهر قبل الأحداث بأغنية عن مبارك هى «اخترناك». وقد بدأ المتظاهرون يتسلون بتغيير كلمات الأغنية ويغنونها: «ما خترناكش ومش عايزينك، قاعد ليه؟» ولكن أيقونة الثورة الحقيقية فى الميدان هى بلا شك «إزاى» التى قدمها المغنى الشهير محمد منير قبل بداية الأحداث والتى اعتبرها الكثيرون «أغنية الثورة».

وفيما بين المظاهرات برزت مواهب جديدة، على سبيل المثال الملحن والمغنى السكندرى الشاب حمزة نمرة الذى يغنى بمصاحبة جيتاره واضعا علم مصر على كتفيه. وقد أشعل الميدان بأغنية «احلم معايا» و«شد الحزام». تمضى الليالى ولابد

من شغلها، فبدأ تمثيل بعض الفقرات الكوميدية القصيرة فوق إحدى المنصات. وبدأ أيضا ترديد القصائد خاصة أشعار أحمد فؤاد نجم التى كتبها أثناء المظاهرات الطلابية فى السبعينيات، وقد أعرب الشاعر (٨١ عاما) عن سعادته بهذا التقدير، وإن كان قد قال إنه «عجوز جدا» على التواجد فى ميدان التحرير. أصدر اتحاد الكتاب المصريين بيانا لتأييد المتظاهرين منذ ٢٧ من يناير حصلت فيه على شبه الأغلبية من بين الكتاب «لقد استمعنا هنا إلى ما كنا نكتبه منذ سنوات» هذا ما قاله رئيس الاتحاد محمد سلماوي[(١)].

غداة موقعة الجمل تنازل الكاتب بهاء طاهر عن جائزة مبارك الأدبية التى حصل عليها عام ٢٠٠٩ قائلاً: «إن الجريمة التى ارتكبت تعطى ألف مبرر لقيام الثورة». فى التسعينيات حاول النظام أن يضم النخبة الثقافية إلى حربه المعلنة ضد الإظلام الدينى، وقد باءت المحاولة فى جزء كبير منها بالفشل، ثم جاء دخول جمال مبارك إلى الساحة السياسية ليزيد من اتساع الهوة بين السلطة والمثقفين، فقد أدرك المثقفون سريعا أن ولى العهد المختار سيميل لاستشارة رجال الأعمال أكثر من الكتاب والشعراء، وهو ما عبر عنه الكاتب السكندرى إبراهيم عبد المجيد (لا أحد ينام بالإسكندرية) الذى كان متواجدا فى الميدان بهذه الكلمات: «لقد شاخ النظام، وأصابه التراخى، وأحاط نفسه برجال أعمال، هذا الزواج بين السلطة والثروة ينزع عن الشعب كل ملكاته الاقتصادية والنفسية والإنسانية»[(٢)].

---

(١) حديث مع محمد سلماوى - القاهرة - ٢٣ من مارس ٢٠١١.

(٢) دينا خليل - الأهرام إيدو - ٩ - ١٥ من فبراير ٢٠١١.

٢٧

بطل إنترنت

كان قد اختفى منذ الثامن والعشرين من يناير ولم يظهر إلا يوم الاثنين ٧ من فبراير: هو وائل غنيم مسئول التسويق بجوجل الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وقد علمنا من ناحية أنه اعتقل من قبل جهاز أمن الدولة المخيف، كما علمنا من ناحية أخرى أنه الأدمن المجهول لصفحة الفيس بوك كلنا خالد سعيد (اسم المدون الذى ضربته الشرطة حتى الموت فى الإسكندرية). روى الشاب ذو الثلاثين عاما هذه المغامرة السيئة على قناة دريم الخاصة فى برنامج التوك شو ذى الجماهيرية الواسعة الذى تقدمه منى الشاذلى وقد قام بكلمات بسيطة أثرت فى وجدان المشاهدين. لا لم يعذب جسديا ولكنه ظل لمدة عشرة أيام معصوب العينين بعد أن اتهم بالعمل لتحقيق مصالح خارجية. ألا يعيش فى دبى؟ أليس متزوجا من أمريكية؟

وقد صرح أمام التلفزيون: «لو كنت خائنا لجلست بمنزلى بالإمارات حول حمام السباحة» وطوال فترة اعتقاله لم يطلع على أى أخبار. وربما يعود الفضل فى إطلاق سراحه إلى وزير الداخلية الجديد محمود وجدى الذى التقى به، أو إلى الأمين العام للحزب الوطنى الديمقراطى حسام بدراوى الذى أعرب له عن أسفه، وقد تحدث وائل غنيم عنهما دون أن يدينهما، بل إنه عانق سجانيه قبل أن

يغادرهم. ولكن عندما عرض أمامه صور الشباب الذى لقى مصرعه سواء على يد الشرطة أو من قبل الموالين للنظام، بدأ يتحدث باضطراب شديد: «دى مش غلطتنا دى غلطة كل واحد متشبث بالسلطة ومش عايز يسيبها». وانفجر باكيا وغادر البلاتوه بعد أن بكى معه كثير من المشاهدين مثل المنتج جابريل خورى الذى كان حتى هذه اللحظة يتابع الأحداث من منزله بقلق شديد. وذهب فى اليوم التالى للتظاهر فى ميدان التحرير[1].

فى الميدان استقبل وائل غنيم وبصحبته والدة خالد سعيد استقبال الأبطال من قبل مئات الآلاف من الأشخاص.، مرتديا تى - شيرت وجينز واضعا فوق رأسه قبعة صغيرة. صاح وائل غنيم أمام الجماهير: «لست بطلاً أنتم الأبطال أنتم من ظللتم هنا». وأضاف: «كنت قد أطلقت عليها ثورة الفيس بوك ولكن بعد أن رأيت الناس هنا سوف أطلق عليها ثورة الشعب المصرى».

كانت هذه الحركة التى لا زعيم لها بحاجة إلى رمز يمثلها وكان وائل غنيم هو هذا الرمز على الأقل بشكل مؤقت.

منظمون رائعون

التقط المصورون فى ميدان التحرير فى يوم الثلاثاء هذا صورا لبعض الوجوه المعروفة: أحمد زويل الحاصل على جائزة نوبل فى الكيمياء عام ١٩٩٩، المهندس ممدوح حمزة، وزير النقل السابق عصام شرف (الذى وجد نفسه على رأس الحكومة بعد أقل من شهر من هذا التاريخ) وقد تجمعوا أمام نصب تذكارى أعد سريعًا فى مربع من النجيلة الخضراء محاطًا بالأعلام وضعت فيه صور ثلاثين من الشهداء. وهكذا تأكد أن هذه الحركة التى بلا قائد لها عدد كبير من المنظمين الرائعين. فعلى إحدى المنصات قبل إعطاء الكلمة لإحدى الشخصيات، يتم تقديم

---

(١) كلود جيال - ليبراسيون - ١٠ من فبراير ٢٠١١.

أهالى واحد من الشباب الذى قتلته الشرطة أو على يد أحد أنصار النظام. كل هذا ساهم فى «إضفاء مزيد من الحماس لخطابهم».

يقول السيد عصام شويكى وهو محامى جاء مرتديا رداء المحاماه الأسود وواضعا نظاره شمسية قائلاً: «يجب أن نظل متيقظين، فإذا ما غادرنا ميدان التحرير فسيتم إلقاء القبض علينا، حمايتنا الوحيدة فى تواجدنا هنا» هو على قناعة أن الحكومة تحاول عمل فخ للمعارضين . «لقد تأثرت كثيرًا بعد خطاب مبارك الأول عندما أعلن أنه لم يكن ينتوى الترشح للرئاسة، ولكن العمل الآخر الذى قام به يوم الأربعاء الماضى عندما أرسل أنصاره لاقتحام ميدان التحرير جعلنى أغير رأيى من جديد. لقد استمعنا من قبل إلى العديد من الوعود حتى فقدنا الثقة. إن مصر الحقيقية موجودة هنا». فى الميدان كان يسود جو أعياد لم يعد بالاستطاعة تحديد المعارض من الفضولى. ويقول محمد إبراهيم، ٢٩ عامًا[1]، «الأسبوع الماضى كان الخوف يسيطر على الناس ولكن الأمر الآن قد تحول لمهرجان» فالأسر تتوجه إلى الميدان مساء بعد العمل، بل إن الطبيب النفسى «أحمد عبد الله» ينصح مرضاه المكتئبين بالتوجه إلى ميدان التحرير[2].

حدث تباطؤ فى النشاط الاقتصادى منذ بداية الأحداث، وتأثرت السياحة كثيرًا، ولكن هنا فى الميدان فالباعة الجائلون فى حالة ازدهار شديد؛ فهم يبيعون الشاى والحلويات والسندوتشات والفشار والتمر والسجائر، وأيضا الأعلام المصرية وقبعات الرأس بألوان علم مصر وبالونات هليوم للأطفال كتب عليها «على مبارك أن يرحل».

من خلال الميكروفونات تم توجيه نداء: «لابد من إنقاذ البورصة المصرية»

---

(١) جييوم لا فاليه – وكالة الأنباء الفرنسية – ٨ من فبراير ٢٠١١.
(٢) دعاء خليل – الأهرام إيدو – ٩ – ١٥ من فبراير ٢٠١١

وبدأت الدعوة لكل مواطن لأن يقوم بشراء أسهم بـ ١٠٠ جنيه، وتلقفت الصحافة الدعوة وكان لها استجابة واسعة.

كانت هناك جريدة بل وإذاعة أيضا خاصة «بجمهورية التحرير المستقلة» وهو ما يفسره المذيع محمد على بقوله: «أى شخص كبير فى السن لا يستطيع الكتابة يمكن أن يعبر عن نفسه أمام الميكروفون كما إننا نذيع قصائد الشعر والأغانى الوطنية فقط وليس العاطفية»(١).

كما كان من الممكن متابعة الصحافة من خلال الجرائد المعلقة فوق أحد الحوائط. وكان هناك أيضًا حيز مخصص للمدونين ومكان لرعاية الأطفال. وغير بعيد من ذلك علقت يافطة توحى بأن حلاقة الشعر خلال هذه الأيام يمكن أن تكون مجانية «حلاق الثورة - مجانًا».

فى الميدان حرص ثنائى مشرف هو برداله الأسود وهى بفستان الزفاف الأبيض الطويل على عقد قرانهما فى الميدان، حضر جميع أقاربهم وارتفعت الزغاريد معبرة عن الفرحة بالزفاف والثورة على حد سواء. قام عروسان آخران بوضع خيمتهما بقلب الصينية الحجرية للميدان التى غطتها الخيام مصرحين بقولهما «لحن نمضى شهر عسلنا هنا».

فوق إحدى اللافتات كتب شاب صغير «ارحل» باللغة الصينية «فى حال ما إذا كان مبارك يجهل العربية».

كانت هناك حالة إبداعية فيما يتعلق باللافتات، فقد علقت بعض الملاحظات على إحدى اللافتات بأن وزير التعليم اسمه «زكى» لكن الطلبة أغبياء، ووزير المالية اسمه «غالى» والشعب فقير ووزير الداخلية اسمه «العادلى» والشعب يعانى القمع. بعض المظاهرات كانت تستغنى عن الكلمات، فقد قام أحد الأشخاص بعمل رقعه شطرنج على الأرض كان فيها الملك محاصرًا بواسطة جنوده.

---

(١) يورونيوز، ٩ من فبراير ٢٠١١.

ولكن على الألفى ليس له مثيل كقائد للمظاهرات، فهو متواجد بالتحرير كل الأيام، ويعرف كيف يطلق شعارا ويعطى الميكروفون للحشود لتردد وراءه، متظاهرا دائما بأنه لا يسمع صوتهم لترتفع أصواتهم أكثر. هذا الباحث فى العلوم السياسية البالغ من العمر ٣٩ عاما (تسعة فقط قضاها دون مبارك) يقول على الرئيس: «أنا واثق أنه سيرحل خلال أيام، أنا واثق ٢٠٠٪»[1].

عندما صعدت فتاة صغيرة إلى المنصة وهتفت فى أذنه صاح بصوت عال: «الطفلة نسرين تبحث عن أبويها»، وعلق أحد المنظمين قائلا: «الثورة تحمى أطفالها».

---

(١) دالفيه بونوا، وكالة الأنباء الفرنسية،٩ من فبراير ٢٠١١.

٢٨

من الفوضى إلى الانقلاب

لا مجال لمغادرة ميدان التحرير طالما ظل مبارك فى السلطة «مش هنمشى هو يمشى» هذا ما كان يردده المتظاهرون يوم الأربعاء ٨ من فبراير.

بعد قليل سيحتفل بزواج آخر فى الميدان. وبدأت الأصوات تعلو فى مكبرات الأصوات أمام الآلاف من المتظاهرين أصحاب الإصرار «لا تشعروا بالتعب، الحرية لم تتحرر بعد». ولكن المتظاهرين لا يريدون أن يقتصر تواجدهم على الميدان الذى ترغب السلطة فى حصرهم فيه. فأصبحوا يحاصرون البرلمان ومقر الحكومة المواجهة لها على بعد مئات الأمتار من الميدان.

وهكذا كان على مجلس الوزراء أن ينعقد خارج مقره فى مقر وزارة الطيران المدنى بمصر الجديدة. أما البرلمانيون فقد فهموا الرسالة، بعد أن وضعت يافطة كتب عليها «المجلسان مغلقان حتى رحيل مبارك» ويهتف المعارض مراد محفوظ وقد وضع فوق جبهته رباط رأس بألوان العلم الوطنى[1]. هذه ليست مجرد مظاهرة ولكن إقامة دائمة فى الميدان. وفى الليلة السابقة أحضرت خيم وأغطية وطعام وعلى سور البرلمان وضعت صورة تصور «الرئيس» بملابس سجين.

---

(١) ريمى أوردان، لوصند ١١ من فبراير ٢٠١١.

تهديد بانقلاب

أغلب المحال التجارية أعادت فتح أبوابها فى القاهرة، ولكن الحركات الاجتماعية تتزايد فى أجزاء كبيرة فى البلاد وصلت إلى نحو ١٠ محافظات، حيث بدأت مظاهرات وإضرابات لزيادة المرتبات ولتحقيق ظروف أفضل للعمل بداية من ترسانات بورسعيد إلى شركة الغاز فى الفيوم إلى مصانع الأسمنت فى حلوان. العاصمة كانت الأكثر تعرضا لذلك، فيوم يضرب سائقو الأتوبيسات العامة فيرفضون تشغيل محركات حافلاتهم، ويوم آخر عاملو القطارات يجلسون فى الطرقات ويمنعون القطارات عن التحرك، وقام الآلاف من الأطباء وطلبة الطب والمرضين بمستشفيات القصر العينى بمغادرة مرضاهم لبضع ساعات لكى يتوافدوا على ميدان التحرير. حتى المعلمون كانوا يتظاهرون، كما بدا يلوح فى الأفق إضراب أكبر مصانع النسيج فى مصر فى المحلة الكبرى بالدلتا.

فى تونس كانت «ثورة الياسمين» مدعومة من إحدى أقوى النقابات المركزية، أما هنا فى مصر فلا يوجد هيكل قادر على توحيد ونقل مظاهر الاحتجاجات. فى الأعوام الأخيرة تزايدت وتنوعت الحركات الاحتجاجية الجماعية (قطع طرق – إضرابات عن الطعام – اعتصام) ولكن خارج أى إطار سياسى أو نقابى . الآن يبدو أن كل الاحتجاجات تتم فى نفس الوقت، ولم تعد السلطة تعرف فى أى وقت تكثف جهودها، وتخشى إذا ما استجابت لمطالب مجموعة أو أخرى أن تنزلق فى دائرة لا خروج منها. وبدأت الأخبار المقلقة تتواتر من أغلب المحافظات. ففى أسيوط أوقف المتظاهرون خط السكة الحديد، وقطعوا الطريق السريع الذى يربط بين شمال البلاد وجنوب. حتى واحة الخارجة التى تقع على بعد ٤٠٠ متر من القاهرة شهدت مصادمات بين المتظاهرين ورجال الشرطة الذين استخدموا أسلحتهم مما أدى إلى مقتل ٩ أشخاص.

فى يوم ٨ من فبراير اجتمع عمر سليمان نائب الرئيس مع رؤساء تحرير الصحف المصرية ليوجه تحذيرا من أنه فى حال إذا ما استمرت الفوضى فلا يمكننا

أن نستبعد بعد التطورات السريعة وغير المتوقعة بشكل أوضح ستسفر الفوضى عن انقلاب عسكرى وهو ما كرره وزير الخارجية أحمد أبو الغيط: «إذا ما استمرت الفوضى ستجد القوات المسلحة نفسها مضطرة إلى حماية الدستور والأمن القومى لمصر» ولكن هذا التهديد لا يطيب كثيرا للصحفى الشهير محمد حسنين هيكل الذى كان مستشارا لناصر والذى يقوم بعمل مداخلات قوية (رنانة) دائما ما تثير الانتباه . فقد صرح قائلا: «إن الجيش هو حاليا الكيان الشرعى الوحيد للدولة وإذا ما اضطر إلى الاختيار بين النظام والشعب فسوف يختار الشعب حتما. وفى اللحظة الحاسمة لن تمثل لأى من عمر سليمان أو حتى مبارك اللذين لم يعودا عسكريين فقد ترك الأول الجيش منذ أكثر من خمسة وعشرين عاما وتركه الثانى منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاما»[1].

عطلة السيد رئيس الوزراء

قدم نائب رئيس الوزراء الأمريكى جوزيف بايدن يوم ٧ من فبراير اقتراحا إلى السلطات المصرية برنامجا من ٤ نقاط به توصية خاصة برفع حالة الطوارئ السارية من عام ١٩٨١. وهو الشرط الذى رفضه على الفور وزير الخارجية قائلا: «لدينا ١٧٠٠ سجين طليق فى الشارع بعد أن هرب السجناء من السجون التى دمرت. كيف تطلبون منا رفع حالة الطوارئ؟؟»[2].

كما عتب على الولايات المتحدة رغبتها فى «فرض إرادتها على مصر» وهى التدخلات التى أدانها أيضا وزير الخارجية السعودى الأمير سعود الفيصل عندما صرح قائلا: «لحن نعتقد أن المصريين يمكنهم أن يحلوا مشكلاتهم بأنفسهم، ولحن نشعر بالصدمة من محاولة بعض الدول أن تستبق أمانى الشعب المصرى»، وعلى ما يبدو إن قادة السعودية إما أنهم لا يفهمون ما ترمى إليه واشنطن أو أنهم

---

(١) حوار مع قناة الجزيرة - ٩ من فبراير ٢٠١١.

(٢) حوار مع القناة نفسها.

يفهمونه جيدا. هذا الأسلوب فى التخلى تماما عن حليف لهم يقلق هؤلاء القادة كثيرا لاسيما أن ميدان التحرير قد بدأ فى إطلاق رسائله، ففى يوم التاسع من فبراير قام عدة عشرات من أساتذة الجامعة والكتاب والنشطاء فى مجال حقوق الإنسان فى إمارات الخليج الست «المملكة العربية السعودية، والبحرين، والإمارات، والكويت وعمان وقطر» بتوجيه نداء إلى الأسر الحاكمة يدعوهم فيه إلى «تفهم أن الوقت قد حان لإطلاق سراح المعتقلين السياسيين ووضع دساتير» بإيجاز أن يحترموا الحريات وقواعد المواطنة والديمقراطية التى غدت جزءا من الحقوق الأساسية للشعوب. هكذا إذن أصبحت الشعوب تتدخل فى شئون الدول!

أدت الأحداث فى مصر إلى بعض التداعيات الخطيرة فى فرنسا .. ففى يوم ٨ من فبراير ولاستباق أخبار كان من المقرر أن تنشر فى مجلة « Le canard enchaine»، صرح رئيس الوزراء الفرنسى فرنسوا فيون فى بيان له انه تمت استضافته من قبل السلطات المصرية فى عطلة عيد الميلاد أثناء رحلة عائلية له،والحقيقة انه لم تتم استضافته فقط ولكنه انتقل مجانا بالطائرة من أسوان إلى أبى سمبل، وليس ذلك فقط بل قام برحلة نيلية بالباخرة . كان يمكن أن يمر هذا الأمر دون أن يلاحظ إذا لم يكن حسنى مبارك فى وضع الاتهام، وإذا لم يكن قد سبق اتهام وزيرة الخارجية الفرنسية ميشيل اليو - مارى والتى كانت تقضى عطلة فى تونس فى نفس الفترة باستخدام طائرة أحد رجال الأعمال المقرب من ابن على.

وأن كانت هذه الحالة الأخيرة أكثر خطورة حيث كانت تونس فى تلك الفترة تشهد مواجهات عنيفة.

لم تكن «دبلوماسية المجاملة» بالجديدة، فقد تصرف فرانسوا فيون مثل العديد من رؤساء الدول والحكومات الذين سبقوه بدءا من فرنسوا ميتران الذى اعتاد على التردد على أسوان. ولم يكن يتخيل أن الوضع فى مصر سينفجر بعد أربعة أسابيع من عطلته. ولم تكلفه هذه الأزمة خسارة منصبه كما هو الحال مع ميشيل اليو - مارى التى أقيلت من منصبها فى ٢٧ من فبراير. ولكن لا شك أن صورته كشخص جاد وملتزم قد طالتها بعض الشوائب.

٢٩

محتمل جدا

فجأة فى يوم الخميس ١٠ من فبراير اليوم السابع عشر من الاحتجاجات، بدأت الأمور تتطور بسرعة. فقد صرح مسئول كبير بالجيش - طلب عدم ذكر اسمه - إلى الصحفيين «بأن الجيش فى انتظار أوامر ستسعد الشعب». أية أوامر؟ ومن سيصدرها؟

هذا الصباح صرحت جريدة الشروق «أن الحج إلى ميدان التحرير صار واجبًا دينيًا». فى بداية الظهيرة بدأ العديد من القاهريين فى التواجد على هذا المكان المقدس وهم على قناعة بأن لحظة النهاية قد اقتربت!

كانت السماء ملبدة بالغيوم وسمعت أصوات الرعد، وهو أمر نادر الحدوث فى القاهرة مما اعتبره البعض فألا حسنا، وارتفعت التكبيرات «الله أكبر». وسرعان ما ظهرت الشمس مشرقة بعد قليل من الأمطار التى لم يفت سقوطها فى عضد نحو ١٥ فنانا كانوا يقومون بالرسم، هم فى الواقع شباب حديثو التخرج من كلية الفنون الجميلة، شاركوا فى مشروع الفلسطينية عزيزة رياض، إنهم يعبروا عن أنفسهم باستخدام الفرشاة على لوحة من القماش تبلغ ٢٠ مترا من الطول، وضعت فوق الأرض.ثم تنقل بواسطة المتظاهرين لتجفيفها على ضفاف النيل.

فى الساعة الخامسة على قناة البى بى سى أكد «حسام بدراوى»، الأمين العام

الجديد للحزب الحكومى، أن حسنى مبارك «قد يستجيب لتطلعات الشعب قبل يوم الجمعة» الجمعة هو يوم غد..... على نفس المحطة كان رئيس الوزراء أحمد شفيق أكثر تحديدا: الرئيس «قد يستقيل». هذه الجمل القصيرة بعد أن تداولتها وكالات الأنباء وانتقلت عبر الإنترنت والتليفون المحمول خلقت حالة شديدة من المشاعر الحماسية فى كل أرجاء مصر. وكالة رويترز ذكرت أن مسئولا حكوميا قد صرح أن الرئيس «من المحتمل جدا أن يستقيل» أما وكالة الأنباء الفرنسية فقد ذكرت رئيس الوزراء بالاسم الذى نقلت عنه «إن كل شيء لا يزال بين يدى مبارك». جاء إخطار آخر من واشنطن هذه المرة، فقد أكد جيمس لكير مدير الاستخبارات الوطنى (DNI) أن الوضع فى مصر قد وصل إلى «نقطة حرجة». أما مدير الاستخبارات المركزية (CIA) ليون بانيتا فقد صرح من جانبه قائلا: «لدى نفس المعلومات التى لديكم، وهى أن هناك احتمالا كبيرا أن يستقيل مبارك هذا المساء».

لما كانت السى آى أيه هى التى ذكرت ذلك فقد ارتفعت حرارة الوضع فى التحرير، فالأخبار تتوالى بسرعة كبيرة: فى الخامسة و٤ دقائق: مبارك توجه إلى شرم الشيخ بصحبة رئيس الأركان، فى الخامسة و٣١ دقيقة أعلن التلفزيون الرسمى أن الرئيس سيتوجه بكلمة إلى الأمة مساء. فى السادسة و٤٨ دقيقة ينقل عن السى آى أيه أنه فى حال تنحى حسنى مبارك قد يحل محله نائبه عمر سليمان.

فى السابعة و١٥ دقيقة: يعلن التلفزيون الرسمى أن الرجلين مجتمعان فى هذه «اللحظة».

وائل غنيم الذى كان قد اعتقل لمدة عشرة أيام يدعو إلى الحذر فيكتب على تويتر: «أيها الأصدقاء لا تفرطوا فى توقعاتكم لهذه اللحظة، فلننتظر لنرى ما سيحدث». ولكن المتظاهرين فى التحرير يشعرون أنهم يتنسمون رياح التاريخ. فالعقيد أحمد على شومان الذى كان مكلفا بحراسة المدخل الغربى للميدان قد سلم سلاحه وانضم للثوار «بعد أن أظهر أوراق هويته العسكرية لبعض

المتظاهرين المتشككين» وقد حمله الثوار على الأعناق، بينما أعلن ضابط آخر فى الميكروفون قائلا: «أنا أيضا أنضم للثوار».

فى السابعة والنصف، قطع التلفزيون المصرى برامجه وكانت مصر كلها فى حالة ترقب. وأطل على الشاشة ضابط بالزى العسكرى يقرأ بيانا بصوت جهورى: «بسم الله الرحمن الرحيم إن القوات المسلحة انطلاقا من مسئوليتها، والتزامها بحماية الشعب، والمحافظة على مصالحه وأمنه، وحرصا على أمن الوطن والمواطنين وعلى مكتسبات الشعب المصرى العظيم، ودعما للمطالب المشروعة للشعب، قرر المجلس العسكرى الأعلى للقوات المسلحة الذى انعقد الخميس ١٠ من فبراير أن يظل فى حاله انعقاد دائم لدراسة القرارات الواجب اتخاذها لحماية الوطن وإنجازات وطموحات شعب مصر العظيم».

أظهر التلفزيون لقطة سريعة للمجلس الأعلى للقوات المسلحة: «كبار الضباط مجتمعون حول المشير طنطاوى وزير الدفاع». فى ميدان التحرير اشتد الحماس بالجماهير التى راحت تهتف «الجيش والشعب أيد واحدة». «الجيش والشعب هيكملوا المشوار»؟

فى السابعة و٤٣ دقيقة: كتب الناشط وائل غنيم - الذى كان قد دعا منذ دقائق قليلة إلى الحذر - على تويتر: الثورة ٢٥: «تمت المهمة». حمل تصريح الجيش اسم «البيان رقم ١» مما أوحى بأن هناك المزيد.

الخبراء العسكريون استوقفهم كثيرا أن المجلس الأعلى للقوات المسلحة «فى حالة انعقاد دائم» مما يعنى أنه أخذ زمام المبادرة. فى ميدان التحرير كان هناك البعض من الأقل حماسا يهتف «مدنية مدنية لا عسكرية».

فوق الكبارى التى تعلو النيل كانت سيارات كثيرة تتجه إلى ميدان التحرير وهى تطلق آلات التنبيه بينما المارة يلوحون بالأعلام.

كان باراك أوباما يتابع عن كثب تطور الأوضاع فى مصر. فى الثامنة وعشرين

دقيقة (بتوقيت القاهرة) وبعد أن أكد أن الوضع فى مصر لا يزال غير مستقر صرح قائلا: «نحن شهود على حركة التاريخ» مضيفا: إن هناك «تحولا يجرى فى مصر لأن المصريين يرغبون التغيير».

فى القاهرة أعلن المتحدث باسم الحكومة أن الرئيس مبارك سيتحدث فى الساعة العاشرة. وهنا وصلت مشاعر الحماس إلى الذروة: «الشعب أسقط النظام» هتف المتظاهرون.

فى التاسعة وخمسين دقيقة صرح وزير الإعلام أن الرئيس «لن يستقيل»، وكان قد أكد ذلك فى فترة ما بعد الظهيرة ولكن أحدا لم يصدقه.

فى العاشرة والنصف لم يكن مبارك قد ظهر على الشاشة بعد. ولكن فى مصر اعتاد الناس على مثل هذا التأخير. السماء التى لمع فيها هلال القمر لم تعد تنذر بأى أمطار كما كان الحال فى بداية فترة بعد الظهيرة.

رفع الأحذية والصراخ

فى العاشرة و٤٥ دقيقة عم الصمت فجأة ميدان التحرير. ظهر «الرئيس» على الشاشة وقد بدا فوقه شعار الجمهورية الذهبى. ببدلة داكنة اللون ووجه لا يظهر أى تعبير وبشعر مصبوغ. بدأ الحديث بنفس النبرة المعتادة دون أثر لأية مفاجأة، وهو ما أثار الدهشة كما لو كان يلقى خطاب أول مايو المعتاد. يتوجه حسنى مبارك بالحديث للمصريين كما لو كان «أبا يتحدث لأولاده» يقول لهم «أنا فخور بكم» قبل أن يؤكد أن «دماء الشهداء لم تذهب هدرًا» وأنه «لن يتهاون مع المسئولين الذين سيعاقبون بكل صرامة». عندما يستخدم الأفعال فى زمن المستقبل... ماذا يعنى هذا؟ وتعالى السباب. واستمر هو بنفس النبرة «سوف أستمع إليكم، ولكننى لن أتلقى أى توجيهات تأتى من الخارج... سأستمر فى تولى مسئولياتى لحماية الدستور ومصالح الشعب، حتى الانتقال الفعلى للسلطة إلى من سيختار فى سبتمبر عقب انتخابات حرة ونزيهة . وهذا عهد قطعته على

نفسى أمام الله والأمة وسوف ألتزم به حتى ينعم الشعب المصرى بالأمن والاستقرار».

لم تصدق الجماهير أذنيها، رجل واحد يعاند الشعب والجيش وأوروبا والعالم أجمع! كما لو أن شيئا لم يحدث، هو يتحدث عن تعديل ست مواد من الدستور وإلغاء المادة السابعة. ثم قال بعد ذلك بشكل مختصر «لقد قررت أن أنقل بعض صلاحياتى إلى نائب الرئيس وفقا لأحكام الدستور». ويكرر رغبته فى الموت على أرض مصر «إننى لن أفترق عن مصر حتى يوارينى ترابها».

وهنا تعالت الصرخات والهتافات فى ميدان التحرير، بعض المتظاهرين خلعوا أحذيتهم ورفعوها فى اتجاه الشاشة (وهو ما يعد فى العالم العربى دليلا على الاحتقار الشديد وخاصة بعد أن قام صحفى عراقى بإلقاء حذائه فى وجه جورج بوش أثناء مؤتمر صحفى فى بغداد). حتى إن سيدة شابة خلعت حذاء طفلها الرضيع ولوحت به دليلا على الاحتقار: وتعالى الهتاف بين الجماهير «ارحل - ارحل!» وسقط رجل مغشيا عليه، وقام الآخرون بعمل كردون حوله حتى لا تدهسه الأقدام. كل الهتافات التى ترددت عبر الميكروفون لم تؤد إلى شيء. ويروى فيليب معرى وهو رئيس شركة بالقاهرة وقد خرج عن صوابه فى نهاية الخطاب[1]: «فجأة عاد الصوت إلى الميدان بدأ شيخ فى تلاوة أدعية ضد الظالم، وفى أعقاب كل دعوة ترتفع أصوات الحشود «آمين» ويبكى الشيخ وهو يتلو دعواته. لم يكن أحد يتخيله بهذا السوء والوحشية فهو أخيرا «الرئيس» الرئيس أو كان الرئيس، أما الآن فليذهب إلى الجحيم».

«مصر سوف تنفجر»

فى الساعة العاشرة وخمسين دقيقة وفى ذروة الأحداث توجه نائب الرئيس

---

(١) فيليب معرى رأيت « مصر تنتفض»، موقع lemonade.fr،١٧ من فبراير ٢٠١١.

عمر سليمان إلى الأمة قائلاً: إنه قد كلف «بإعادة الحياة إلى طبيعتها» لذا فهو يعد «باتخاذ اللازم من أجل ضمان الانتقال السلمى للسلطة فى ظل احترام الدستور»، وقال «إننى أتعهد بتنفيذ كل ما اتخذ من قرارات فى إطار الحوار الوطنى وبالدفاع عن ثورة الشباب ومنجزاتها، كما إننى أتعهد بالعمل على إعادة إقرار الثقة المتبادلة. وطالب نائب الرئيس المواطنين بالتوجه نحو المستقبل». مضيفًا «إن علينا نحن أن نحوله إلى مستقبل مشرق يزخر بالحرية والديمقراطية». ودعا المتظاهرين إلى عدم «الاستماع إلى القنوات الفضائية ولكن الاستماع إلى صوت قلوبهم» واختتم عمر سليمان قائلاً: «يا شباب مصر يا أبطال مصر عودوا إلى منازلكم واستأنفوا العمل حتى نستطيع البناء، واستمعوا إلى صوت ضمائركم وعقولكم». أما إجابة المتظاهرين فى الميدان فكانت «لا مبارك ولا سليمان واحد خاين والتانى بهلوان».

وفى حديث لشبكة سى. إن. إن أكد سفير مصر لدى الولايات المتحدة، سامح شكرى، أن نائب الرئيس قد أصبح اعتبارًا من الآن «الرئيس الفعلى» لمصر، وأن حسنى مبارك قد نقل إليه كل صلاحياته.

بعد عدة ساعات من ذلك الحديث، «صرح الرئيس باراك أوباما أن نقل السلطات الذى أعلن عنه غير كاف». ودعا السلطات المصرية إلى «فتح الطريق أمام ديمقراطية حقيقية بمصداقية وبشكل ملموس لا لبس فيه». وحذر الرئيس الأمريكى من اللجوء إلى العنف دون أن يذكر مرة واحدة اسم مبارك.

بعض المصريين قدروا أن الرئيس مبارك ظل متماسكًا . «إن خطابه كان مؤثرًا ومعبرًا عن الكرامة» هكذا أكد رجل الأعمال أحمد على الذى لم يكن متواجدًا بالميدان - «لقد نفذ الرئيس ما طالب به الشباب وترك السلطة ولكن بشكل كريم يحفظ كرامته وكرامة الشعب المصرى (...). لقد تحققت أمور عظيمة لم نكن ننشدها لولا الثورة التى تبناها شباب ٢٥ من يناير»[1].

---

(١) رويترز ١٠ من فبراير ٢٠١١.

لم تكن هذه بأية حال وجهة نظر المدون حسام الحلاوى: «ما قاله مبارك غير مقبول ومخجل وعبثى. غدًا سوف نكون بالملايين فى الشارع ولكن هذه المرة ستتوجه إلى القصر الرئاسى»[1].

أما المتحدث السابق باسم المعارضة «محمد البرادعى» فقد عبر عن شعور كثير من المراقبين عندما كتب على تويتر «مصر سوف تنفجر» وأضاف «على الجيش الآن إنقاذ البلاد».

(١) أليكس فان برن - لا ريبيليكا - ١١ من فبراير ٢٠١١.

٣٠

أحمر، أبيض،أسود

لم تشهد مصر انفجارًا بل من المثير للدهشة أن الليل كان شديد الهدوء. ولكن منذ بداية صباح هذا اليوم الجمعة ١١ من فبراير الذى أطلق عليه «جمعة الشهداء» توافد المتظاهرون بالآلاف على ميدان التحرير. كما أخطرت القوات المسلحة المواطنين، عبر خدمة الرسائل القصيرة SMS، أنها ستصدر بيانا بعد وقت قصير.

«إذا كان مبارك يرفض الاستجابة فسوف نتوجه فى مسيرات إلى القصر الجمهورى» هذا ما صرح به مئات المعارضين. ولكن القصر يقع على بعد ١٠كم من هنا فى أحد الأحياء الراقية فى الضاحية الشمالية الشرقية. إنه يحتل قصر هليوبوليس القديم الذى بنى فى فترة ١٩٠٠ وكان فى هذا الوقت واحدا من أجمل فنادق الشرق الأوسط.

لم تكن الساعة قد قاربت بعد الحادية عشرة صباحًا حين تجمع بعض المتظاهرين القادمين بلا شك من المناطق المحيطة حول المبنى الضخم ذى اللون الأصفر، وقد تعالت صيحاتهم: «يسقط حسنى مبارك». هذا أمر لا يحدث من قبل فى هذا المكان الأشد حراسة فى مصر. كما وضعت لافتة تطالب بتنحى «الرئيس» فوق السلك الشائك الذى يغلق أحد مداخل هذا المبنى الأنيق الذى كانت تحرسه الدبابات والمدرعات.

فى الحادية عشرة وخمسين دقيقة بدأ عقيد بالجيش فى تلاوة «البيان رقم ٢» أمام القصر الرئاسى فى نفس الوقت الذى كان تلفزيون الدولة يذيع فيه البيان.

كان البيان كالدش البارد: المجلس الأعلى للقوات المسلحة يعلن أنه «الضامن» لتنفيذ الإصلاحات التى اقترحها مبارك ويؤكد أنه سيجرى تنظيم «انتخابات حرة ونزيهة فى ضوء التعديلات الدستورية التى ستقرر». كما وعد المجلس الأعلى بإنهاء حالة الطوارئ السارية منذ عام ١٩٨١ ما إن تسمح الظروف بذلك ولكنه طالب بعودة الحياة إلى مجراها الطبيعي«وحذر من أية محاولة للإضرار بأمن الوطن والمواطنين».

سارع أحد المتظاهرين وقد استبد به الغضب فى انتزاع الميكروفون من أيدى العقيد صائحًا فى وجهه: «لقد خيبتم آمالنا، لقد وضعنا كل أملنا فيكم» عصف الغضب وخيبة الأمل أيضًا بالمتظاهرين فى الإسكندرية. حيث تجمع نحو ١٠٠,٠٠٠ شخص رافعين اللافتات والأعلام حول مسجد القائد إبراهيم. المشاعر نفسها اجتاحت متظاهرى التحرير حيث دعا إمام الصلاة الجيش إلى «التصرف بشكل يقبله الله يوم القيامة» ثم أغشى عليه فى نهاية خطبته. فى بداية فترة بعد الظهيرة، لاحظ المتظاهرون المتواجدون أمام القصر الرئاسى إقلاع طائرتى هليكوبتر سرعان ما اختفتا فى السماء، وكان قد أعلن عن مصادر غير رسمية أن حسنى مبارك وعائلته قد غادروا القاهرة.

فى نحو الساعة الرابعة مساء أوضح المتحدث الرسمى للحزب الحاكم أن «حسنى مبارك فى شرم الشيخ». هذا الأمر فى حد ذاته ليس به أى شيء غير معتاد فالرئيس «يملك منزلاً فى هذه المدينة الساحلية الواقعة على البحر الأحمر» حيث يستقبل ضيوفًا أجانب، وينظم لقاءات دولية، فشرم الشيخ هى بشكل ما «كامب ديفيد» الرئيس المصرى.

كانت الساعة السادسة وثلاث دقائق عندما ظهر نائب الرئيس عمر سليمان على شاشات التلفزيون بنبرة حادة إنه: «نظرًا للظروف العصيبة التى تمر بها البلاد

فقد قرر الرئيس حسنى مبارك تخليه عن منصب رئيس الجمهورية، وكلف المجلس الأعلى للقوات المسلحة بإدارة شئون البلاد».

فى ميدان التحرير حيث يتواجد مئات الآلاف من المتظاهرين تعالت صيحات هائلة ومدوية لا نهاية لها، تحيى هذا الإعلان ارتفع عبر مكبرات الصوت «الشعب خلاص أسقط النظام! الشعب خلاص أسقط النظام». الجميع يتعانقون والزغاريد تتوالى، وتنهمر الدموع، والبعض يرقص فوق الدبابات. عبر الهاتف الجميع يتبادل التهاني: «مبروك يا مصر! حمدا لله على السلامة يا مصر!».

الجميع فى وادى النيل شعر بالأرض تهتز تحت قدميه، ليس هذا فقط ففى طريق بورقيبة (فى تونس العاصمة) كان الناس يرقصون على أصوات أبواق السيارات. فى الدوحة أنشد المتظاهرون نشيد بلادى، النشيد الوطنى المصرى فى عمان، وزعت الورود وأطلقت الألعاب النارية فى بيروت، وفتحت زجاجات الشمبانيا واحتضن الجميع الأعلام المصرية.

أما عمرو عاصف المذيع بقناة المنار التابعة لحزب الله الذى ذاق مرارة الاعتقال فى السجون المصرية، فقد كان يبكى على الهواء مباشرة: «الله أكبر!» مات الفرعون، أخشى أن أكون أحلم...!

فى يوم جمعة تماما مثل ابن على

رأى المتظاهرون الواقفون أمام القصر الرئاسى فى مصر الجديدة سيارة تقترب فى حراسة سيارتين أخريين. كان هذا هو المشير طنطاوى الذى تعالت الهتافات تحية له. أوقف رئيس المجلس الأعلى للقوات المسلحة سيارته ليحيط به المتظاهرون.

على تويتر كتب وائل غنيم «مبروك لمصر، غادر المجرم القصر» أما الاتحاد الأوروبى فقد اختار صيغة أكثر دبلوماسية مهنئًا حسنى مبارك «بالاستماع إلى صوت الشعب». أما نائب الرئيس الأمريكى، جوزيف بايدن فقد أعرب عن

تهنئته بهذا «اليوم التاريخي». كما سادت حالة من الارتياح الأوساط المالية: فسرعان ما انتعشت بورصة نيويورك وقفز سعر برميل البترول إلى ٨٥ دولارا.

رحل مبارك يوم الجمعة تمامًا مثل ابن على. استغرق الأمر شهرًا لكى يتمكن التونسيون من طرد رئيسهم، أما مصر فقد أطاحت بالفرعون فى ١٨ يومًا فقط.

من خلال الأضواء التى تصدر عن فلاشات الكاميرات والألعاب النارية يظهر للعيان علمًا مصريًا شديد الضخامة ترفعه الأذرع الممتدة بطولها لكى يغطى جزءًا من ميدان التحرير بالألوان الأحمر والأبيض والأسود. كانت الجماهير ترقص وقد استبدت بها السعادة على دقات الطبول، وتهتف بأعلى صوتها «مصر حرة» مضيفة لزوم السجع «حسنى برة». وكانت مشاعر الفرحة تختلط بها مشاعر الكرامة، كما بات واضحًا فى هذا الشعار الذى ظل يتكرر فى الأيام التالية: «ارفع راسك فوق، أنت مصرى».

كان الشعب بأكمله وليس فقط المعارضون لمبارك محل أنظار كاميرات العالم. استعادت مصر مكانتها كمنارة للعالم العربى واستحقت القاهرة من جديد لقب «أم الدنيا».

بحلول الليل بدأ المتظاهرون يغادرون الميدان وقد بُحت أصواتهم من شدة الهتاف. البعض منهم كان يتواجد بالميدان طيلة الأيام الثمانية عشرة ويشعر بالسعادة للعودة إلى أسرته. البعض الآخر أكد أنه كانت لهم ستة مطالب منها إنهاء حالة الطوارئ، وأن المطلب الأول فقط هو الذى تحقق. بين الفريقين كان هناك فريق ثالث مثل عبير زهران القادمة من مدينة صغيرة بالدلتا - هى برج البرلس - بصحبة زوجها وابنيها وهى التى أعدت خيمتها لقضاء ليلة جديدة مؤكدة: «سنظل هنا حتى يتضح الموقف فنحن نريد حرية كاملة وديمقراطية»[1] فى إحدى

(١) ايناس بل عيبة، وكالة الانباء الفرنسية، ١١ فبراير ٢٠١١.

مدن الدلتا الأخرى - وهى منشية العباسية - بدأت أخيرًا مراسم دفن الشهيد محمد فريد الشاب البالغ من العمر ٢٢ عامًا والذى استشهد يوم ٢ من فبراير برصاصة أصابته فى ميدان التحرير. كان أهله قد رفضوا تلقى العزاء ودفن ابنهم طالما ظل مبارك فى الحكم. بعض الأهالى الآخرين الذين كانوا يجوبون الميدان رافعين صور أبنائهم الذين استشهدوا قرروا العودة إلى منازلهم وقد شعروا ببعض السكينة. كان هذا هو الوضع بالنسبة لسميرة مراد ٦٩ عامًا من السويس التى انهارت من البكاء عندما قام المتحدث الرسمى للمجلس العسكرى بتأدية التحية العسكرية.... لشهداء الثورة.

شخص آخر قرر أن يرحل هو أحمد عبد الرحيم، ٤٠ عاما، كهربائى من الإسكندرية فقد ارتضى أن يتنازل عن راتبه لكى يقيم فى الميدان لمدة أسبوعين. «لقد تعلمت أن أقول لا، لم أعد جبانًا، لقد شعرت أننى ولدت من جديد....كما لو كنت قد غرست شجرة وعلى الآن أن ارعاها»[1]. أما خليل العوانى - ٣٣ عامًا الذى شارك فى المظاهرات منذ ٢٨ يناير فقد تابع النهاية من منزله بالدقى. وتساءل زوجته - وهى صحفية أيضا - إذا ما كانت مصر فى نهاية الأمر قد سقطت فى قبضة العسكر. وتتساءل «نفرح ولا نزعل؟». ولكنهما قررا فى النهاية التوجه لميدان التحرير حيث احتفلا مع الجماهير حتى السادسة صباحاً[2]. وأخيرًا استحق ميدان التحرير الاسم الذى أطلق عليه.

---

(١) منى النجار - نيويورك تايمز - ١٩ فبراير ٢٠١١.

(٢) حديث مع خليل العوانى فى القاهرة ٢٧ من مارس ٢٠١١.

٣١

أنا أنظف بلدي

ما إن انتهى أذان فجر يوم السبت ١٢ من فبراير حتى عاد ضجيج أبواق السيارات مرة أخرى إلى شوارع القاهرة. هذا اليوم التالى للاحتفالية بالتنحى، هو أيضا احتفالية أخرى، «صباح الخير يا مصر افتقدتك كثيرًا خلال الثلاثين عامًا الماضية» هذا ما نطالعه على صفحات الإنترنت.

رُفعت الأسلاك الشائكة من ميدان التحرير بواسطة رجال الجيش، كما قامت الأوناش برفع هياكل المركبات المحترقة. وفى الصباح الباكر بدأ جيش من نوع آخر فى التوافد، هم متطوعون من الجنسين من كل الأعمار ومن كل الأوساط، يحملون المكانس والجرادل والأكياس البلاستيكية. «أنا أنظف مصر» هذا ما كانت تشير إليه الأوراق الملصقة فوق صدورهم، أو «بالأمس كنت أتظاهر واليوم أنا أبنى».

كانوا بالعشرات يعملون بهمة ونشاط، يقومون بإزالة الغبار حتى من فوق أعمدة الإنارة والتماثيل، يعيدون طلاء جوانب الأرصفة والحواجز وعلامات المرور فوق الأرض «نريد أن نثبت للعالم أننا أمة كبيرة متحضرة» هكذا قال شريف أسعد (٢٧ عامًا) موظف بشركة مايكروسوفت. أما هدى صالح (معلمة) فتقول من خلف القناع الذى وضعته لحماية وجهها من الأتربة «أنا أنظف كى يعود

السياح مرة أخرى»[1].

هكذا تمكن القاهريون الذين لم يشاركوا فى الثورة من اللحاق بركبها، بينما كانت مكبرات الصوت تذيع الأغانى الوطنية، وتؤكد دينا سيد[2] - مهندسة (٣٠عامًا) - على ذلك بقولها: «غسل الشوارع هو أقل ما يمكننى تقديمه لمساعدة الذين ساعدوا مصر».

فى «البيان رقم ٣» الذى قرأه فى التليفزيون أحد العسكريين فى تعهد المجلس الأعلى للقوات المسلحة، بضمان «مرحلة انتقالية سلمية» «تمهيد الطريق لسلطة مدنية منتخبة، من أجل بناء دولة ديمقراطية حرة».

ستقوم حكومة أحمد شفيق التى عُينت منذ أيام بتسيير الأعمال، كما أوضح العسكريون الذين يديرون شئون البلاد فى إشارة هامة، كانت إسرائيل لا شك تنتظرها بفارغ الصبر، وكانت واشنطون تلح عليها أن «مصر ستظل ملتزمة بكافة المعاهدات الإقليمية والدولية» بعبارة أخرى أنه لن يُعاد النظر فى معاهدة السلام الموقعة مع إسرائيل فى عام ١٩٧٩.

تلى البيان رقم ٣ (فى عصر هذا اليوم) بيان آخر هو «بيان الشعب رقم ١» الذى نشره منظمو مظاهرات ميدان التحرير أعلنوا فيه إنشاء «مجلس مراقبة مسئول عن التفاوض مع العسكريين، ومتابعة أهداف الثورة طوال المرحلة الانتقالية». هذا المجلس المكون من عشرين عضوًا من بينها شخصيات مرموقة مثل أستاذ الجامعة «عبد القادر عودة» سيدعو إلى المظاهرات أو يدعو لإلغائها وفقًا لتطورات الوضع

وقد بدأ هذا المجلس بالفعل بالدعوة إلى تجمع فى ميدان التحرير يوم الجمعة

---

(١) رنا موساوى، وكالة الأنباء الفرنسية، ١٢ من فبراير ٢٠١١.

(٢) دينا زايد - رويترز - ١٢ من فبراير ٢٠١١.

١٨ من فبراير للاحتفال برحيل مبارك. ولكن الموقعين على البيان يلتزمون بأن يظلوا فى الميدان بشكل رمزى حتى يوافق المجلس الأعلى للقوات المسلحة على مطالبهم، وهى إقالة حكومة شفيق، وتعليق البرلمان، وإنهاء حالة الطوارئ. كما طالب البيان رقم ١ للشعب بعمل مجلس رئاسى من خمسة أعضاء يضم أربعة مدنيين وعسكرى واحد.

ظل حظر التجول قائمًا وإن كان قد خُفضت ساعاته، حيث أصبح يبدأ من منتصف الليل بدلاً من الساعة الثامنة، ويستمر حتى الساعة السادسة صباحًا، ظل الأمن غائبًا فى بعض الأحياء حيث كانت اللجان الشعبية ما زالت متيقظة، بل على أهبة الاستعداد، فقد أعلن خلال هذا اليوم السبت أن ٦٠٠ مسجون قد فروا من سجن المرج بالقاهرة بعد اضطرابات أسفرت عن قتلى وجرحى، كان هذا الحادث الثانى من نوعه لهروب جماعى من هذا السجن منذ الخامس والعشرين من يناير.

فى الإسماعيلية كان هناك مشهد غير مألوف، فقد تجمع بعض المئات من رجال الشرطة بزيهم الرسمى أو المدنى، وكانوا يتظاهرون بهتافات «الشرطة والشعب أيد واحدة» خلال هذه المظاهرات أدانوا الفساد بين صفوف الشرطة، واتهموا قادتهم باستخدامهم كطباخين أو سائقين، بل والأنكى من ذلك بإعطائهم الأوامر لقتل المتظاهرين فى القاهرة، وقبل اجتماع مجلس الوزراء قام العاملون بنزع صورة مبارك الكبيرة، أما الإعلام الرسمى الذى كان منذ أيام يتفاوض بشأن ــــــ؟، حدث به تغيير ١٨٠ درجة، فكان تليفزيون الدولة يهنئ شعب مصر «لثورته العظيمة» أما جريدة الأهرام فقد رأت أن الشعب قد أسقط النظام، ونشرت ملحقًا خصصته «لشباب التحرير» تحت هذا العنوان الواضح «انتصرنا».

وثورة ٢٥ من يناير «كما أصبح يطلق عليها لاقت ترحيبًا فى كل دول العالم الخارجى»، وكثيرًا ما كان هذا ببعض المبالغة: «نحن اليوم جميعًا مصريون» (جيسن ستولنبرج - رئيس وزراء النرويج) «المصريون قدموا لنا نموذجًا» (باراك أوباما)

«يجب علينا التفكير فى تدريس الثورة المصرية فى المدارس» (دافيد كاميرون، رئيس الوزراء البريطاني)، «شعب مصر هو أعظم شعب فى العالم، ويستحق جائزة نوبل للسلام» (هاينز فيشر - رئيس النمسا).

على نفس النهج سارت الحكومات التى كانت مؤيدة لحسنى مبارك فيما أصدرته من بيانات، فقد أشادت السلطة الفلسطينية بـ «الكفاح الديمقراطى للشعب المصرى» كما رحبت المملكة العربية السعودية بالانتقال السلمى الذى بدأ فى القاهرة.

لم تتوار السياسة عن الساحة ولا الحذر أيضا، فقد سارعت سويسرا قبل غيرها من الدول الغربية فى الإعلان عن التجميد الفورى للأرصدة التى قد تكون ملكًا لحسنى مبارك أو بعض المحيطين به، وكان ذلك من أجل «تفادى» أى خطر لسرقة أموال مملوكة للدولة المصرية.

الرجل الواقف فى الخلف

كيف ولماذا استسلم مبارك ظهيرة يوم الجمعة بعد أن ظل متمسكًا بموقفه حتى مساء الخميس؟ تناثرت أخبار عدة منسوبة إلى مصادر غير رسمية فى الصحف المصرية غداة رحيله. ومن الغريب أن الشهادة العلنية الوحيدة جاءت من إسرائيل، فقد أكد وزير التجارة والصناعة الأسبق عن حزب العمل بنيامين بن اليعازر أنه قد أجرى محادثة مع «الرئيس» مساء يوم الخميس، كان الرجلان قد التقيا عدة مرات، ويبدو أن نوعًا من المودة قد نشأ بينهما، وفى عصر يوم الجمعة صرح بن اليعازر فى الإذاعة أن «حسنى مبارك يدرك تمامًا أن الأمر قد انتهى، وأنها نهاية الطريق، ولكنه صرح لى بأنه يبحث عن أسلوب مشرف للخروج».

أما جريدة (الأخبار) اليومية المعروف عنها أنها تكن مزيدا من الاحترام «للرئيس» و «أسرته» فقد تناقلت أقوالا عن خلافات نشأت خلال الأيام الأخيرة بين ولدى الرئيس الأكبر علاء وولى العهد السابق جمال، وطبقًا لهذه الروايات فإن

علاء قد اتهم شقيقه بأنه المسئول الوحيد عن هذه النهاية المهينة لحكم والده، متهمًا إياه بأنه «أفسد البلاد» وسمح لأصدقائه بالاستفادة من منصبه لتكوين ثروات.

ووفقًا لهذه الجريدة الحكومية التى كانت تتعجل فى تحويل دفتها (موقفها) فإن الشقيقين قد اشتبكا تقريبًا بالأيدى. أما جريدة (المصرى اليوم) فقد أكدت من جهتها أن حسنى مبارك قد اتهم زوجته سوزان وابنه جمال بـ «تدمير كل ما قام بعمله من أجل البلد».

الخطاب الرئاسى الذى أذيع مساء يوم الخميس كان مسجلاً قبلها، وعند مشاهدة هذا التسجيل مرة أخرى لاحظ البعض قطع وإعادة ربط المشاهد، مما يعزز النظرية التى ترى أن حسنى مبارك كان مستعدًا للتنازل عن السلطة، وأن جمال قد تدخل لإقناعه بعدم التنازل، وأنه قد قام بإعادة تسجيل جزء من الخطاب التليفزيونى.

الطريقة التى أعلن بها عمر سليمان فى التليفزيون «رحيل الرئيس» أثارت ريبة المصريين، كان نائب الرئيس - للغرابة - متواجدًا فى ردهة وقد وقف خلفه رجل مرتديًا بدلة سوداء اللون، يعطى إيحاء بأنه يراقبه، وسرعان ما بدأ هواة النكات فى تداول هذا الموضوع «أعرف شخصًا يعرف الشخص الواقف خلف عمر سليمان» خلا الثمانية عشر يومًا هذه، ظهر نوع جديد من السخرية، لم تكن النكتة التقليدية التى تتميز بنهاية مثيرة للإعجاب، ولكن نوع جديد من «العبث» يبدأ التركيز على شخص أو على شيء ما - على سبيل المثال - بلوفر رئيس الوزراء أحمد شفيق - الذى ظهر على شاشة التليفزيون بملابس غير رسمية - ويبدأ إطلاق عبارات سخرية إلى ما لا نهاية.

لا يكفى المرء أن يكون نائبًا للرئيس لكى يصير رئيسًا إذا ما شغر هذا المنصب، فقد كانت هذه المداخلة التليفزيونية الغريبة ستكون آخر ظهور على لرجل الظل، لن يسمع أحد عنه أى شيء خلال الأسابيع التالية، بعد جمال مبارك وحسنى مبارك عمر سليمان أيضًا (EXIT) وقد استطاعت ثورة ٢٥ من يناير الإطاحة برؤوس النظام عوضًا عن تفكيكه بالكامل.

٣٢

الفائزون والخاسرون

«رجال السلطة كان لديهم قناعة تصل إلى حد اليقين بأن الشعب المصرى الخانع بطبيعته لن يثور أبدًا، كان يقال إن المصريين لا يفتحون أفواههم إلا أمام طبيب الأسنان. لأول مرة فى تاريخ البلاد يقوم الشعب بإسقاط فرعون»[١].

حاول حسنى مبارك أن يثنى المحتجين عن هدفهم بالقوة، أو أن يشكك فى نواياهم بالوسائل القديمة دون جدوى، كانت أخطاؤه المتتالية قاتلة وحتمية بالنسبة لمصيره، يبرز الكاتب خالد الخميسى - المنحاز تمامًا للمتظاهرين - ذلك بقوله: «فى كل مرة كانت تتاح الفرصة للسلطة كان يتصرف بشكل يثير الرأى العام ضده، ويوم أن شهدت انسحاب الشرطة قلت لنفسى: قضى الأمر لصالحنا، انتصرنا فى النهاية هزمناهم ١٠ / ٠، أحرزنا ثلاثة أهداف وأحرزوا هم سبعة أهداف فى مرماهم ١٠»[٢].

فى بادئ الأمر ضُحّى ببعض المقربين من مبارك ثم بالحرس القديم للنظام. ولكن عند أى حد تتوقف مطاردة المتهمين بالفساد؟ كيف يمكن تحديد المؤشر؟ فى

---

(١) حديث مع شريف الشوباشى - القاهرة - ٢٣ من مارس ٢٠١١.

(٢) حديث مع خالد الخميسى - القاهرة - ٢٢ من مارس ٢٠١١.

بلد لا يمكن لأى عقد هام أن يتم دون رشوة، فالأمر يمكن أن يطال الكثيرين، ولا يكفى مجرد ذكر محاسن الثورة لكى ينجو المرء من محاولات «التطهير»، والواقع أن هذه المرحلة شهدت تحولات مثيرة فـ «النظام» فى حقيقة الأمر مثله فى ذلك مثل الشعب - لا يتكون من كيان محدد ومتجانس، كما لا ينطوى فقط على فاسدين.

شجعت حرية الكلام انطلاق أكثر الشائعات جنونًا، دون أن يستطيع أحد أن يفرق الصواب من الخطأ، علينا أن ننتظر أن يكتب تاريخ هذه الثورة بعد فترة زمنية كافية، تتيح رؤية أفضل للأمور، حتى يمكن توضيح ما التبس من أحداث فرض الذات فى ظل النظام الأبوى.

أول الفائزين من ثورة ٢٥ من يناير هم لا شك أولئك الذين أشعلوها، ولجحوا فى إنزال ملايين المصريين إلى الشوارع. هؤلاء هم فى الأغلب من الشباب المنتمى أكثره للطبقة البرجوازية المتوسطة المتعلمة، المتعطشين للحرية والثائرين ضد القمع البوليسى، دون أن تكون لهم أيدلوجية معينة. ووجود الشهداء فى خلفية المشهد (الذين احتفى بهم الجميع) جعلت الثورة مما لا يستهان بها، ومنعت تحجيمها بكونها مجرد نزوة لبعض الشباب.

وفقًا لبيان رسمى مؤقت[1] كانت محصلة الثمانية عشر يومًا هذه نحو ٣٦٥ شهيد و٥٥٠٠ جريح. بعد مضى شهر ارتفع الرقم المذكور إلى ٨٣٢ شهيد و٤٠٠٠ جريح، فقد نحو الثلث منهم أحد عينيه. شباب الثوار لم يقوموا فقط «باغتيال الأب» ولكنهم أجبروا هذا المجتمع الأبوى على أن يأخذهم على محمل الجد،بل أصبحوا يشكلون قوة سياسية تؤخذ من الآن فصاعدًا فى الحسبان. أحد التفصيلات ذات الدلالة القوية أنه بدأ الجميع فى إثرهم يدخل عالم الإنترنت.

---

(١) من مصدر طبى موثوق به - وفقًا لعلاء الأسوانى (حديث فى القاهرة ٢٨ من مارس ٢٠١١). بيان صادر عن وزير الصحة سامح فريد فى ١٧ من مارس ٢٠١١.

أصبح المجلس الأعلى للقوات المسلحة ينشر بياناته على صفحة الفيسبوك الخاصة به، وحذا حذوه الحكومة والنيابة العامة، وعن طريق شبكة التواصل الاجتماعي أعلن فى ٣ من مارس استقالة رئيس الوزراء أحمد شفيق. بل إن الشبكات الاجتماعية وصلت لمن ما زالوا بعد فى المهد. فقد أطلق شخص اسمه جمال إبراهيم اسم «فيسبوك» على طفلته التى ولدت فى ٢٠ من فبراير، لعل هذا يذكرنا بما حدث أيام الصداقة الكبيرة بين مصر والاتحاد السوفيتى عندما أطلقت أسرة على مولودها اسم «سبوتكين Spoutnik» وهو أسم أول مركبة فضاء سوفيتية .

من بين الفائزين أيضًا «الإخوان المسلمون» فالجماعة التى لم تنضم إلى الجماهير الثائرة فى بداية الأمر مكتفية بمشاركة شبابها بشكل فردى، سرعان ما اختارت اللحظة المناسبة للحاق بالركب، ليس هذا فقط بل استطاعت أن تزيد شيئًا فشيئًا من ثقل تواجدها فى قلب الثورة. لقد اقتنصت لنفسها الشرعية بعد أن كانت حتى الآن مقبولة فقط، فى أثناء استفتاء ١٩ من مارس بذلت الجماعة كل ما فى وسعها لتغليب «نعم»، ونجحت فى ذلك إلى حد بعيد، إذ تمت الموافقة على التعديلات الدستورية بنسبة ٧٧,٢٪ من الأصوات، أما أغلب المعارضين للنظام الذين دعوا إلى قول «لا» - قناعة منهم بضعف التعديلات - فقد اكتشفوا مدى قوة الإخوان المسلمين، حتى لو كانت نتيجة الاستفتاء تعود بشكل كبير إلى الخوف من البطالة والرغبة فى العودة بأسرع وقت للحياة الطبيعية.

من بين الفائزين هناك الجيش بلا شك، الذى استطاع أن يحتفظ بهيبته، بل أن يزيد منها عندما امتنع عن استخدام القوة ضد المتظاهرين. فدعوة حسنى مبارك إلى الرحيل لم تكن حتمًا بالأمر الهين على قادة الجيش المقربين من «الرئيس» منذ سنوات طويلة، فهو واحد منهم، وأحد قادة حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ضد إسرائيل[1]، ورغبة

---

(١) شاء القدر أن يرحل عن الحياة البطل الرئيسى لهذه الحرب اللواء سعد الدين الشاذلى يوم ١٠ من فبراير. كان السادات قد قام باستبعاده ثم تعرض للسجن على يد حسنى = =

من الجيش في إبعاد جمال مبارك - الذى لا ينتمى إلى المؤسسة العسكرية، والذى كان من الممكن أن يهدد مصالحها - وجد الجيش نفسه مضطرًا على نحو ما إلى إبعاد أبيه. أما من يخشون وقوع انقلاب عسكرى فقد طمأنهم الصحفى الكبير هانى شكر الله بقوله: «ليس علينا أن نحارب أشباحًا، الجيش لن يسعى إلى السلطة السياسية، ولن تُشكل حكومة عسكرية. إننى أتفهم هذا القلق ولكننى لن أقع مثلكم أسيرًا لهذه الفوبيا. لا يجب السماح لأشباح الماضى أن تلقى بظلالها على حاضرنا أو مستقبلنا. إن الثورات الشعبية لا تسفر عن حكومات عسكرية، قد يحدث هذا فى حالات الانقلاب العسكرى والثورة المضادة. فلا تبددوا طاقاتكم فى مصارعة طواحين الهواء، إن ما يلوح فى الأفق هو حكومة مدنية وليست حكومة عسكرية، ومن الضرورى أن نتأكد أن هذه الحكومة ستدخل فى إطار نظام سياسى ديمقراطى[1]».

قام المجلس الأعلى للقوات المسلحة بتعطيل العمل بالدستور، وقام بحل البرلمان، وأعلن أنه سيقوم بإدارة شئون البلاد لمدة ستة أشهر حتى موعد الانتخابات التشريعية والرئاسية المقبلة، لم نشهد من قبل جيشًا يتعجل بهذا الشكل تسليم السلطة إلى مدنيين، طالب صناع ثورة ٢٥ من يناير العسكريين بتأجيل الانتخابات المقررة حتى يتسنى لهم تنظيم صفوفهم، فمثل هذا الجدول المسرع أثار بعض الشكوك: ألا يصب مثل هذا الجدول فى مصلحة القوتين السياسيتين الوحيدتين المنظمتين أى الحزب الوطنى الديمقراطى المنحل والإخوان المسلمين؟

إذا كان الجيش قد اكتسب المزيد من النفوذ فالشرطة على العكس من ذلك قد

= =

مبارك الذى اتهمه البعض برفع صورة اللواء الشاذلى من كل وثائق هذه الفترة ووضع صورته هو مكانها. دفن اللواء الشاذلى يوم ١٢ من فبراير دون مراسم عسكرية.

(١) الأهرام ويكلى - ١٢ من فبراير ٢٠١١.

تفككت أوصالها خلال الثمانية عشر يومًا، وبدا أنها فى حالة انهيار تام، وشهدنا بعض رجال الشرطة يقومون بإحراق مقارهم، وبعض أفراد أمن الدولة يحرقون بعض الملفات الخطيرة، حتى إن بعض المعارضين اقتحموا المكان ليمنعوهم من تدمير الوثائق. أدى ضعف الشرطة بل على الأدق اختفاؤها إلى خلق شعور مقلق بعدم الأمن. كان لذلك آثار كارثية على الآثار القديمة. فأماكن التنقيب عن الآثار التى لم توجد بها أية حماية أمنية تركت تمامًا نهبًا للناهبين.

الشياطين يعودون للظهور

مرت مصر بزلزال حقيقى وهذا ما أظهره بالفعل استفتاء ١٩ من مارس بصرف النظر عن نتيجته، فلم تشهد مصر من قبل هذا العدد من الناخبين يتوجهون للتصويت.

أحد التفاصيل ذات المغزى، «عندما توجه محافظ القاهرة مباشرة إلى ركن التصويت طالبه بعض الأشخاص غير المعروفين بأن يقف فى الطابور مثل الآخرين، واضطر إلى الامتثال! » هكذا بدأ المصريون يكتشفون الحياة الديمقراطية بعد شهرين من سقوط مبارك، كان هناك نحو حوالى ثلاثين حزبًا يستعدون للظهور، ولكن دولة سيادة القانون لا تولد بين ليلة وضحاها، فقد ظلت هناك بعض العادات السيئة، فقد اتُهمت الشرطة العسكرية بتعذيب بعض المعارضين بالكهرباء، من ناحية أخرى قُبض على عشرين من المتظاهرات فى أعقاب إحدى المظاهرات يوم ٩ من مارس فى ميدان التحرير، ووفقًا لمنظمة العفو الدولية فقد تعرضن للضرب والبطش بالعصى الكهربائية، كما عُرِّين وأُجبرن على الخضوع «الكشوف العذرية».

كان يوم ٩ من مارس يوافق فى الواقع «اليوم العالمى للمرأة» واتضح للجميع أن هناك طريقًا طويلاً يجب قطعه للوصول للمساواة بين الجنسين، لم تُدع امرأة واحدة للمشاركة فى لجنة مراجعة التعديلات الدستورية، وقد سارعت وزيرة الخارجية الأمريكية هيلارى كلينتون إلى تأكيد أنه فيما يتعلق بحقوق المرأة وتحررها هناك تراجع «يخشى من حدوثه للأسف خلال المرحلة الانتقالية».

وفى شأن هذا التراجع يمكن الاعتماد على السلفيين. هؤلاء المتطرفين الذين كانوا حتى وقت سقوط مبارك لا يعلنون عن أنفسهم، استفادوا تمامًا من ضبابية المشهد فى البلاد ليظهروا فوق السطح وبأسوأ صور.

فى المنوفية قام ٣٥٠ شخص بمحاصرة منزل سيدة اتُهمت بسوء السلوك، وقاموا بإلقاء أثاثها فى الشارع وحرق منزلها، وهددوها بالموت إذا ما حاولت العودة للمكان. مجموعة أخرى فى مدينة قنا اعتدت على رجل قبطى يبلغ من العمر ٤٥ عامًا ويُدعى أيمن مترى وقاموا بقطع أذنه - وفقا للشريعة كما يدعون - وذلك لأنه كان على علاقة غير شرعية بسيدة مسلمة.

كان السلفيون أيضًا وراء الصدامات الدامية بين الأقباط والمسلمين، التى وقعت يوم ٩ من مارس فى حى المقطم بالقاهرة، بعد الحريق الذى وقع بإحدى الكنائس، وإن كان هذا لا يمنع أن بعض العناصر التابعة للنظام تقوم بإثارة الاضطرابات الطائفية لأغراض سياسية. لا يوجد أفضل من تلك الوسيلة لتلويث روح ميدان التحرير. وقد أطلق على قوى الظلام هذه اسم «حزب الجمل».

الخاتمة

هاأنذا أعود لميدان التحرير بعد شهرين من الخامس والعشرين من يناير، هل كانت ثورة؟ أى ثورة؟ يصعب حتى مجرد تخيل أنه كان هناك فى هذا المكان على بعد عدة خطوات من المتحف المصرى من كانوا يتبادلون قذف الحجارة وقنابل المولوتوف. الميدان يحتفظ تماماً بصورته قبل الأحداث: الصينية الدائرية للسيارات، تدفق المارة والباعة الجائلون فى شارع طلعت حرب. كنا لنشكك فى كل ما حملته ذاكرتنا من صور شاهدناها على شاشة التليفزيون خلال الثمانية عشر يوماً لولا وجود هذا المبنى الكبير المتفحم الواقع على ضفاف النيل، هو أطلال للحزب الوطنى الديمقراطى الذى لم يكن أبداً ديمقراطيا بل لم يكن أبداً حزباً.

جزئية صغيرة جديدة.. هذا الكم الهائل من تذكارات الثورة المعروض فوق أحد الأرصفة. يمكنك مقابل مبلغ معقول أن تحصل - تبعاً لاختيارك على علم ثلاثى الألوان يتوسطه نسر صلاح الدين، أو شارة تحمل علامتى الهلال والصليب، أو غطاء جميل للرأس بألوان العلم الوطنى. هناك أيضاً هذا البوستر - الذى يحظى بإقبال أقل.. والذى تتصدره صورة فريق كرة القدم الشرير «الفاسدون» ومن بينهم العديد من وزراء مبارك الذين أدانهم الشارع قبل أن تتم محاكمتهم، بل ويظهر الرئيس السابق نفسه وقد تحولت ملامحه إلى شكل مفزع. هذا الرئيس الذى كان من الممكن أن نرى صوره تباع هنا على استحياء قبل شهرين.

لكن البوستر الذى يجذب الانتباه بشدة والأكثر مبيعاً هو الذى يباع بمثابة تحية

«للشهداء» والذى يحمل صور لوجوه أكثر من خمسة عشر شاب وفتاة.داخل دوائر من القلوب. وبجوارهم لقطة مكبرة لضابط بزيه الرسمى الأزرق يؤدى التحية العسكرية. هذه ذكرى أحد اللحظات الخالدة التى سجلها التليفزيون أثناء قراءة أحد البيانات العسكرية، تلك اللحظة التى سجلت اسم بطلها المجهول فى صفحات التاريخ.

كل من زار مصر من الشخصيات المرموقة طلب - دون استثناء - التوجه إلى ميدان التحرير لإلقاء بعض كلمات قوية أمام الكاميرات: «هذا أمر رائع» هذا ما قالته وزيرة الخارجية الأمريكية هيلارى كلينتون وهى قطعاً لم تعنى المكان فى ذاته، فميدان التحرير الذى أصبح لا يقل شهرة عن ميدان السلام السماوى تيان آن مين وميدان الكونكورد يستحق بعض الإصلاحات العاجلة وهو ما يوافقنى عليه زميل الدراسة السابق منير عبد النور الذى أصبح الآن وزيراً للسياحة، لا بد من إنشاء نصب تذكارى يهدى «للشهداء» ولكن شركة مصر للطيران لم تنتظر تشييد مثل هذا البناء بل سارعت بالترويج للسياحة الثورية، فعرضت على موقعها وعلى يوتيوب فيل دعاية قصير باسم «أجنحة الحرية».

الواقع أن الثورة تحدث يومياً فى ميدان التحرير. فبحلول الظلام تقوم مجموعات صغيرة بعمل مناقشات تتناول السياسة والعدالة الاجتماعية أو الحرية. هذا تأثير ما حدث بشكل أو بآخر فى كل مكان فى مصر خلال ربيع ٢٠١١ أخذ الشعب الكلمة وهو غير عازم على التخلى عنها، ولكن بعد فورة النصر بدأ القلق وعدم اليقين فى تصدر المشهد. البعض يخشى على عمله أو أمواله، البعض الآخر يخشى السلفيين أو الإخوان المسلمين، وحامت تساؤلات حول المواقف السياسية الملتبسة للجيش ومناورات الحزب الوطنى السابق.

إذا ما كانت الثورة محل احتفال من كل الأطراف - بدءاً بالإعلام الرسمى الذى كان لديه الكثير مما يستوجب عليه طلب المغفرة - فإن «الثورة المضادة» قد بدأت إدانتها بشكل صريح.

هذا المساء انتقل ميدان التحرير إلى الضفة الأخرى من نهر النيل فى دار الأوبرا بالقاهرة. داخل قاعة من طابقين، تم عرض صور الثورة، وكان هناك قرصاً مدمجاً «CD» به تجميع لصور وفيديوهات مصورة للثمانية عشر يوماً، يباع لصالح أسر «الشهداء»، قبل بدأ النقاش كان هناك كورال يشدو بأغانى وطنية قالت لى السيدة حنان حلمى التى رافقتنى «قبل ذلك كنت أجد هذه الأغانى مثيرة للسخرية أما الآن فعيناى مغرورقتان بالدموع».

كان هناك عدد كبير من الشباب فى القاع، وأغلبية من النساء غير المحجبات. أمام الميكروفون وقف طابور طويل من الأشخاص الذين يرغبون فى أخذ الكلمة. وألهب القس القبطى القاعة بالحماس عندما أخذ الكلمة. وتعالت الأصوات داعية إياه للصعود على المنصة، وقال أحدهم من مكانه ليدعوه للجلوس «مسلم مسيحى ايد واحدة» كانت روح التحرير لا تزال ترفرف على المكان.

كان علاء الأسوانى أحد الوجوه البارزة لهذه الثورة، وكثيراً ما ألهب بحديثه حماس الجموع، خلال لقاء تليفزيونى يوم ٢ مارس هاجم الأسوانى بعنف غير معهود رئيس الوزراء أحمد شفيق الذى سارع بتقديم استقالته.

كنا نتناول العشاء سوياً فى أحد الأندية بمنطقة جاردن سيتى، غير بعيد عن ميدان التحرير، كان على كاتب عمارة يعقوبيان أن يتوخى الحذر فقد جاء اسمه فى المرتبة الثالثة فى قائمة أسماء بالأشخاص الواجب قتلهم. وقد قام بتلخيص الموقف بإيجاز: إن جزء من الشعب المصرى هو الذى استيقظ وليس كل الشعب. إن الثورة المضادة تعلم جيداً أنها لا تستطيع عمل شيء مع الجزء الأول من الشعب، لذا فهى «تعمل» بنشاط «على الجزء الثانى». أصابه الإخوان المسلمون بخيبة أمل، فهو يتهمهم بأنهم خانوا الثورة، وهو رأى الكثيرين ممن صوتوا بـ «لا» فى الاستفتاء. أما رجل الأعمال الوفدى «مصطفى الجندى» الذى استقبلنى فى فندقه بالمعادى الذى هجره السياح، فهو يقول نفس الرأى بصورة أكثر تعبيرية: «الإخوان غادروا الميدان» كل الشفاه تنطق بالثورة و «الثورة المضادة»، أيضاً تلك

الثورة المضادة التى بدأت غداة رحيل مبارك، وهل كان يمكن ألا يكون الأمر كذلك.

فهناك الكثير من المصالح المهددة، وفى غمار فورة الحماس يوم ١١ فبراير نسى أصحاب ثورة ٢٥ يناير أن الثورة هى طريق طويل مضنى ملىء بانتفاضات، ولعل الفشل المدوى لمن قالوا «لا» فى الاستفتاء قد ذكرهم أن مصر بها ٨٥ مليون نسمة، وأن الفوز فى الانتخابات يتم أيضاً عن طريق القرى والمدن الصغيرة.

ولكن كل هذا لم يمنع روح التحرير من كتابة شهادة ميلاد العديد من المبادرات المدنية. «لم يعد أى شىء كما كان من قبل» هذا ما أكدته الصحفية فريدة الشوباشى التى لم تكن تنتظر ال٢٥ من يناير لتعرب عن رأيها بشجاعة فى التليفزيون: «أنا متفائلة لأن حاجز الخوف قد سقط»، وقالت فيما يشبه الافتراض المسلم به: «غن أحد شروط الاستقرار هو التغيير».

أمام مناورات النظام المخلوع وأيضاً أمام جيش لا تتسم تصرفاته بالصراحة، وجد شباب ٢٥ يناير أنفسهم يقاتلون وهم عزل ولكنهم معاً يملكون أحد أسلحة الردع الشامل: فهم يستطيعون فى أى لحظة أن ينزلوا إلى الشوارع مئات الآلاف من الأشخاص، «لقد أصبحنا نعرف الآن الطريق إلى التحرير» قال لى ذلك وقد علت الابتسامة وجه الشاعر الموهوب والإعلامى «يوسف عبد الرحمن» المدير السابق لحملة البرادعى، أما عامل المقهى الذى تعرف عليه فقد رفض تماماً أن ندفع حساب مشروباتنا.

هذا المساء قمت بجولة فى حى الأزهر الإسلامى بصحبة مايسة مصطفى وهى ليست مجرد مرشدة سياحية استثنائية، ولكن أيضاً صديقة. أخذنا نتجول فى هذه الشوارع المزدحمة، حيث كان عدد السياح الغربيين لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة، كان هناك مولد لأحد الأولياء المحليين. كان مئات الأشخاص القادمين من قراهم فى الدلتا يدخلون ويخرجون من أحد المساجد ذات الإضاءة الشديدة بينما تتصاعد من أحد الميكروفونات الأهازيج الدينية. هنا نبتعد مسافات كبيرة عن

«فيسبوكى التحرير». استمر المولد حتى موعد حظر التجول فى منتصف الليل. مايسة تشعر أنها فى بيتها سواء هنا أو هناك.

أخذت تحدثنى عن زيارتها والعائلة إلى ميدان التحرير أثناء الأحداث. فى أحد الأيام توجهت هى وزوجها وأولادها لى ميدان التحرير عن طريق كوبرى قصر النيل، وسط حشد كبير، كان الجميع يدوسون على أقدام بعض، وعندما وصلت إلى أحد نقاط التفتيش كان عليها أن تظهر بطاقة هويتها مثل الجميع، عندما اكتشفت أن البطاقة قد سقطت منها فى الطريق، ومع ذلك فقد تركتها قوات الأمن تمر، بعد بضع دقائق لحق بها أحدهم فى قلب الميدان معطياً إياها بطاقة الهوية: «هل أنتى مايسة مصطفى؟»

لم تكن الوحيدة التى تأثرت بروح التحضر والتسامح والمحبة التى كانت سائدة فى الميدان. كانت بالفعل ثورة أظهرت كل مكنونات هذا المجتمع العميقة إنها ثورة أولاً فى السلوكيات، كل فرد يظهر أفضل ما بداخله. كثيرون يكررون هذا القول: «هذه الأيام الثمانية عشر هى أجمل أيام حياتى» هى دعوة للتقدم للأمام أكثر منها مجرد ذكرى، فثورة الخامس والعشرون من يناير ما تكاد تبدأ.

الثمانية عشر يوما

الثلاثاء ٢٥ يناير:

- «يوم الغضب» الأول، بمناسبة عيد الشرطة. مظاهرات، تم تنظيمها فى القاهرة ومدن مختلفة تضم عشرات الآلاف من الأشخاص والشرطة تستخدم الغاز المسيل للدموع.
- مقتل متظاهرين بالسويس. ومقتل ضابط من جراء ضربة على الرأس. قوات الأمن تُلقى القبض على ما يقرب من ٢٠٠ شخص.
- وزيرة الخارجية الأمريكية ترى أن «الحكومة المصرية مستقرة وتسعى للوفاء باحتياجات الشعب».

الأربعاء ٢٦ يناير:

- وزارة الداخلية تلقى مسئولية أحداث البارحة على عاتق الإخوان المسلمين، وتحذر بأنها «لن تسمح بأى أعمال استفزازية، أو تجمعات احتجاجية، أو مسيرات أو مظاهرات». فى القاهرة، تم إخلاء ميدان التحرير برشاشات المياه والغاز المسيل للدموع.

- عشرات من المتظاهرين يخرجون إلى الشوارع رغم تحذير السلطات. اشتباكات مع قوات الأمن،أكثر عنفاً من تلك التى دارت البارحة، تودى بحياة شخصين فى العاصمة. بلغت محصلة المصابين ٨٥ مصاب فى السويس حيث نشبت الحرائق فى العديد من المبانى العامة.
- إيقاف السلطات لموقعى فيسبوك وتويتر.
- واشنطن تدعو «كافة الأطراف إلى ضبط النفس وتجنب اللجوء إلى العنف».

الخميس ٢٧ يناير:

- توقيف ما لا يقل عن لحو ألف شخص
- فى شمال سيناء، البدو يواجهون قوات الأمن. إطلاق صواريخ مضادة للدبابات على الشرطة. ومقتل متظاهر.
- عودة المعارض محمد البرادعى إلى مصر الذى أعلن استعداده لتولى «المرحلة الانتقالية».

الجمعة ٢٨ يناير:

- «يوم غضب» جديد يتزامن مع صلاة الجمعة الأسبوعية. انضمام الإخوان المسلمين للحركة.
- مشاهد لمشاحنات وحروب شوارع بالعاصمة يصاحبها أصوات إطلاق نيران، وحرق العديد من المبانى العامة من بينها مقر الحزب الوطنى الديمقراطى بالقاهرة ومقر المحافظة بالإسكندرية.
- حسنى مبارك يُعلن حظر التجول ويستدعى الجيش للمساعدة. بنهاية المساء، يعلن تغيير الحكومة فى خطاب تلفزيونى.
- المحصلة المبدئية لليوم:٦٨ قتيل ومئات الجرحى.

السبت ٢٩ يناير:

- عمليات سلب تخيم على الليل بعد اختفاء الشرطة. عمليات شغب والعديد من حالات الهروب فى السجون.
- معارضون يتظاهرون فى القاهرة والإسكندرية بينما يتعرض مقار أمن الدولة فى رفح والإسكندرية للهجوم. ومقتل ١٧ شخصاً على يد الشرطة فى بنى سويف.
- حسنى مبارك يتخذ عمر سليمان نائباً له ويعين أحمد شفيق على رأس حكومة جديدة.
- الملك عبد الله، عاهل المملكة العربية السعودية، ومحمود عباس، رئيس السلطة الفلسطينية، يعربان عن دعمهما للريس. أما فى قطر، فينادى الشيخ القرضاوى، ذو النفوذ، برحيله.

الأحد ٣٠ يناير:

- المعارضة توكل محمد البرادعى للتفاوض من اجل تشكيل حكومة وحدة وطنية.
- باراك أوباما يطالب « بمرحلة انتقالية منظمة وصولا إلى حكومة تستشعر تطلعات الشعب المصرى».
- مظاهرة حاشدة بميدان التحرير. ومقاتلات تحلق على ارتفاع منخفض فوق العاصمة
- اتخاذ إجراءات لمنع قناة الجزيرة من تغطية الأحداث.

الاثنين ٣١ يناير:

- محمود وجدى بديلاً لحبيب العادلى فى وزارة الداخلية بالحكومة الجديدة.

- الجيش يعتبر تطلعات المتظاهرين «مشروعة» ويعلن أنه لن يلجأ إلى القوة ضدهم.
- عمر سليمان، نائب الرئيس، يعلن فتح مشاورات مع كافة القوى السياسية.

الثلاثاء ١ فبراير:

- نجاح «المليونية» ومئات الآلاف من الأشخاص يتظاهرون فى القاهرة والإسكندرية وعدة مدن أخرى.
- فى خطاب تلفزيونى ثانى، حسنى مبارك يعلن عدم نيته الترشح لفترة جديدة وتخصيص الشهور الأخيرة من مدة رئاسته للإصلاحات.

الأربعاء ٢ فبراير:

- مظاهرات مؤيدة لمبارك.
- ما يقرب من خمسين شخص من مؤيدى الريس، يمتطون الجمال والخيل، يعتدون على مظاهرى ميدان التحرير. اشتباكات عنيفة تتواصل حتى منتصف الليل تؤدى إلى وفاة ٦ أشخاص وإصابة ٨٣٦ شخص وفقاً لوزارة الصحة.

الخميس ٣ فبراير:

- الجيش يتدخل بين الفريقين فى الميدان، إلا أن المواجهات تستمر فى الشوارع المجاورة.
- أحمد شفيق رئيس الوزراء يقدم «اعتذاراً» عن أحداث العنف التى حدثت فى الليلة الماضية.
- عمر سليمان،نائب الرئيس يعلن أن نجل الرئيس الأكبر، جمال، لن يترشح لخلافة والده.
- منع عدد من الوزراء السابقين من السفر خارج مصر.
- قادة أكبر خمس دول أوروبية (ألمانيا، بريطانيا، فرنسا، إيطاليا، وأسبانيا) يطالبوا

ببدء المرحلة الانتقالية «بداية من ألان» ويدينوا «كل من يلجأ إلى العنف أو يشجع على استخدامه». ومنظمة الأمم المتحدة تنادى أيضاً ببدء المرحلة الانتقالية «فوراً».

- العديد من الصحفيين الأجانب يقدمون شكاوى بخصوص منعهم من مزاولة عملهم. البعض تم التعدى أو إلقاء القبض عليه أو إساءة معاملته.

الجمعة ٤ فبراير:

- وزير الدفاع، المشير طنطاوى، يذهب إلى ميدان التحرير ويلتقى، سريعاً، بممثلى الحركة. تبعه فى المساء عمرو موسى، الأمين العام لجامعة الدول العربية، الذى لا يستبعد ترشحه لانتخابات الرئاسة.
- مئات وآلاف يشتركون فى « يوم الرحيل» للمطالبة بتنحى مبارك.
- المرشد الأعلى الإيرانى يدعو إلى ا تباع نظام إسلامى فى مصر
- إغلاق مكتب قناة الجزيرة بالقاهرة

السبت ٥ فبراير:

- الجيش يسعى دون جدوى لإخلاء ميدان التحرير.
- أعضاء المكتب التنفيذى للحزب الوطنى الديمقراطى الحاكم، بما فى ذلك جمال مبارك، يقدمون استقالتهم.
- المبعوث الأمريكى فى مصر، فرانك ويزنر، يرى ضرورة أن يشرف حسنى مبارك على الفترة الانتقالية. وواشنطن لا تصدق على تصريحاته.
- فى أعقاب تفجير خط غاز بسيناء، تعليق تصدير الغاز الطبيعى إلى إسرائيل.

الأحد ٦ فبراير:

- الإخوان المسلمون يوافقون على الانضمام للمشاورات التى ينظمها عمر

سليمان إلا إنهم يرون عدم كفاية الإصلاحات المطروحة. ومحمد البرادعى يندد ما اسماه «عملية غامضة».

- إعادة فتح البنوك والكثير من المحال التجارية.
- المسيحيون ينظمون قداساً فى ميدان التحرير.

الاثنين ٧ فبراير:

- الإعلان عن زيادة ١٥٪ فى مرتبات الموظفين ومعاشات العسكريين والمدنيين.
- متظاهرون ينامون حول دبابات الجيش لمنعهم من ترك ميدان التحرير.

الثلاثاء ٨ فبراير:

- مئات الآلاف من الأشخاص يتظاهرون فى القاهرة والعديد من المدن. تعد هذه المظاهرات الأهم منذ بداية الحركة.
- حسنى مبارك يشكل لجنة لتعديل الدستور.
- استقبال حافل بميدان التحرير لوائل غنيم، مدير صفحة «كلنا خالد سعيد»، الذى أطلق سراحه الليلة الماضية.

الأربعاء ٨ فبراير:

- مئات المتظاهرين يحوطون البرلمان ومقر محافظة القاهرة. مجلس الوزراء يضطر أن يعقد فى مكان آخر.
- السلطة تحذر من أن الجيش سيتدخل «فى حالة الفوضى حتى يستعيد السيطرة على الأمور».
- موجه من الاعتراضات تجتاح القطاع الاجتماعى بتنظيم مسيرات وإضرابات فى قطاعات اقتصادية مختلفة.

- فى بورسعيد، سكان أحد الضواحى يخربون مقر المحافظة.
- القمر نايل سات يعيد بث قناة الجزيرة بعد توقف دام احد عشر يوماً.

الخميس ١٠ فبراير:

- فى «البيان رقم ١»، الجيش يعلن أنه يدرس «الإجراءات» اللازمة «لحماية الوطن» و «دعم المطالب المشروعة للشعب».
- الخطاب التلفزيونى الثالث لحسنى مبارك: الريس يؤكد من جديد عدم ترشحه لفترة رئاسية جديدة إلا انه يستبعد تقديم استقالته على نحو فورى. ويتخلى عن جزء من سلطاته لنائب الرئيس عمر سليمان.
- المتظاهرون يعربون عن غضبهم وإصرارهم.
- عمال أكبر مصنع للنسيج، فى المحلة الكبرى، يبدأون اضطرابا تضامناً مع المتظاهرين ويطالبون بزيادة المرتبات.
- تخريب مقر الشرطة فى بور سعيد.

الجمعة ١١ فبراير:

- فى البيان «رقم ٢»، المجلس الأعلى للقوات المسلحة يعلن نفسه «ضامناً» للإصلاحات التى أعلنها الريس مؤكدين «ضرورة العودة للحياة الطبيعية».
- معارضون يتجمعون أمام قصر الرئاسة بهليوبوليس للمطالبة برحيل مبارك.
- فى فترة ما بعد الظهيرة، عمر سليمان يعلن أن الريس «تخلى عن سلطاته كرئيس للجمهورية» وكلف المجلس الأعلى للقوات بإدارة الشئون العامة للبلاد.
- مظاهرات حاشدة تعبر عن الفرحة فى مصر وعواصم عربية مختلفة.

المحتويات

إنسانيات

سلسلة تعنى بنشر الحقول المعرفية التى تهتم بدراسة الإنسان وتاريخه وطبيعته وبيئته وقدراته الإدراكية وواقعه الاجتماعى والثقافى والسياسى، بالإضافة إلى النواحى المختلفة من النشاط البشرى وما ينشغل به البشر من إشكاليات حياتهم ومجتمعهم، وأنساق ثقافاتهم وقيمهم فى علوم مختلفة مثل: التاريخ والفلسفة والأنثروبولوجيا والاقتصاد والنقد الأدبى والقوانين والتشريع والعلوم السياسية إلى غيرها من المعارف العامة التى يترقبها المتلقى ويحرص على متابعتها لتساعده فى تكوين مرجعيته الثقافية العامة .

ISBN# 9789774482892



٤ جنيهات

